الدكتور مصطفى غالب

الحركات الباطنية في الإسلام

دار الأندلس

الحركات الباطنية في الاسلام

الدكتور مصطفى غالب

الحركات الباطنية في الاسلام

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - هاتف: ٣٠٧٣٢٧ - ٨٩٩٠٩٧ - ٨٦٦٠٧٢ - ٨٦٦٦١٨ - ٨٦٦٦١٩
ص.ب.: ١١/٤٥٥٣ - تلكس LE ٢٣٥١٦ أندلس - تلفاكس ٣١٥١٧٧ - برقياً: هاصيدلسي

مقـــدّمة

يمر الانسان اليوم في مرحلة تقدم نحو المعرفة تحرره من الأساطير والخرافات والأوهام المضللة ، وتهيب به نحو الواقعية المجردة ، وتقرب الى افهامه الحقيقة المنزهة .

لذا رأينا بأن الواجب العلمي يحتم علينا أن نضع بين يدي انسان هذا العصر دراسة واقعية مجملة للحركات الباطنية وتبيان أصولها وفروعها وتنظيماتها وعقائدها ليتمكن من الالمام بقسط مما تحمله هذه الحركات في جوهرها من أهداف وغايات نبيلة ، ولتذخر به معتقداتها من نظرات فلسفية عميقة الى الكون والوجود والطبيعة وما وراء الطبيعة ، وتنظيمات دعائية تستمد اصولها من حقيقة الدين الاسلامي ونظراته الشاملة .

والباحث في تاريخ وعقائد الباطنية التي ظهرت على مسرح العالم الاسلامي فلعبت دوراً خطيراً في التاريخ الروحي والسياسي للاسلام منذ القرن الثاني الهجري يتبين له ان دراسة هذه الحركات ليست من الموضوعات السهلة في تاريخنا وفلسفتنا الاسلامية . والحديث عنها ليس أمراً ميسوراً مثل الحديث عن العقائد الظاهرة الثابتة ، ومع ذلك فقد ظلت موضع

جدال بين العلماء والكتاب والمؤرخين عدة قرون ، وكانت سبباً في قيام حركة فكرية ناشطة .

كما كانت الفرق الباطنية عرضة لجهل بعض المؤرخين والمؤلفين وتحامل المغرضين وزمر المتحاملين ، ونقمة الفقهاء الذين لم يجدوا أقل من الزندقة والكفر والالحاد يتهمونها به

فاذا أنعم قارىء التاريخ النظر ودرس أحوال العصور الاسلامية الأولى من جميع نواحيها دراسة وافية على ضوء التجرد والحياد ، انتهى الى نتيجة تميط اللثام عن حقائق كثيرة طمستها الأجيال ، وكنوز نادرة دفنت في بطون الكتب

ومما لا شك فيه أن التاريخ الاسلامي دوّن ونشر في عصور طغت فيه العصبية الرعناء على الحقيقة الناصعة ، وراج فيهـا سوق الافتراء والاختلاق والدس والتحامل

لذلك لا يستغرب إذا قلنا إن الحركات الباطنية التي نحن بصدد الكلام عنها قد ظلمت في تلك العصور ونالها من خصومها من الأذى والتشريد والظروف السياسية الصارخة بالرعب والدم ، ذلك مما كان من اكبر العوامل التي ادت الى اختفاء مفكريهم ، وضياع آثارهم ومؤلفاتهم وفي تراكم الأساطير حولهم .

لهذا كان الباحث ملزماً في الرجوع لمعرفة تاريخهم وعقائدهم وألوان تفكيرهم الى مؤلفات ومصادر خصومهم ، والى كتب وضعت في زحمة تلك الظروف القاسية ، فجاءت جميع الاحكام مضطربة مشوهة متناقضة لا تعكس واقع الفكر الباطني ، ولم تعط صورة صحيحة نفسية عنه .

لذلك وجب على كل باحث منصف تنبض في شرايينه دماء الحقيقة وتنبع في اعماق نفسه الخلاقة الكرامة الفاعلة بمقوماتها الروحية السامية

أن يرفض بإباء وشمم أخذ المصادر على علاتها ، وعليه ان يتحرر قبل التمعن فيها من كل فكرة سابقة ، فاذا ما فرغ من تدقيق المصادر على ضوء الحقيقة والواقع عاد الى نفسه وضميره وقابل بين الحق والباطل ، فاستكشف بذاته مورد الصدق فالاخلاص للحقيقة والتفاني في سبيل ايجادها هو المقياس الواقعي لكل باحث منصف .

ولكننا نشعر والألم الممض يحز في اعماقنا ، ويتفاعل في وجداننا حينما نتصفح التاريخ الاسلامي فنرى أن مفكرينا القدامى لم يقدموا لنا صورة واضحة جلية عن الحركات الباطنية ، لأن عقولهم وافكارهم لم تكن قد وصلت الى التحرر من قيود العصبية العنصرية العمياء ، والتعصب المذهبي البغيض

وباعتقادي ان غاية واضعي التاريخ الاسلامي في تلك العصور المضطربة كانت تهدف الى ارضاء من بيدهم الصولجان والسلطان السياسي والديني من ملوك وحكام وامراء ، وفقهاء عرفوا بجمودهم وضعف تفكيرهم . ومما لا شك فيه ان الخوف من السيوف الحادة المسلطة على الرقاب جعل هؤلاء يخضعون مضطرين الى تشويه تاريخ كل حركة او فرقة اسلامية غير موالية لنظام الحكم السياسي القائم ، ناسبين اليها متعمدين الكفر والالحاد والزندقة مع الطعن على عقائدها وتسفيه مبادئها والسخرية من آرائها

لذلك لا نستغرب اذا وجدنا التاريخ الاسلامي محشواً بالدس الوضيع ، مملوءاً بالترهات والسفاسف ، متناقضاً ومتبايناً ، يتضح للباحث عن الحقيقة المجردة من خلال سطوره مظاهر التحامل السافر .

والأغرب من هذا كله ان الكتاب المعاصرين ورجال العلم لا يزالون يجرون على قاعدة الأخذ والنقل عن المصادر القديمة دون ان يكون لديهم ما يميز بين الحق والباطل او الطيب والخبيث

في صفحـات التاريخ الاسلامي مزاعم كثيرة لا تحصى بأن الحركات الباطنية كانت تؤلف في جميـع العصـور التي مضت خطراً محدقـاً بالاسلام وبالخلافة ، وذلك لابتداعها مذاهب فلسفية باطنية لا عهد للناس بها ، ولسعيها في كل الأدوار الى قلب نظام الحكم القائم واعادة (اهل البيت) الى سدة الخلافة ، واعتبارها هذا الأمر من حقوقهم المهضومة التي اغتصبت بعد وفاة النبي ﷺ .

ولعمر الحق ان موالاة اهل البيت والاعتراف بفضلهم وانهـم احق الناس بالخلافة ليس من الجرائم التي يجب ان تؤدي الى ما أدت اليه ؛ لأن الخلافة والامامة لم تكن في يوم من الأيام سلعة محتكرة ، وانما هي تولية وتفويض تأتي بالنص الشرعي ، لها أهلها ، ولها أصحابها الذين لا يجوز أن تتعداهم الى آخرين

ومع ذلك فقـد ظلت الامامة موضع جدال بين العلمـاء والكتاب والمؤرخين عدة قرون ، وكانت سبباً في قيام الحركات الفكرية العقلانية الهادفة الى اقامة مجتمع اسلامي رفيـع ، تتضافر فيه جهود أبناء الأمة لبلوغ الهدف الأمثل لدى الانسان الكامل .

اننا نلاحظ ونحن ندرس الحركات الباطنية في الاسلام من الناحيـة العقائدية والاجتماعية والسياسية على ضوء الواقع والحقيقة ، انهـا كانت تنهد في كافة مراحلها وأدوارها عبر التاريخ الى خلق مجتمع مثالي وفق مبادىء انسانية تهدف الى اسعاد الفرد وبناء صروح المجتمـع الاسلامي الاشتراكي السليم ، على أسس من العدالة المنبثقة من تعـاليم القرآن وارشادات النبي العظيم واحفاده الأئمة الاطهار .

ومن الواضح ان علماء الحركات الباطنية في مختلف العصور قد عملوا على تطوير الفكر الاسلامي وتفجير طاقاته الخيرة ، وجعله خصباً منتجاً يوزع العلم والمعرفة على العالم .

ومما لا جدال فيه أن الباطنية في اكثر عصورهم كانوا يملكون ناصية العلم والفكر والفلسفة ، وان الروح الفلسفية الاسلامية تتجلى في مراحل تاريخ الحركات الباطنية بصورة واضحة ، وقد كان لتوجيه الأئمة من اهل البيت الأثر الكبير في ذلك .

وتتميز سلوكية الباطنية بجهودهم العلمية والسياسية التي بذلوها لتخليص المجتمعات الاسلامية من الظلم والتحكم والسيطرة ، مما كان له اثره في كثرة الاقبال على الانخراط في صفوفهم واعتناق نظرياتهم لأنها أكثر تغلغلاً في الجماهير ، واثبت جذوراً في النفس الانسانية فطبقت شهرة منظماتهم الآفاق ، بعد أن انضم اليها الفلاحون والعمال وأصحاب الحرف ، واصبحوا حجر الثقل في العالم الاسلامي .

أليست هذه الظواهر كافية لدراسة الحركات الباطنية في الاسلام وبحث جوانبها ؟

والانصاف يحتم علينا أن لا ننسى لهم ما قاموا به من الأدوار الكبيرة في الحركة الثقافية في الأحقاب الاسلامية الماضية ، حيث امتد نشاطهم الفكري الى كل مـا كان هناك من علوم معروفة ، وقد ترك فلاسفة وعلمـاء الباطنية آثاراً غنية بالفكر والمعرفة في جميع المواضيع التي عالجوها ، وعنوا العناية الفائقة في مسألة اثبـات الصانع ، وتوحيده ، والعدل ، والنبوة ، والامامة ، والمبدأ ، والمعاد ، واثبـات العصمة للأنبياء والأئمة ، بأساليب علمية رائعة ، كذلك عنوا بما يتصل بهذه من مباحث عقلية كثيرة ، فطوّروها ونسقوها ولقحوها بالأفكار الأجنبية الفارسية واليونانية والهندية .. الخ . كما تفاعلوا بالمد الفكري اليوناني واعتمدوا على فلسفات الأمم الأخرى في القرن الثاني الهجري .

والحقيقة يجب أن تقال دائماً مهما كانت الأسباب والعوامل ان الباطنية كانوا من اكبر المساهمين في تفجير الحضارات بشتى صورها وألوانهـا ،

وفي جميع ميادين العلم والفكر على طول الأحقاب .

وانه لمن المدهش حقاً أن نجد كثيراً من مفكري الباطنية وعلمائهم قد سبقوا عصورهم بأجيال بنظرياتهم ، وبما تركوه من حقائق علمية ذات شأن عظيم ، قد أقرها العلم الحديث ، وأثبتتها الاكتشافات العلمية في هذا العصر .

في هذا الكتاب الذي نضعه الآن موضـــع التداول لن نتوخى الا تحري الحقيقة دون لبس أو غموض كما تجلت لنا خلال دراسة المصادر التاريخية الباطنية النادرة ، والوثائق السرية المخطوطة التي عثرنا عليهـا بالرغم من الصعوبات الكثيرة التي اعترضت سبيلنا

ولا بد لنا ونحن في نهاية المطاف من تقديم جزيل الشكر والامتنان الى الاخوان الذين وضعوا تحت تصرفنا كافة الوثائق والمخطوطات التي أنارت لنا الطريق الواضح الى صميم الحقيقة التي ننشدهـا جزاهم الله كل خير وسدد خطاهم لما فيه الفلاح

مصطفى غالب

الفصل الأول

المجتمع الجاهلي قبل ظهور الاسلام

قبل ان نلج الى صميم الباطنية لندرس تاريخها وعقائدها وتنظيماتها السرية ونحلل العلل والأسباب معتمدين على أوثق المصادر التاريخية ، والنصوص العلمية السرية الموجودة لدينا لا بد لنا من تقديم عرض موجز للظروف والملابسات التي أدت الى قيام الحركات الباطنية وغيرها من الحركات الثورية في العالم الاسلامي .

من المعروف تاريخياً ان الدين الاسلامي الحنيف رأى النور في الجزيرة العربية وفي مدينة مكة في الحجاز في وسط بدائي ، وبيئة جاهلية قد تردت في حمأة الخمول والجهل ، من حيث معتقداتها الدينية ، فتنوعت فيها الأصنام ، وازداد عدد الأوثان فأصبح لكل عشيرة وقبيلة وفخذ أرباب من دون الله ، ولكل بيت آلهة !

وفي تلك البيئة الاجتماعية تبخرت المناقب الخلقية ، والقيم الوجدانية ، وكافة الأديان السماوية ، وانعدمت الملكية المذهبية والعقائدية ، وتبدلت فيها ملة ابراهيم ، بعبادة الأحجار والأخشاب التي لا تسمع ولا تعي ، ولا تنفع ولا تضر ، يصنعها الانسان بيده ويزخرفها حسب رغبته ومشيئته لتشفع له في آخرته .

ولا بد لنا ونحن نتكلم عن المجتمع الجاهلي من تقديم صورة حية عن المجتمع المكي بالذات قبل ظهور الاسلام ، صورة ملؤها الظلم والاستبداد والفساد والمادة .

يذكر التاريخ ان مكة كانت محطة للقوافل التجارية التي كانت تمر بها وهي عائدة من جنوب الجزيرة العربية تحمل بضائع الهند واليمن الى سورية وفلسطين أو لمصر ؛ وفي أواخر القرن السادس الميلادي أصبحت سوقاً تجارية غنية تزود بما كان يأتيها من البضائع أكثر سكان الحجاز واسواقه التجارية التي كانت تؤمهـا القبائل من جميع أطراف الجزيرة العربية ومن سورية والعراق وسائر البلاد العربية .

وترجع أسباب تقدمها لموقعها الجغرافي ولوفرة الماء فيها ، ولكونها مركزاً دينياً تحج اليه كل عام الألوف المؤلفة من جميع أنحاء العالم العربي لزيارة الكعبة المقدسة ، واقامة مناسك الحج فيها مدة ثلاثة أشهر ، أو لحضور سوق عكاظ التي كانت تقام كل عام على مقربة من مكة ، وكان يحضرها تجار العرب وشعراؤهم وتجار العجم وسورية والحبشة وغيرهم

وباعتقادي ان اكبر دافع الى زيارة مكة في ذلك الوقت كانت هذه السوق حيث يجري فيها سباق الخيل ومناظرة الشعراء الى آخر ما هنالك من وسائل اللهو والطرب والمجون . ولقد كان تجار مكة يستغلون موسم الحج وسوق عكاظ وغيرهـا من الاسواق التجارية التي كانت معروفة وقتئذ ويستثمرونها لمنفعتهم الشخصية ، ويستمدون منها نفوذهم بين القبائل العربية وقوتهم السياسية والمعنوية المرتكزة على قوتهم المالية .

ومن هذا المنطلق عرف تجار مكة مصدر ثروتهم وقوتهم في الحجاز فتهافتوا على التجارة وأصبحت مكة مدينة تجارية محضة لا يفكر أهلها الا في التجارة ، ولا يهمهم الا جمع المال واستثماره بشتى الطرق .

ومن الطبيعي والحالة هذه ان تعتمد القبائل المجاورة لهـم على اقتراض المال من هؤلاء التجار بالربا الفاحش ، ومما لا شك فيه ان تجار مكة كانوا من أشهر وأخطر المرابين في التاريخ يتلاعبون بالديون ممـا يؤدي

دائماً الى خراب المدين واستعباده ، ثم استثمار طاقاته الانتاجية بشتى الوسائل التي كانت توحيها اليهم ضمائرهم العفنة الخبيثة ، وشرائع وقوانين ذلك المجتمع البدائي الفاسد .

وعلى سبيل المثال نذكر ان الدائن في أغلب الأحيان كان يجبر امرأة المدين أو ابنته على تعاطي الفحشاء لايفاء ما على زوجها أو أبيها من الدين الذي لم يستطع ايفاءه لأنه كان يزداد مع مرور الأيام بما كان يضاف اليه من الربا الفاحش . لذلك لم يكن المدين يحلم حتى بمجرد التخلص من أولئك المرابين الا فيما ندر ؛ كذلك نجد أن أكثر المدينين في ذلك الوقت كانوا مجبرين الى اختيار أحد أمرين : اما الهرب الى الصحراء والانخراط في صفوف اللصوص وقطاع الطرق ، وأما الدخول في طبقة الارقـــاء فيقيمون فيها ما شاء الدائن .

هذا ، ولما كان عدد الحجاج ورواد الاسواق التجارية في الحجاز ضخماً جداً كان من الضروري أن يهتم تجار مكة بهم ويقدموا لهم كل ما كانوا يحتاجون اليه من طعام وشراب وبضائع ، لذلك كانوا مجبرين على أن يستعدوا للأمر سلفاً ، ويهيئوا بضائعهم قبل موسم الحج وافتتاح سوق عكاظ وغيرها من الأسواق كسوق المجنة ، وذي المجاز ، ومنى ؛ وكان لهم في السنة رحلتان ، رحلة الصيف ، ورحلة الشتاء ، الى سورية وفلسطين وجنوب بلاد العرب ليتسوقوا هناك ما كانوا يحتاجون اليه من البضائع والمواد التموينية ، وليعرضوا بعض منتوجات بلادهم .

ويستدل من أقوال المؤرخين أن رؤوس الأموال التي كانت تحت تصرف تجار مكة وأصحاب القوافل التجارية كانت كبيرة جداً ، وانها لم تكن تخص أشخاصاً معلومين بل كانت تجمع من أشخاص عديدين من سكان مكة والطائف بموجب شروط واتفاقات يستفيد منهـــا أصحاب

القوافل وغيرهم ممن كانوا يؤمنونهم على اموالهم ، لذلك كان اكثر سكان مكة يهتمون بالقوافل التجارية السنوية وينتقون لمرافقتها رجالاً اشداء عرفوا برباطة الجأش ، ومضاء العزيمة ، والحنكة السياسية للتوفيق بين مصالح اغنياء مكة وجشع رؤساء القبائل التي كانت تعبر القوافل بأراضيها ويستأجرها اصحابها لحمايتها ، فكانوا يستميلونهم بالمصاهرة تارة ، وبالمال تارة اخرى ، وفي بعض الأحيان بالارهاب وقوة السلاح

ولهذا كان اصحاب القوافل واغنياء مكة مضطرين الى استخدام جماعات كثيرة من الرجال الاشداء للحفاظ على بضائعهم في الطريق ، وكان اغلب هؤلاء من الأحباش او عبيد افريقيا ، وكان عددهم يزداد سنة عن سنة حتى تألف منهم مع مرور الزمن جيش جرار منظم ينفق عليه تجار مكة ، وهذا يدل على ان تجارتهم كانت رابحة جداً ، وان ارباحهم كانت عظيمة ، والا لما استطاعوا ان يتحملوا هذه النفقات الباهظة ، وفي نفس الوقت يجمعون ثروة طائلة .

وباعتقادي ان الربا الفاحش كان المدماك الأول في تكوين تلك الثروة .

كل هذه الاسباب الآنفة الذكر أدت الى قيام طبقتين في المجتمع المكي : طبقة الأثرياء وكبار التجار وأصحاب السلطة او طبقة الملاك ، وطبقة الفقراء والأرقاء والصعاليك او الأرذال ومن كانت حياته تتوقف على مشيئة اصحاب اليسار الذين كانوا يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم .

ولما لم يكن لاصحاب هذه الطبقة رادع من ضمير او وجدان يردعهم عن استثمار اتعاب الصعاليك وامتهانهم وبوقفهم عند حد معلوم من الظلم والعنف والاستبداد ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة في كل مناسبة للاخطار ، وسلسلة لا تنتهي من العذاب والآلام .

فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة تقيهم من الاخطار وتحاول انتشالهم من البؤرة التي يترددون فيها

هذه صورة مصغرة للمجتمع المكي قبل انبثاق الدين الجديد والرسالة الاسلامية السمحاء على العالم الذي كان مطوقاً من كافة الجهات بجيوش الجهل والظلام .

والظاهر أن المجتمع الجاهلي في تلك الفترة الطويلة قد أضاع قيمه وفقد روحيته ، وضل سبيله السوي ، فليس هناك ما يصح أن نعتبره كياناً اجتماعياً ، أو سبيلاً بيناً للسمو بالفرد والجماعة الى هدف يطهره من الظلم والاستبداد والتحكم ، ويمكنه من اقامة الروابط الاجتماعية على أسس متينة بعيدة عن الاستغلال والسيطرة والخنوع

ومما لا شك فيه ان الحياة القبلية والعشائرية والعائلية كانت تسيطر على ذلك المجتمع البدائي سيطرة تفرض عليه الرضوخ لبلبلة اجتماعية لا نهاية لها ، ولانحراف عميق عن واقع الخير والحق والجمال ، مضافاً الى كل ذلك أن انظمة السيادة والعشائرية كانت تجثم بكلكلها على ذلك المجتمع المضطرب ، فتحول تقدمه الى انحطاط ، وسموه الى فوضى واضطراب .

واذا علمنا ان الاصنام هي التي كانت تتصدر المعابد والصوامع والساحات العامة يحرقون لها البخور ، ويذبحون تحت أقدامها النذور والقرابين ، ويئدون لها البنات ، أدركنا الى أي مدى بلغت عبقرية تلك البيئة وتفكيرها .

الفصل الثاني

ظهور الاسلام

شاءت ارادة الله العلي القدير أن يخص الجزيرة العربية برحمته فيظهر قبس الاسلام من خلال الظلام ، حاملاً للبشرية نفحات الأمل والرجاء بحياة أفضل ملؤها الرجاء والاستقرار والاطمئنان .

فاختار الله تعالى من بين تلك البيوت المتناثرة في بطاح مكة بيتاً واحداً لم تشوه معالمه وقدسيته تلك الأصنام والأوثان ، ولا ذلك المجتمع الفاسد . فهو لا يزال يتمسك بشدة بذلك المصباح السرمدي الذي أوقد نوره ابراهيم الخليل ، فلم تعصف بـه رياح الجاهلية أو تطفئه عاتيات الزمان ، لأنه عميق الايمان لم يخالجه الشك فيما جاءت به ملة ابراهيم ، ولم تزعزعه الريبة في صدق دعوته التي وحد فيها الرب الأعظم .

أقول اختار تعالى من بين تلك البيوت بيتاً تشده الى الخليل صلة النسب والأبوة والدين والوحدانية ، رسوله المعظم ، رنبيه الكريم محمد ابن عبدالله ﷺ يخرج على الناس رسولاً وهادياً ومبشراً ونذيرا .

وحمل النبي الكريم العبء داعياً الى اصلاح مجتمع تفككت روابطه وطغى عليه الفساد ، وسيطرت عليه القبلية والعشائرية ، وخيم عليه الظلم والاستبداد والتحكم .

ولقد أثبت النبي ﷺ عن طريق العمل انه في طليعة البنائين الذين قادوا الثورات الاصلاحية لاستئصال شأفة الأمراض الاجتماعية التي كانت تنخر قوام المجتمع الانساني ، وانه كان انساناً حياً يتجاوب مع كل

معاني الحياة ، أوقد في اتباعه جذوة العمل في الحياة مع شعلة الايمان بالله . أحب لأمته الخير وحضها النصح ، ودلها على طريق الهدى .

ولم يكن النبي ﷺ مؤسس دين عالمي وحامل رسالة سماوية وحسب ، بل كان يتمتع بالصفات الخلاقة لرجل الدولة ينشر التعاليم والقوانين ، ويستشير أولي الرأي في كل ما يتعلق بالأمور السياسية والاجتماعية ، لا يحابي في الحق صديقاً ولا قريباً ، وسع الناس بره وخلقه

ومحمد هذا النبي المرسل والمصلح الاجتماعي الفذ ، والنموذج الأعلى للانسان الكامل ينحدر كما ذكرنا من اسرة عريقة في القدم اشتهر أفرادها بالصدق والامانة والتفاني في سبيل الواجب ، بالاضافة الى انها القائمة منذ القديم بخدمة الأماكن المقدسة ورعايتها ، والحفاظ عليها باخلاص ووفاء . فضلاً عن السيادة التي تتمتع بها بين العرب .

وبظهوره حاملاً القبس السرمدي والرسالة السمحاء بدأت تلوح في الافق تباشير السعادة والرخاء ، يعمل بكل ما فيه من طاقة روحية لقلب ذلك المجتمع الغارق في الجهالة والظلام الى مجتمع مثالي يسير بخطى ثابتة نحو النور والكمال ، وزال كل أثر من آثار الجاهلية الرعناء .

والجدير بالملاحظة ان هذا الانقلاب لم يجر بسرعة بل على العكس سبقته حروب دامية متواصلة وجهاد مرير في سبيل تركيز دعائم الفضيلة والخير ، وعبادة اله واحد غفور عظيم .

لقد كان نظام الاسلام يجد في المجتمع الأكمل معبداً سهلاً ، وذلك نتيجة حتمية لطفوح كيل الجهل والاستبداد ، لأن النور لا يشع الا حين اشتداد الظلام ، والفرج لا يأتي الا من خلال الضيق والشدة .

ولكن هل استطاعت رسالة الاسلام أن تزيل بسرعة ما كان يتفاعل في نفوس قادة قريش الذين كانوا أصحاب السيادة المطلقة في البلاد وقد

رأوا بثاقب نظرهم وهم ذوو النفوس الخبيثة التواقة الى السيطرة والتحكم والاستغلال بالتفاف العرب حول الرسالة الجديدة واستسلامهم للنبي الملهم اختياراً وطوعاً كل معـاني الذل والخضوع لبيت هاشم وان هذا الاستسلام سيؤهل البيت الهاشمي لتسنم زعامة العرب الدينية ويجعل فيه القيادة متوارثة ، وهذا مـا تمجه بيوت عربية اخرى تنافس البيت الهاشمي في الزعامة والقيادة باعتبارها لا تقل عنه مكانة . فاصطخبت في نفوسهم الغيرة ، وتفاعل في اعماقهم الحسد على زعامات قوض دعائمها الدين الجديد ، وعلى مجد هوت به دعوة الاسلام من القمم . لذلك لم يستجب لرسالة النبي في بدء انبثاقها الا نفر ضئيل من أقربائه المقربين وبعض المغمورين . أما الأكثرية الساحقة من الزعماء والشيوخ وكبار التجـار والأغنياء الذين كانوا أصحاب السلطة المطلقة في المدينة ، فقد اعتبروا اتباع الدعوة الجديدة عنصراً ثورياً معادياً في حمية محمد الدينية ينهدون الى تحطيم مصالحهم ، ويعملون لقلب عاداتهم وتقاليدهم الوثنية ، فاعلنوها حرباً شعواء لا هوادة فيها على الرسالة الجديدة ، وقرروا أن يحشدوا كافة امكاناتهم المادية والمعنوية لاستئصال شأفتها مهما كلفهم من ثمن .

وحمل لواء هذه النقمة العارمة السادة القرشيون ممن كانوا يدينون بالوثنية ، ويعبدون الاصنام ، وبعض أخصاء النبي ﷺ الأقربين ، وبخاصة بني أمية الذين يعدون بين العائلات الممتازة في مكة قبل الاسلام ، وقد عارضت وقاتلت هذه الأسرة محمداً ، بأكثريتها ، ولكنها انضمت الى الاسلام في النهاية .

وبعد ان اشتد الضغط على النبي واتباعه اضطر لان يترك مكة ويستقر في يثرب الواقعة شمالي مكة ، وكان ذلك سنة ٦٢٢ ميلادية ، ولقد اعتبر هذا اليوم الذي هاجر فيه النبي بدء التاريخ الاسلامي .

وتشاء ارادة الله العلي القدير أن يصبح للنبي عـدد كبير من الانصار

في المدن الرئيسية وبين القبائل ، ومن هؤلاء بعض الأقطاب البارزين والزعماء المرموقين ، فيرى النبي الا مناص من خوض المعارك الحربية مع اعداء الدين ، وتوجيه ضربة قاضية اليهم لا يرتفع لهم بعدها صوت ، فكانت معركة بدر الأولى ، وهي المعركة التي صدعت ثغرة كبرى في الدعوة الاسلامية ، وكان لها تأثيرها على التفاعلات السياسية بعد وفاة النبي وبخاصة فيما يتعلق بالخلافة . ففي هذه المعركة كما يستدل من التاريخ قتل عدد كبير من أقطاب قريش ممن كان لهم شأن كبير بين العرب . واذا ما عرفنا ان الامام علي بن أبي طالب (ع) صرع فيها وحده نخبة ممتازة من فرسان وقادة قريش اتضح لنا مبلغ تأثير هذه المعركة على اغتصاب حق علي بن أبي طالب في تولي زعامة المسلمين بعد وفاة النبي .

وتأتي معركة بدر الثانية ، ثم معركة أحد التي قادها صخر بن حرب (أبو سفيان) وزوجته هند انتقاماً لأخيها الوليد بن عتبة

وفي هذه المعركة قتل الامام علي بن أبي طالب طلحة بن أبي طلحة ، وجندل عمه الحمزة عثمان بن أبي طلحة . هذا عدا عن معركة الخندق التي قادها ايضاً أبو سفيان ، وجندل فيها الامام علي عمرو بن ود العامري ، ومعركة وادي الرمل والطائف ، وزبيد وحنين وثقيف .

وفي نهاية المطاف انتصر النبي ﷺ صاحب الرسالة السمحاء على خصومه في كافة المعارك والميادين ، وأرسى دعائم الدين الحنيف في الجزيرة العربية وفيما وراء الحدود ، ولكن لا بد لنا من التوقف قليلاً لنتساءل ، هل تمكن الرسول من استئصال النقمة الكامنة في تلك النفوس الحاقدة التي اظهرت اسلامها ، وابطنت وثنيتها وكفرها ؟

وهل استطاع النبي الذي حطم قواعد الوثنية وزعزع ركائز الزعامات المتوارثة ان يزيل الحقد الدفين المتفاعل في تلك النفوس الحالمة بالسيطرة المطلقة على القبائل العربية ؟

مما لا شك فيه أن أثر تلك النقمة ظل كامناً في أعمـاق نفوس الأكثرية التي كانت تترقب ساعة الانتقام ، وقد ازداد هذا الحقد الأسود عند الأمويين بعد أن خذلوا في جميع المعارك التي خاضوها ضد الرسالة الجديدة وسقط منهم أكثر من زعيم وفارس . ولما رأوا ان لا منـاص لهم من اتباع الأكثرية الساحقة من القبائل العربية انضموا في النهاية الى الاسلام ، ولم يكن اسلامهم عن ايمان عميق برسالة محمد بل كان حرصاً على زعامات قلم النبي اظفارها ، بعد أن رأوا بعين المتبصر الخبير أن كل خروج عن ارادة المجموع معناه القضاء المبرم على كيان الأسرة الأموية ، فاعتنقت الاسلام ظاهراً وظلت على وثنيتها باطناً . فالاسلام بالرغم من كل طاقاته لم يستطع محو الوثنية وازالة رواسبهـا من نفوس هذه الاسرة ، ذلك ما ظهر بوضوح من خلال معركة الخلافة التي اضرمت هذه الاسرة أوارها بعد وفاة النبي ، لأنها كانت تحلم بالسيطرة المطلقة على الامبراطورية العربية .

وما ان اعلنت وفاة النبي سنة ٦٣٢ ميلادية بعد أن أدى رسالتـه كاملة ، وبذل كلّ ما في وسعه لاصلاح المجتمع الغارق في ظلمات الجاهلية ، وأبطل العبادات الوثنية ، وغرس محلها العبادات الاسلامية السمحـاء ، وأصبح القانون يسيطر على الحجاز بأكمله ، حتى أخذت المنافسات الشخصية والدسائس تتجمع للوثوب

ولم يكن الرؤساء الدينيون والزمنيون لتلك الوحدة الاسلامية الفتية قد قرروا شيئاً فيما يتعلق بمن سيكون خليفته حتى أشـاع موت النبي الاضطراب في مكة ، لأن الخلافة وزعامة المسلمين اجتذبت بعض الراغبين الذين كانت رواسب الوثنية لا تزال تمشمش في نفوسهم .

ولا بد لنا ونحن نتعرض لهذه الناحية الهامة التي ولدت اكبر نزاع في

الجماعة الاسلامية من القول بأن التاريخ الاسلامي يذكر في أكثر من مكان أن النبي كان قد أوصى بالخلافة من بعده لصهره وابن عمه الامام علي بن أبي طالب في عدة مناسبات ، ومما لا جدال فيه أن رسول الله كان يحب عليا حباً شديداً ويوليه اهتمامه ، لأن العوامل التي تدعوه الى مثل هذا الحب كثيرة ، فهو صاحبه والمنافح عن دعوته ، وبديله في فراشه وصهره وابن عمه وزوج ابنته العزيزة فاطمة الزهراء ، وحاميه من أذى قريش ، لذلك ليس من المستبعد أن يكون النبي يفضل عليا ويحببه الى الناس ويمهد له سبيل الخلافة ، وقد أعلن عن ذلـــك تلميحاً في عدة مناسبات ، منها يوم غدير خم ، وذلك بعد أن ادى النبي حجة الوداع ونزل - وهو في طريق العودة - عند غدير خم في اليوم الثـاني عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة ، أنزل عليه قوله تعالى :

« يَا أيُّها الرَّسولُ بلّغْ ما أنزلَ إليكَ مِنْ ربّكَ وإنْ لم تفعَلْ فما بلّغْتَ رسَالَتَهُ واللهُ يَعصِمكَ مِن النّاس » سورة المائدة آية ٦٨ .

فبادر النبي ﷺ وأمر باقامة الصلاة ، فلما انتهى منها أخذ بيد علي ابن أبي طالب وعقد كفه بكفه وقـــال : « ألستم تعلمون اني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى . قـــال « ألستم تعلمون اني أولى بالمؤمنين من انفسهم ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون اني اولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى قال : من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار . هذا وصيي وخليفتي وقاضي ديني من بعدي ، ومنجز وعدي . فعلي مني ، وأنا منه ، من خالفه يلعنه الله والملائكة والناس أجمعين . اشهدوا فقد بلغت وانذرت مما أمرني به ربي ، فمن قال قولي فاز ونجا من جملة المؤمنين ، ومن خالف قولي ضل وغوى وكان من النادمين ، فقد أنذرتكم وحذرتكم ، وفوضت امري الى

الله ، ان الله سميع بصير ، فليبلغ حاضركم غائبكم .. »

واعتبر الشيعة هذا القول تبليغاً لأمر الله تعالى ونصاً صريحاً بوجوب اتباع علي بن ابي طالب ، وقالوا ان هذه البيعة جاءت بعد المبايعات الثلاث : بيعة الدار ، بيعة الخيزرانة ، بيعة ام سلمى .

وهكذا نرى ان النبي قد أعلن بصراحة اكثر من مرة ان الخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب . ولكنه كان يعلم بما تنطوي عليه نفوس اغلب زعماء المسلمين ، ففضل أن يظل ذلك تلميحاً خشية اثارة الناقمين والحاقدين على علي بن ابي طالب الذي صرع بسيفه عدداً لا يستهان به من اقطاب العرب في المعارك التي خاض غمارها في سبيل نشر الرسالة الاسلامية .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية كان هؤلاء يعتبرون علي بن أبي طالب المساهم الأول في هدم دعائم الوثنية ، وزعزعة اركان العشائرية والقبلية ، والقضاء على العائلات الكبيرة ، والثروات الضخمة ، والزعامات الواسعة لذلك وجدوا الفرصة سانحة بعد وفاة النبي ﷺ فبذلوا جميع امكاناتهم لابعاده عن سدة الخلافة ، فكانت السقيفة ، وكانت فدك ، وكانت اهانة فاطمة الزهراء ، فأعطى هؤلاء الدليل الناصع على انهم لم ينسوا الماضي وان في اعماقهم حنيناً الى دين الآباء والاجداد ، والى الأخذ بالثأر والانتقام ، فاعتبروا كل اشارة او وصية لعلي بالخلافة لا قيمة لها لديهم .

وبالفعل تمكنوا من ابعاد الامام علي بن ابي طالب (ع) عن الخلافة وسلموا امرها الى ابي بكر ، وخطب عمر بن الخطاب في هذه المناسبة في المسجد فقال : لقد كانت بيعة ابي بكر فلتة وقى الله شرها ، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه ، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فاقتلوه .

ولقد تخلف الكثير عن المبايعة منهم الامـام علي (ع) حيث كان مشغولاً بتجهيز النبي وملازمة قبره .

ولما حضرت الوفاة ابا بكر اوصى بالخلافة لعمر . فقال الناس قد وليت علينا فظاً غليظاً وبعد موت عمر انتقلت الخلافة الى يد عثمان بن عفان فانشق المسلمون عليه لعدة اسباب ورفضوا بيعته ، ومن ثم قتل في داره . فتسلم الخلافة الامام علي بن ابي طالب (ع) بعد ان تمت البيعة الشرعية له سنة ٣٦ هجرية .

ومن خلال هذه الأحداث يتبين لنا ان الوضع العام للمسلمين في الجزيرة العربية كان بعد وفاة النبي على فوهة بركان تعصف به الأحداث من كل جانب ، فالنبي لم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى احدث موته بلبلة في العقول ، واضطراباً في الأفكار ، فاستيقظت الأحقاد الكامنة في الأعماق ، وحاول الذين اسلموا بالقوة العودة الى الوثنية وعبادة الاصنام ، كما وان انصار المدينة ارادوا التحرر من سلطان الأغلبية المتمثلة في المهاجرين . وهناك الموجة العارمة التي عصفت بالقبائل وغايتهـا الارتداد عن الدين الجديد والعودة الى دين الآباء والاجداد ، ولم تلبث هذه الموجة ان طغت على الحياة في بلاد العرب ، وبين القبائل التي حاولت التخلص من السلطة العليا في المدينة التي كانت تفرض عليهم ضرائب شتى لا طاقة لأفرادها باحتمالها ، وهم الذين تعودوا أن يعيشوا احراراً قبل اعتناقهم الاسلام ، لا يتقيدون بنظام او قانون .

ومن الواضح أن معركة الخلافة كانت تدور بين ثلاثة كتل رئيسية هي :

الأنصار ، قريش ، الهاشميون ، وقد استطاع القرشيون أن يتغلبوا على الأنصار في الجولة الاولى من المعركة ، لأن الانصار كما يستدل من

التاريخ كانوا يعتقدون انهم أحق من قريش بتسلم زعامة المسلمين باعتبارهم اول من لبى نداء النبي وانهم أصحاب دار الهجرة التي ترعرع فيها المجتمع الاسلامي ، والمكان الذي انطلقت منه التعاليم الاسلامية الى كافة الارجاء ، فضلاً عن زعمهم بأنهم ضحوا بأموالهم ودمائهم في سبيل الدعوة الاسلامية . ويرون ان اقطاب قريش لم يدخلوا الاسلام الا رهبة من حد السيف وخشية النقمة العارمة من المسلمين في المستقبل .

لذلك تنادوا الى عقد اجتماعهم الأول في السقيفة واعلنوا عن نواياهم بصراحة ، خشية ان تؤول السلطة الى قادة قريش فيفلت زمام الأمر منهم ، وعندئذ يصبح لقريش السلطة المطلقة التي تمكنهم من الانتقام منهم ثأراً لمن قتله الانصار من قريش في الحروب الأولى التي خاضوا غمارها في سبيل الاسلام . وقد تجلت مرونة ابي بكر السياسية اثناء هذه المعركة فاستغل الخلاف الداخلي بين الخزرج والأوس ، فراح يخوف الأوس من الخزرج اذا ما تسلموا القيادة ، كما انه خوف الخزرج من الأوس ، وعندما دب الشقاق بين القبيلتين انفرط عقدهم وخف خطرهم الذي كان يتهدد القرشيين بأوخم العواقب .

وفي خضم هذه المعركة تنطلق الكتلة الهاشمية مطالبة بوجوب تنفيذ وصية الرسول التي تنص على مبايعة الامام علي بن ابي طالب (ع) سيد البيت الهاشمي باعتباره يتمتع بكافة الشروط التي تخوله ان يتولى قيادة المسلمين وزعامتهم ، وقالوا بضرورة بقاء امر القيادة في البيت الهاشمي والامامة القائمة على دم الرسول (ذرية آل البيت)

ولقد كانت هذه الكتلة الهاشمية تضم في عداد رؤسائها رجالاً من قبائل شتى وأجناس عديدة ، ولم تكن هذه الكتلة تتوقع ان تتم البيعة لأبي بكر بهذه السرعة الخاطفة ، بدليل ما قاله الامام علي بن ابي

طالب (ع) لعمه العباس حينا ألح عليه بضرورة الاسراع في اخذ البيعة : « هذا امر ليس يخشى عليه » ومعنى هذا ان علياً كان يعتقد جازماً بانه لا يوجد بين العرب من يختلف عليه بشأن الخلافة ، وان وصية النبي ﷺ لا شك ستنفذ آجلا ام عاجلا .

وأخيراً أسفرت هذه المعركة عن ابعاد الامام علي بن أبي طالب (ع) عن الخلافة واعلان مبايعة ابي بكر خليفة للمسلمين ، وبظرف سنوات قليلة توصل الاسلام الى القضاء على الشقاق وتبعثر القبائل العربية ، ثم دخل العرب المتحدون في حرب ضد الامبراطورية البيزنطية ومملكة الفرس ، وما مضت عشر سنوات حتى أصبحت سورية ومصر والعراق وبلاد فارس تحت سيطرة العرب .

والجدير بالملاحظة انه قد رافق هذه الانتصارات العربية خصومة عنيفة بين العائلات العربية القائدة ، وتمزق حكم الأقلية القرشية بسبب هذه المنازعات الضارية .

ولقد أدى اقصاء آل بيت الرسول بعد وفاة النبي عن زعامة المسلمين واغتيال الامام علي بن أبي طالب (ع) الى حروب دامية مع بني أمية ، وظهرت الفرق الشيعية مدفوعة بدافع الضمير الديني – لا العواطف ولا السياسة – تساند ذرية الامام علي الحسن والحسين وتلتف حول زيد بن علي وابنه يحيى ، وتقوم بدور كبير محاولةً الوقوف في وجه الأمويين ومنعهم من تحقيق حلمهم الهادف الى تولي زعامة المسلمين .

وكانت الدعوة في بادىء الأمر لآل البيت من ذرية فاطمة الزهراء بنت الرسول وزوجها الامام علي بن أبي طالب (ع) ، ثم أصبحت مع مرور الأيام الى آل البيت دون تخصيص بعلويين او عباسيين وقاد أبو مسلم الخراساني حملة من الاضطرابات في بلاد الفرس وفي المقاطعات

الشرقية من الدولة الأموية ، مستغلاً الموالي – اصحاب الحرف اليدوية والمهن والتجارة ومرافق الحياة المدنية – وكانت غالبيتهم من حيث الأصل واللغة من الفرس ، منددا بفساد الحكم ، وبظلم الولاة والعمال ، وبالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والعنصرية العرقية . وانتهى الأمر بسقوط الأمويين وتأسيس الخلافة العباسية في بغداد .

وبذلك جنى العباسيون فوائد كل الثورات الفاشلة التي قام بها الشيعة أبان الحكم الأموي وسفكوا دماءهم في سبيلها .

ومن الثابت تاريخياً أن العباسيين اتخذوا من قرابتهم للرسول ﷺ أمضى سلاح في انتزاع الخلافة من الأمويين ، وانهم استغلوا بكل طاقاتهم ما لاقاه آل البيت من تشريد وابادة على أيدي الامويين . ولكن العباسيين بعد أن تم لهم الامر لم يفكروا باعادة الامانة الى أصحابها الشرعيين وهم – الهاشميون – الاقرب منهم نسباً وأحقية في تسنم سدة الخلافة وزعامة المسلمين الدينية والدنيوية ، بل ما ان استقر بهم المقام حتى التفتوا الى الهاشميين اخوتهم في النضال ، وسندهم في انتزاع الخلافة ، فرموهم بالتآمر والانحراف ، وعملوا فيهم قتلاً وتنكيلاً وابادة ، مع علمهم الاكيد بأن الدعوة العباسية نفسها لم يكن ليتسنى لها النجاح ، ويكتب لها البقاء والنصر لو لم تحظ بتأييد ومساندة الهاشميين أنفسهم ، ولو لم تقم – أصلاً – على محاربة الامويين باعتبارهم متجنين على الهاشميين آل بيت رسول الله .

ويستدل من الوقائع أن الدعوة العباسية قد استغلت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والعنصرية العرقية واصحاب النزعات الثائرة والاحلام الهادفة الى القضاء على سلطان العرب وعلى الفوارق بين المسلمين من الطبقة الاولى ، والمسلمين من الطبقة الثانية .

ومما لا جدال فيه ان العباسيين قد استغلوا ايضاً نقمة الطبقات السفلى من الاهالي الذين كانوا يأملون ان تتحسن احوالهم الاجتماعية ابان الحكم الاموي ، ولكن حب بني أمية للأموال ، ذلك الحب الذي ورثوه عن اجدادهم تجار مكة ، وحاجتهم الماسة اليه في مهماتهم السياسية وفي فتوحاتهم الواسعة الصعبة ، وفي محاربة خصومهم داخل البلاد وللأنفاق على القصور والجواري والاتباع ، الى غير ذلك من الامور التي اوجدها التغير الاجتماعي الذي وجد في عهدهم ووسمهم بميسم العار والفضيحة

كل هذه الاسباب دفعتهم لطلب المزيد من المال بكل الوسائل ، فزادوا الضرائب واستعملوا لجمعها ابشع الاساليب التي لا يغتفرها اي ضمير ، فأخذت حالة الطبقات الفقيرة تسوء في اواخر حكم بني امية .

ولقد كان للتفاوت الطبقي بين الامم المغلوبة وعدم المساواة بينها في الحقوق والواجبات اكبر الاثر في ازدياد النقمة العارمة على بني امية ، ولا بد لنا من الاشارة الى نقطة جوهرية هامة وهي ان نظام الاراضي واطلاق الامويين لمن يريد من العرب المسلمين ان يقتني ما يشاء من الاراضي خارج الجزيرة العربية – بعد ان كان ذلك ممنوعاً ايام الخلفاء الراشدين – قد حدا بأصحاب الثروة والسلطة من العرب ان يتهافتوا على امتلاك احسن الأراضي في مصر والعراق وسائر البلاد المشهورة بجودة تربتها ووفرة مياهها ، وأخذوا يستثمرونها بكل ما كان لديهم وقتئذ من الوسائل ، مما أدى الى انتقال اكثر الاراضي الخصبة المعطاء الى اشخاص وعائلات عربية قليلة من المقربين الى اصحاب السلطة او من اعضاء الاسرة المالكة نفسها ، يستغلونها بواسطة علوج البلاد او زنوج افريقيا الذين يجبرونهم على العمل في مستنقعات مصر والعراق حيث كانت الأمراض تفتك بهم فتكاً ذريعاً .

وشاء العرب أن لا يجدوا من امتيازاتهم عن طيب خاطر فاضطر الموالي الى خوض الكفاح ضدهم والى الارتماء بكليتهم في أحضان العباسيين للثأر من سيطرة الجنس العربي الخالص ، والانتقام للنقص الذي عانوه بازاء العنصر المتفوق . وأخيراً جاء العباسيون الى الحكم بعد ثورة أطاحت بالأمويين ، فتربعوا على عرش خلافة المسلمين في بغداد ، وعملوا لايجاد تعاون بين مختلف الطبقات الاسلامية ووجهوا اهتمامهم لاصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأخذ بيد الطبقات الفقيرة ، ولم يستمر هذا الوضع طويلاً اذ سرعان ما أخذ الوهن يدب تدريجياً في جسم الدولة الفتية ، فعادت المظالم تسفر عن وجهها الكالح ، وتسرب الفساد الى مختلف اجزاء الدولة وافسح المجال أمام العناصر غير العربية للتسلط على الحكم وعلى مرافق الدولة .

وهكذا وقع العباسيون بما وقع فيه أسلافهم الأمويون ، وكانت الأسباب أكثر من أن تحصى ، ولكن أهمها افساح المجال أمام العناصر غير العربية للتسلط على الحكم ، أضف الى ذلك ان الحالة وصلت الى حدّ ان عزلَ الخلفاء وتوليتهم أصبح يخضع لنفوذ هذه العناصر ، وان الخليفة العباسي كان كما وصفه الشاعر .

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقال شاعر آخر :

خليفة مات لم يأسف له أحد وقام آخر لم يفرح به أحد
فمرّ ذاك ومر الشؤم يتبعه وقام هذا فقام النحس والنكد

أو كما قال عن نفسه الخليفة المعتمد العباسي :

أليس من العجائب ان مثلي يرى ما قلّ مجتمعاً عليه

(٣)

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعـــاً وما من ذاك شيء في يديـه

ومن البدهي القول بأن حلول العباسيين محل الأمويين كان أكثر من مجرد تغيير البيت الحاكم ، بل ثورة عميقة الجذور انفتحت في كيان الأمة الاسلامية ، وباعتقادي أن هذه الثورة كانت عبارة عن دعوة علنية وتنظيم فكري معبر عن نقمة طبقات الشعب واستيائها ، وقد مهد لها ونفذها خلال فترة طويلة من الزمن عقول جبارة استمدت زخمها من واقع العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعنصرية العرقية .

وباعتبار أن هذه الثورة جاءت نتيجة لتكاتف مصالح مختلفة جمعت بينها رغبة مشتركة في اسقاط النظام القائم ؛ لذا لم يكن مستبعداً أن تتضارب تلك المصالح وتتفرق الى كتل متنافرة حينما تحقق لها النصر ، وكان أول ما قام به العباسيون المنتصرون أن سحقوا بلا رحمة الجنـاح المتطرف الذي أوصلهم الى الخلافة ، فعمدوا الى قتل ابي مسلم الخراساني اكبر بناة الثورة مع عدد كبير من أنصاره ، وأخمدوا الثورة الفلاحية التي أثارها أتباعه بزعامة (سنباذ) في غرب فارس .

وليست هذه هي الحركة الوحيدة التي قامت ، بل كانت هناك حركات وفتن عديدة أضرم نارها الفلاحون المضطهدون ابان الوهن السياسي وفي فترات الأزمات الاقتصادية التي عصفت بالبـلاد الخاضعـة لنفوذهم من كل جانب .

والجدير بالملاحظة أن كل هذه الثورات كانت تقوم على اسس اعتباطية واهية دون تنظيم أو تخطيط مسبقين ، لذلك سرعان ما كانت تخمد ثم تعود للتشتعل في مكان آخر .

ومن الطبيعي جداً أن يتوقع الخلفاء العباسيون مثل هـذه الحركات

بعد قيام دولتهم واستئثارهم بالسلطة دون آل البيت الذين قامت الدعوة باسمهم ، لذا نراهم يعتمدون على العناصر الفارسية لقمع هذه الحركات ، كما أنهم أحلوا اسرة البرامكة الارستقراطية محل ابي مسلم الخراساني ، وقد لعبت هذه الاسرة دوراً فعالاً خلال حكم عدد من الخلفاء العباسيين ، وبرأيي ان هذه الاسرة هي التي كفلت للخلافة العباسية دعم العناصر الفارسية العريقة ، ومع كل هذا لم تكن هذه العناصر راضية عن أوضاعها في خلافة بني العباس عامة وخلافة الرشيد خاصة وأخذ استياؤهم يظهر بوضوح بعد نكبة البرامكة حيث لمسوا أن سياسة بني العباس تجاههم لم تكن لتختلف كثيراً عن سياسة أسلافهم الأمويين ، وانهم كانوا يجاملونهم ويقربونهم في أول خلافتهم لأنهم كانوا بأمس الحاجة اليهم ، ولأن مصلحة الاسرة العباسية تقتضي ذلك لا مصلحة الشعب الفارسي ، ولولا هذا لما قضوا على حياة الخراساني الذي أجلسهم على أريكة الخلافة ، وحياة كثيرين غيره من عظماء وقواد الفرس .

وعلى العموم لم يكن الاستياء من العباسيين مقصوراً على الأشياء التي ذكرنا بعضها ، بل تعداها الى نقمة اتباع آل البيت لما أصابهم من إحن وظلم واستبداد وتشريد ومطاردة ومحاولات لاستئصالهم جميعاً .

ودامت هذه المحاولات سنين طويلة ، ولم تنته الا بسقوط الدولة العباسية عندما عصفت بها غزوات المغول . ولو أردنا أن نستعرض جميع ما أصاب آل البيت وشيعتهم من يوم ظهور الدولة العباسية الى آخر ثورة عقبها سقوط الدولة المذكورة لضاق بنا المقام، ولاضطررنا أن نخرج عن الموضوع . على أنه لا بد من الاشارة الى بعض الحوادث الهامة بإيجاز .

من الواضح ان العلويين لم يندمجوا في الدولة العباسية الا كارهين

مرغمين ، وبظواهرهم لا بقلوبهم ، فحملوا لواء المعارضة سراً وجهراً ، وما عتم ان قام منهم محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف (بالنفس الزكية) وأخوه ابراهيم بثورة مسلحة تهدف الى اعادة حق آل البيت الشرعي الذي اغتصبه العباسيون ، ولما علم ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي بهما ، قتلهما وحمل رأسيهما الى بغداد سنة ١٤٥ هجرية ، فكانت هذه الحادثة الشرارة الأولى التي اعلنت بدء الصراع العنيف المكشوف بين العلويين والعباسيين ، ولولا فرار ادريس بن عبدالله بن الحسين بن علي بن أبي طالب الى بلاد المغرب ، واخيه يحيى الى بلاد المشرق لما كان أبقى العباسيون احداً من ذرية الحسين بن علي ابن أبي طالب ، ولكن شاءت ارادة العلي القدير ان تظل قوة يخشى بأسها تتجسد في جماعة الامام موسى الكاظم ، بعد أن مات في سجنه ، وقد ولّى المأمون علي الرضى بن الكاظم ولاية العهد ، ولكنه غدر به ، وظل أحفاده يلاقون الضغط والتنكيل حتى أواخر العهد العباسي .

أما اتباع محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (ع) والأبو هاشمية أتباع ولده ابي هاشم ، فقد كان لهم شأن كبير في صدر العصر العباسي الأول ، ولكنهم زالوا على مر الأيام أمام ضربات العباسيين .

ولا يستطيع الباحث أن يقف دون أن يتطلع الى بعض الحركات الثورية التي اندلعت ابان الحكم العباسي نتيجة لتردي الأوضاع ، وللحالة التي وصلت اليها الخلافة العباسية .

قلنا أن جماعة أبي مسلم الخراساني قاموا بثورات فلاحية في أرجاء الدولة بزعامة (سنباذ) الذي عبر عن نقمته على الوضع القائم، وسرعان ما التف حوله انصار عديدون من فلاحي غرب فارس ، وانتشرت حركته بسرعة عجيبة كانتشار النار في الهشيم ، فاحتل انصاره عدداً

من المدن والقرى ، ولكن جيش المنصور استطاع أن يهزمهم وبشتت جموعهم .

واندلعت ثورة أخرى بزعامة (اسحق الترك) أحد ممثلي ابي مسلم في مناطق تركيا ، ولكن المنصور تمكن من اخمادها ، ومن ثم قاد (استاذسيس) ثورة اخرى في خراسان شكلت خطراً كبيراً على سلامة الدولة العباسية . والأخطر من كل هذه الثورات الحركة التي قام بها « المقنع » وقد انتشرت في طول خراسان وعرضها وفي أواسط آسيا ، وكان مقر قيادتها في بلدة « بخارى » ودامت أكثر من عشرة أعوام . ويمكننا أن نقول بان ثورة الزنج كانت اعنف من كل ما حدث بل أشدها ضراوة وقسوة ، وهناك ثورة « بابك الخرمي » واشياعه التي امتازت عن غيرهما من الحركات والانتفاضات الثورية السالفة بأمرين خطيرين وهما : دقة تنظيم الحركة ، ثم الغاية والهدف اللذين كانت تنهد اليهما ، أما التنظيم فيظهر جلياً في سرعة انتشارها وثبات أصحابها أمام عدوهم الذي يفوقهم بالعدد ويمتاز بوفرة السلاح ، نحواً من اثنتين وعشرين سنة ، ثم اقبال الناس عليها اقبالاً غريباً حير العقول ، ولقد استطاع بابك ان يهزم أربعة من كبار قواد المأمون ، ولكن المعتصم بعد أن جلس على أريكة الحكم استقدم من أفريقيا أكبر قواد دولته « حيدر الأفشين » وسلمه قيادة الجيش وأمره بأن يزحف للمؤازرة « اسحق بن ابراهيم بن مصعب » أحد قواد الخليفة المعروفين الذي كان يخوض معارك طاحنة مع « بابك » واتباعه في اذربيجان واران ، فزحف اليه بجيوش جرارة من الأتراك والبرابرة ومتطوعة العراق والبصرة .

وبعد قتال مرير وقع « بابك » وأخوه عبدالله ومن كان معهما من الأهل والأصدقاء في الأسر ، فاقتيدوا جميعاً الى بغداد حيث علقوا على

الأعواد وقطعوا اربا اربا ، ومن ثم ارسلت رؤوسهم لتطوف في سائر البلدان .

وبالأضافة الى كل هذه الانتفاضات الثورية تطل الضائقة الاجتماعية بوجهها الأسود ، فتولد النقمة على الطبقة الحاكمة في صدور المزارعين والعمال وأصحاب الحرف اليدوية وهم الأكثرية الساحقة كما وان تمركز العمل وازدياد رؤوس الأموال أوجد بين سكان المدن طبقة كبيرة من العاطلين عن العمل بلغ بها السخط مبلغه فسيرت التظاهرات الاجتماعية الصاخبة للمطالبة بالخبز وبتخفيف نظام الضرائب الجائر ، وبوضع حد للتدهور المالي وازدياد الملكيات الفردية ، وبيع جباية الخراج وسائر الضرائب الى أشخاص عرفوا بشراستهم من عمال الدولة ومساعديهم الذين كانوا أشد ظلماً على الرعية ، واسرع الى الارتشاء من غيرهم من الجباة الذين كانوا تحت سيطرتهم ومراقبتهم

وفوق كل ذلك ازدادت حالة السلطة المركزية حرجاً وأخذت تتجه نحو الزوال عندما صار عمالها من العرب ينحازون الى الخارجين عليها ، ويحرضونهم على شق عصا الطاعة ، وأطلت الأمارات الفارسية فانسلخت عن جسم الدولة ، وأخذت تحارب العباسيين الذين لم يتمكنوا من تنفيذ اي جزء من برامجهم الاصلاحية التي وعدوا بها في حقول الاجتماع والزراعة والاقتصاد .

زد على كل هذه المساوىء نفقات البلاط ، ومصاريف الجيش ، واستفحال أمر الحريم والغلمان والخصيان ، وكثرة الدسائس العائلية ، والمؤامرات السياسية ، الى غير ذلك من مظاهر البذخ والفخفخة ، والاستهجان بشؤون الرعية ، والعبث والمجون .

ولم يعد الخليفة العباسي سوى رئيس ديني رمزي لا أمر له ولا نهي ، وأصبحت حالة البلاد في فوضى عاتية ، واشتد الفقر ، وانتشرت الأمراض في طول البلاد وعرضها ، وعظم الغلاء حتى اضطر الناس الى أكل الميتة والكلاب والسنانير ومات عدد كبير منهم جوعاً .

كل هذه العوامل والأسباب تجمعت فولدت النقمة العارمة في كافة الأوساط ، وأوجدت تصدعاً في الصفوف ، وأدت الى قيام الحركات الثورية وبخاصة الحركات الباطنية التي انتشرت بسرعة فائقة . ومما لا ريب فيه أن انتشار الحركات الباطنية بهذه السرعة كان نتيجة حتمية لتلك العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية التي ظهرت على مسرح العالم الاسلامي عامة وفي مملكة بني العباس خاصة

ولدينا من الوثائق ما يثبت ان الباطنية اخذوا يفكرون ويخططون للثورة الاجتماعية الشاملة منذ أمد بعيد ، ولكنهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة للوثوب .

وبديهي والحالة هذه أن تتعرض الحركات الباطنية الى حملات عنيفة شنها العباسيون عليها في مختلف الميادين الفكرية والعقائدية والشخصية ، لأنها كانت تدعو لآل البيت دون سواهم في الخلافة والامامة ، والى أن الاوضاع الفاسدة والمجتمع المنهار لا يمكن اصلاحه الا اذا نجحت هذه الدعوة ، وجندوا جميع امكاناتهم من أجل شلها وابادة أئمتها ودعاتها وحججها ليخلو لهم الجو بعد أن أعمتهم المناصب ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فاسترسلوا في التنكيل بالأئمة واتباعهم ، وشردوهم في متاهات البلاد ، وأباحوا دماءهم ، ورغبوا الرعية على محاربتهم واستئصال شأفتهم وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى ميدان الفكر ، حيث وجد العباسيون ، أن الحركات الباطنية قد رسخت في مجال الفكر

والفلسفة ، كعقائد اسلامية فلسفية تأويلية مستمدة اصولها من الأحاديث الشريفة وأي الذكر الحكيم ، فهالهم أن وجدوا أنفسهم عاجزين تمـام العجز عن دحض الحجج والبراهين التي تؤكد صدق وأحقية المطالب الباطنية ، والتزامها هدي القرآن الكريم والحديث الشريف ، فاعتمد العباسيون على شراء الضمائر من الكتاب والمؤرخين الذين خانوا الأمانة ، وانساقوا وراء غاياتهم الشخصية وماتت في ضمائرهم نفحة الحق وصرخة الوجدان الحي ، فسخروا أقلامهـم للتجريح في آل البيت ، وألصقوا بهم أبشع التهم ، وأحط الاحكام ؛ وصوروا اصحاب الفرق الباطنية لدى العامة ، بانهم دخلاء على الاسلام ، مبتدعون لاحكام وأنظمة مغايرة لأنظمة الدين الاسلامي ، كل ذلك تلبية لرغبة العباسيين ، وخدمـة لعرشهم الزمني المغتصب . ومن هنا ونتيجة لذلك ، تضاربت أفكار وآراء الكتاب والمؤرخين في حقيقة الباطنية ، ومدى شرعية رسالتها ، كما وان الطريقة الايجابية التي اعتمدتها الحركات الباطنية في الستر والتقيـة والاستمرار في النشاط السري ، والتأليف المتواصل ، والتنظيم الرائع ، أدى بعد زوال كابوس العباسيين وتفكك أوصالهم الى جلاء بعض الحقيقة وانتصارها لدى النفوس الواعية والعقول المجردة .

فمـا من متبصر في أي نوع من أنواع المعرفة أو صاحب رسالة اصلاحية ، حاول الجهر بالحق وجهد في تقييم الرسالة الاسلامية ، وأنكر عنت السلطات الحاكمة وانحرافهـا عن الخط الاسلامي الصحيح ، الا وتعرض لأبشع الاتهامات ، ورمي بالزندقة والالحاد والكفر ، ولعل الحركات الباطنية ؛ قد حظيت باكبر قسط من الجور والاضطهاد ، مما اضطر اتباعها الى الاعتصام في مواطن نائية منيعة ، يعز على الخصوم اقتحامها ، واستمروا في مزاولة نشاطهم مستميتين في سبيل نشر

دعوتهم وأفكارهم الهادفة الى خلق مجتمع اسلامي صحيح ، خال من الشوائب والأدران ، تتكافأ فيه القوى الخلاقة الخيرة المبدعة ، وتقدر فيه الامكانات البناءة ، في ظل نظام اشتراكي علماني ، ثابت الأركان ، واضح الغايات والأهداف ، على أسس من العدالة المنبثقة من تعاليم القرآن الكريم ، ومستند الى أدق الحجج وأصدق البراهين .

الفصل الثالث

الحركات الباطنية ومدارسها الفكرية

لا يستطيع الباحث مهما ملك من قوة البيان وسعة الاطلاع أن يحدد بالضبط نشأة الحركات الباطنية السرية لما يكتنف تلك النشأة من الغموض والابهام ، ولتضارب الأقوال وتناقض الآراء .

وبالرغم من الصعوبات الكثيرة التي اعترضت سبيلنا فقد توصلنـــا بوسائلنا الخاصة الى أن نجمع بعض المصادر والوثائق التي تحدد لنا على وجه التقريب نشأة هذه الحركات ، التي هزت العـالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، فأحدثت فيه الأفكار الجديدة الخلاقة والآراء المبتكرة المملاقـة المتفاعلة مع الزمن وظروفه وتطور الحركات العقلية والأدبية ، ونمو الفكر الانساني في كافة المجالات .

ومما لا شك فيه ان الحركات الباطنية لعبت دوراً خطيراً ليس فقط في التاريخ السياسي ، بل في التاريخ الروحي للاسلام منذ القرن الثـاني الهجري ، ولا يزال لهذه الحركات انصارها ومريدوها حتى اليوم ، وهم الاسماعيلية والنصيرية والدرزية ، والمذاهب المستورة العديدة المنشقة عن الاسلام .

ليست الحركات البـــاطنية كما يفهمها الناس لغزاً يستحيل حله ، أو باباً مغلقاً لا يمكن ايجاد مفتاحه ، أو سراً مكنوناً يصعب فهمه أو فك رموزه واشاراته .

وليست الباطنية ايضاً وليدة حادثة معينة ، أو تفكير استبد بشخص

أو جماعة في أمر من الأمور ، او حال من الأحوال ، بل هي باعتقادي نظرة أزلية عاشت في دم الانسانية منذ بدء الخليقة وستبقى ما دامت الحياة .

ولربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات والعقائد الظاهرة الى أحداث تاريخية معينة تسببت في خلقها ، وعملت على تطويرهـــا وبلورتها ، غير أن هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الباطنية من حيث جوهرها وأصولها ، ولكننا لا ننكر مـــا للتاريخ من أثر في ظواهر الحركات وهيكلهـا الخارجي بحيث أتت متكيفـة مع الزمن ، متطورة بشكل يوافق العقلية البشرية النزاعة ابداً لنحو الأفضل والأكمل .

ولعل الحدث التاريخي الهام الذي بلغت فيـه الفكرة الباطنية حـد الوضوح الكامـل من حيث الشكل والمبنى يعود الى بعث النبي الهـادي محمد ﷺ رسولاً الى العالمين .

لا ينكر أحد قط أن الرسالة الاسلامية الهادية التي أوحى بها تعالى الى عبده محمـد ﷺ هدفت في غايتها الى اسعاد البشرية وانقاذهـا من دوامة الفوضى التي تخبطت فيها أجيالاً طويلة ، فكان الايمان بها قويا ، وكان التمسك بها عظيماً ، فنشط المسلمون واتسعت آفاق دنيـاهم ، وترسخت اصول دولتهم تحت علم الاسلام ورايته الخفاقة .

ولم يكن المسلمون في بدء أمرهم – والنبي ﷺ بينهم – بحاجة ماسة الى التبصر في اكتشاف حقائق الدين الاسلامي وتشريعاته ، والوقوف على مدلول للآيات الكريمة بدقة ، بل اعتمدوا عـلى النبي ﷺ المعـلم الذي اتخذ دور المجيب على كل أمر ، والمعالج لكل معضلة تعترض سبيـل المسلمين ، وكان من أسباب هذا الاعتماد على النبي ﷺ أن أحدث غيابه – بعد وفاته – فراغاً شعر المسلمون به ، وتحسسوا نفوسهم ، فوجدوا

هوة سحيقة بين معارفهم البدائية ، وكنوز القرآن الكريم الخفية ، فتطلعوا بشغف الى شخص له من القدرة العلمية والتبصر الحكيم ما يستطيع مهما أن يسد فراغ لعطشهم ، ويشبع نفوسهم ، وفهم اكتشاف وتوضيح دروب التقرب من الذات الالهية .

فمن لهم بالمرشد لذاك الشخص المؤهل أن يكون في منزلة تمكنه من تصريف أمور المسلمين والقيام باعباء الدين بشكل يكفل الابتعاد عن الخطأ ، ومواطن الزلل ، لم يجد المسلمون الا كتاب الله العزيز دستوراً يتقيدون بأحكامه ، والحديث النبوي الشريف سنة يعتمدونها في معالجة أمورهم . ولم يكن المسلمون في مستوى علمي واحد ، أو ارتباط موحد بالاسلام ، فسرعان ما ظهرت التأويلات ، وتعددت التفسيرات ، وكثرت الآراء وتشعبت بحسب درجة الوعي ، وتأثير الغايات والخواطر ، فتولد عن ذلك أول بذرة من بذور الانقسام في صفوف المسلمين ، وظهر هذا الانقسام بشقين لكل منها مبرراته وحججه ، وبراهينه ، وكان أحدهما يرى ان القرآن الكريم نص صراحة في بعض آياته على ضرورة وجود الامامة بعد الرسول . وان النبي صدع بأمر ربه واعلن امامة علي بن ابي طالب (ع) من بعده ، واستشهدوا بالعديد من الأحاديث النبوية ، والمواقف التي تدل اما صراحة او استنتاجاً على شرعية امامة علي بن أبي طالب (ع) بينا تمسك الفريق الثاني بضرورة قيام الشورى بين المسلمين والاحتكام اليها معتمدين على آيات قرآنية واحاديث نبوية أخرى .

ولسنا هنا في معرض المقارنة بين الاجتهادين ولا المفاضلة بين أي الفريقين كان على حق ، ومن منهما كان على باطل ، اذ الغاية المتوخاة هي دراسة الحركات الباطنية ، ولكننا ارغمنا على وضع هذا التمهيد لكي نحدد بالضبط الحادثة التاريخية التي تولدت عنها الحركات الباطنية

بشكلها الظاهر .

فالفئة التي والت علي بن ابي طالب (ع) وأقرت له بالامامة والخلافة من بعـــد النبي ، سميت بالشيعة لكونها شايعته وبايعتــه . وتطورت العقيدة الشيعية بمرور الزمن ، فأصبحت الولاية والامامة ركناً من اركان الدين ، وانها واجبة على الله تعالى من باب اللطف ، ووجوب نصبه من قبله تعالى لاقامة الحجة البينة على عباده ، وان الامام الحق هو علي ابن ابي طالب (ع) بالنص الجلي عليه ، وعلى الحسنين ، والخفي على من بعدهما من ولد فاطمة على ان يكون مستحق منصب الامامة جامعاً لشرائطها ؛ وهي ان يدعو الخلق الى نفسه ، وان يشهر السيف على الظلمة ، وان يكون شجاعاً لئلا يفر من الحرب ، وان يكون عالماً ليعيش الناس في الشرع ، وان يكون ورعاً لئلا يتلف بيت مال المسلمين .

ودفعهم هذا التطور الى تقصي الاحكام الاسلامية في القرآن لدعم آرائهم ، واكتشاف الحجج التي تثبت معتقداتهم ، فاستنبطوا فلسفة شاملة تستمد اصولها من جذور القرآن ، وكانت ضرورة تسلسل الامامة وحصرها في آل البيت باعتبارهم منحدرين من اشرف عقب ، وارفع نسب . كما وانهم رافقوا النبوة منذ ولادتها ، وكان لهم شرف الاغتراف من معينها الصافي ، فاقترنت ذاتهم ، بذات الرسول الأعظم ، حيث اعدهم مثلاً اعلى للمسلمين قاطبة ، وحجة للفضيلة وضماناً للحق . فكانوا الشموس الهادية ، والمشاعل التي تنير سبل البشر اجمعين .

وانطلاقاً من هذه النظريات ، استمر الشيعة في دعم معتقداتهـــم واستخلاص الحجج المفيدة لهم ، فتولد عن ذلك العقيدة الشيعية المعروفة الآن .

والمذاهب الباطنية ، اعتمدت في اصولها المذهبية الشيعية ، والتقت مع الشيعة في أكثر من نقطة وأبعد من غاية .

وأبرز أوجه التلاقي عند الباطنية والشيعة قضية الامامة ، وضرورة وجود الامام المنحدر من صلب علي بن أبي طالب (ع) صاحب الحق الشرعي في الامامة والخلافة بعد رسول الله ﷺ وان حفدة النبي أحق الناس بأن يعرفوا حقيقة رسالة جدهم ، فهم وحدهم ورثة علم النبي ، خصهم به ليكونوا حجة على المسلمين من بعده . وذلك كله بأمر من الله تعالى الذي نص على ولاية علي بن أبي طالب (ع) في آية النص (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) والتي فهمها الشيعة وأولوها تأويلاً يتفق مع مذهبهم وآرائهم في ولاية علي بن أبي طالب وابنائه من بعده ، على أن يكون الابن الأكبر المنحدر من فاطمة الزهراء (ع) واعتبروه القائد الروحي للمسلمين ، وبالوقت نفسه الحاكم ، أي صاحب السلطان الديني والسياسي معاً ، لارتباط الدين والسياسة في تلك الأيام بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً ، فالشيعة على هذا النحو طالبوا بقيام النظام الثيوقراطي في الاسلام ، هذا النظام الذي كان معروفاً في العصور القديمة عند كل الدول ذات الحضارات العريقة التي كانت قبل الاسلام . ففي النظام الثيوقراطي ينظر الشعب الى الملوك نظرة دينية يجانب النظرة الدنيوية ، وكانت الحكومات حكومات الهية ، بمعنى ان الملك كان إلهاً مقدساً ، له أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً لأن الحكم له بأمر الآلهة التي عبدها الشعب ، ومن هذه الآلهة كان ملكهم .

ومن البدهي أن يعمد خصوم الشيعة الى وصمهم بالكفر والمروق عن الاسلام ، وينسبون اليهم تأليه علي بن أبي طالب (ع) وما شابه ذلك من التهم الخيالية التي تهدف الى تجريح الشيعة والطعن في معتقداتها بدافع

الصراع العنيف الذي نشب بين الطرفين .

غير أنه من التجني بمكان أن نقر في الشيعة عامة مثل هذه الأمور على الرغم من حالة التقديس التي أحاطوا بها أئمتهم ، واعتبارهم في مستوى العصمة والكمال من حيث المناقب والفضائل .

وما إن وصلت إمامة الشيعة بموجب النص الشرعي الى الامام جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) حتى التف حوله عدد كبير من الشيعة ، واعتبروه المؤسس الحقيقي للمدرسة الشيعية الدينية الفكرية ، وواضع أصول المعتقدات الشيعية .

ولا بد للباحث في شؤون الحركات الباطنية في الاسلام من التحدث عن الامام جعفر الصادق (ع) مفجر الثقافات الفكرية الاسلامية ، وعميد المدارس الفلسفية الباطنية في الاسلام ؛ اذا ما افتخرت المدنية الغربية بالثقافة الانسانية للأوائل ، فليس علينا الا أن نرفع رأسنا عالياً مفتخرين بالنزعة الانسانية التي أوجدها التيار الفكري الاسلامي الذي تغذى بالعلوم الباطنية ، ووضع أسسها وخطط لها الامام جعفر الصادق ، صاحب أول نداء انبعث من الأعماق لإيقاظ رسالة الانسان الكاملة ، في معانيها الدقيقة ، وأهدافها السامية النبيلة ، ولقد جعل الانسان المحور الذي تدور عليه القيم ، والمفسر لمعالم الكون من الوجهة الانسانية .

يعتبر الإمام الصادق (ع) من أعظم الشخصيات العلمية في الأسلام في عصره وبعد عصره ، بالرغم من أن شخصيته العلمية لا تزال غامضة ، تحتاج الى من يفجر طاقاتها ويكتشف كنهها ، ويسبر غورها ، لأن التاريخ يحتم علينا أن نرفع القناع عن حقيقة أعظم شخصية علمية أوجدت مدارس خاصة في الاسلام ، كان لها تأثير قوي في التيارات الفكرية

الاسلامية ، وقد تخرج من تلك المدارس فرق عديدة أهمها : المعتزلة ، الصوفية ، الجعفرية ، الاثنا عشرية ، والحركات الباطنية .

وما دام يكتنف مثل هذه الشخصية العملاقة الظلام فسيظل كثير من الحقائق في طي الخفاء ، لأن التعصب الديني المقيت طمس تلك الحقائق وأقام سداً دون تفهم تلك الأسس العميقة في بناء الحضارة الاسلامية .

ولد أبو عبدالله جعفر بن محمد الباقر المعروف (بالصادق) في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٣ هجرية في المدينة المنورة ، في بيت من أكرم وأنبل وأشرف البيوت العربية وأعرقها حسباً ونسباً واسبقهم الى الاسلام والى المعرفة والتقى والزهد والعبادة .

تلقى علومه على يد والده الذي أجمعت العرب على وصفه بانه « باقر العلوم » كما قد اشتهر بأنه أتقى الأتقياء وأزهد الزهاد ، وزين العابدين .

وكانت ولادته في ظروف قاسية ، وعصر عمّت فيه الفوضى والفساد الاجتماعي والسياسي والديني ، لذلك أصبح بيته ملاذاً لطلاب العلم والمعارف ، ومكاناً يستقي منه العلماء الأفكار الخلاقة الحرة ، والنظريات الفلسفية الواقعية .

والجدير بالملاحظة ان الامام الصادق (ع) عاش بعيداً عن التيارات السياسية التي كانت تعصف بالبلاد الاسلامية ، ورفض أن يعلن الثورة على العباسيين ، وأعلن تبرؤه من الغلاة في الدين ، وبذلك أزال شكوك العباسيين فيه ، ومهد السبيل لأبنائه بعده ، وأخذ الشيعة على اختلاف فرقهم يتسابقون في التقرب اليه .

ويحدثنا الشهرستاني في كتابه الملل والنحل فيقول : « ان الامام جعفر الصادق (ع) كان ذا علم غزير في أصول الدين ، وأدب كامل في الحكمة ، وزهد بالغ في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات ، وقد أقام مدة بالمدينة يفيد شيعته المنتمين اليـه ، ويفيض على الموالين له بأسرار العلوم ، ثم دخل العراق وأقام فيها مدة ، ما تعرض للخلافة قط ، ولا نازع أحداً عليها ، وعلق على قوله هذا : من غرق في بحر المعرفة لا يطمع في شط ، ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لا يخف من حط . »

ومن الملاحظ أن أكثر أحاديث الامامة تروى عن الامـام جعفر الصادق (ع) وأهمها ما رواه عن جده الامام علي بن ابي طالب (ع) في كيفية خلق العالم وكيف تم انتقال النور من آدم الى محمد ﷺ ، ومن ثم انتقل ذلك النور الى الأئمة المنصوص عليهم من آل البيت .

ويؤكد اكثر العلماء والمؤرخين ان الامـام الصادق (ع) هو الذي وضع الفقه المسمى باسمه – الفقه الجعفري – الذي تسير عليه وبموجبه كافة الفرق الشيعية في العالم .

ومهما يكن من أمر فلا بد لمن يدرس الحركات الباطنيـة في الاسلام دراسة صحيحة وافية على ضوء الحقيقة والواقع العقلي والتجرد العلمي ، – ناهجاً النهج الحديث في البحث والتنقيب لمعرفة العلل والأسباب التي اشتركت وتضافرت في تكوين عقلية هذه الحركات وتحديد أهدافها ، مبتعداً عن العاطفة والتعصب – من الاعتراف بان الحركات الباطنية ليست سوى مجموعة من المدارس الفلسفية الفكرية قائمة بذاتهـا تذخر بالحيوية الفكرية المتفاعلة ، وبالعقلية الخلاقة المبدعة التي استنبطت العلوم ، وابتدعت الأفكار الثورية والاشتراكية ، وابتكرت السنن والقوانين ، وأوجدت النظم والأحكام .

والحقيقة التي لا جدال فيها أن واضع البذرة الأولى في صرح هذه المدارس الفلسفية التي أنجبت طبقة ممتازة من المفكرين، صفوة مختارة من الفلاسفة وجهابذة العلماء هو الامام جعفر الصادق (ع) . وبالفعل حشد تلامذة هذه المدارس كل امكاناتهم الفكرية والفلسفية للقضاء على دولة بني العباس ليشيدوا على أنقاضها دولة جديدة ذات نظام اشتراكي عقلي سليم يهدف الى ايجاد مذهب اشتراكي واخوية فلسفية دينية اسلامية وتأليف كتلة اسلامية قوية موحدة الأهداف والكلمة .

ولقد كان للأفكار التي بذر بذورها تلامذة هذه المدارس الروحية، وبثها الدعاة بين طبقات المسلمين وغير المسلمين تأثير كبير على الآداب والفلسفة الاسلامية ، وحياة المجتمع الاسلامي في الأعصر العباسية فقلبت حياته رأساً على عقب وأحدثت بين طبقاته من التغيير ما لا تزال آثاره باقية الى هذا اليوم .

ويمكننا ان نقول ونحن واثقون بأن الفلسفة الباطنية مهدت السبيل لنشر الأفكار الحرة في العالم الاسلامي ، وشجعت الناس على المجاهرة بها بعد ان كانوا يخافون من البحث فيما هو اقل منها خطراً ، وان لتلامذة هذه المدارس الفضل على النتاج الفكري الاسلامي بما اوجدوا من فتوحات فكرية عظيمة حيث نفذوا الى صميم واقع فلسفة كونية عالمية خالدة ، فتركوا للأجيال أعظم ما يخلفه العقل الانساني من انتاج وابداع ، بالرغم من ان تلك المدارس وجدت في عصر مضطرب صاخب بالثورات والحركات التي نتجت عن النقمة على الحكام والأمراء والخلفاء ، لفساد الحكم وانتشار الفوضى الاجتماعية التي كان الناس يتوقون الى التخلص منها والانطلاق من نطاقها الضيق الذى فرضه عليهم الواقع السياسي والاجتماعي والديني الى عالم رحب ومجتمع مثالي يحفظ للمرء حريته وكرامته وسعادته .

ولقد كان لفشل الخلفاء العباسيين في اجابة الرغبات الملحة التي كانت تتفاعل في أعماق طبقات الشعوب المحكومة من عمال وفلاحين وعبيد أرقاء اكبر الأثر في تكوين الحركات الثورية التي كان من أهدافها صهر طبقات المجتمع الاسلامي في برامج ومخططات ثورية اشتراكية تنهد للقضاء على الجوع والفقر والمرض ، وتهدف الى تحرير ابناء الشعوب المحكومة من تسلط الفئات الحاكمة .

ولما كانت المدارس الباطنية وبخاصة الاسماعيلية والقرمطية منها تدعو الى مبادىء اشتراكية متطرفة ترمي الى احداث ثورات شعبية وعمالية وزراعية وصناعية ضد الحكام والملاكين والاقطاعيين والأثرياء فقد أصبحت ملجأ لكل ناقم وحاقد على الأوضاع ، ومكاناً أميناً يأوي اليه العلماء وطلاب المعرفة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فلقد كان علماء هذه المدارس على جانب كبير من المقدرة العلمية ، والحنكة السياسية التي مكنتهم من تدريب دعاة أفذاذ أصبح لهم شأن عظيم في تغذية الدعوات الفكرية والحركات الثورية الاشتراكية .

وإذا ما أردنا التعرض لجميع الحركات التي أحدثتها المدارس الباطنية وكانت دائماً تحت تأثيرها لخرجنا عن موضوع الكتاب . ولكن لا بد لنا من التعرض فيما يلي من صفحات لحركة الاسماعيلية والبابكية ، والقرمطية التي استطاعت أن تتحكم في المشرق الاسلامي مدة تزيد على القرن . وبنفس الوقت يمكننا أن نسمي الحركة الاسماعيلية الباطنية رسالة فلسفية مستقلة ، ودعوة سياسية أممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة . وفكرة عقائدية باطنية تخفي وراءها أهدافاً ومقاصد لا يزال الفكر ينهد لجلاء غوامضها وسبر غورها واكتشاف رموزها واشاراتها ،

وليس أدل على ذلك من أن تلك الحركة الفلسفية كانت توزع الأفكار الثورية فتغزو الاقطار الشرقية والغربية على السواء ، فيسارع الى اعتناقها كل من يستسيغ مبادئها وتعاليمها بصرف النظر عن الأقليم أو البلد أو الجنس أو العرق، وهذا ما جعلها تسمو وترتفع على أيدي أئمة أعـــلام وحجج دعاة كبار كانوا على جانب كبير من الثقافة والعبقرية فتصل الى مصاف الدعوات الأممية الكبرى التي أثرت في العقول وأخرجتها من حيز الجمود الى الانطلاق والتحرر .

وانذاراً صارخاً في وجه التعسف ، وتحذيراً للرجوع عن الغي الى الرشد ، وانتفاضة ترمي الى الاصلاح والنهوض بالطبقات الفقيرة من الهوة التي تردت فيها بطمع الطامعين واستبداد الظالمين .

اذن كانت الحركة الاسماعيلية الباطنية قاعدة لتوزيع الأفكار والتعاليم الثورية ومعيناً فلسفياً لا ينضب تنبع منه التعاليم الاشتراكية العميقة ، ذات الأهداف الواقعية البعيدة التي تلزم خدمة الفكر والمجتمـــع ، والاشتراكية المبنية على أسس من التطور التاريخي للماضي والظروف الاقتصادية للحاضر ، تهدف الى تنظيف المجتمع من الاستغلال والاستئثار وتحكم طبقة قليلة بأغلبية محرومة ، ومن الاقطاع في ظل الرأسمالية والبورجوازية ، والى ازالة الملكية الشخصية التي باعدت العلاقات بين الأفراد وقضت على الهدوء والاستقرار والمثالية من المجتمع . وبذلك وسعت في مبادئها كل شيء ، وأخذت أواسط الأمور ومحاسنها ومزجتها وصيرتها دستوراً اجتماعياً عادلاً ، ومنهاجاً سمحاً ، وجعلت منه طريق الهداية الى الرشاد والرحمة والخير للانسانية والفضيلة والمحبة والألفة في حضارة بشرية واخاء عالمي .

ولم تنس الاسماعيلية طبقات الناس المتباينة فعالجت مصالحها وجمعتها

تحت راية واحدة بالرغم من كونها احزاباً وأقواماً متنوعة متطاحنة ، واصحاب نزعات وأغراض سياسية واجتماعية متضادة ، فوفقت الى وضع الحلول الجذرية على اسس لم يسبقها اليها غيرهـــا لا في الشرق ولا في الغرب ، وتاريخ الانسانية كله يشهد شهادة صادقة على انه لم يقم حتى اليوم ، وأوكد بانه لن يقوم في المستقبـــل حزب او دين او مذهب او جمعية او حركة تضم بين جوانحها الغالبين والمغلوبين ، وأصحاب الأفكار الدينية الحرة والمتعصبين للدين من جميع الطوائف تحت راية المساواة في الحقوق والواجبـات ، وعـلى دين العقـل السليم والمبـادىء الفلسفية العلمية .

الفرق الباطنية :

من المعروف لدى المؤرخين أن المسلمين افترقوا كما افترق غيرهم من أرباب الأديان الكبرى فرقاً بلغت ثلاثا وسبعين فرقة . ويذكر التاريخ أن الشيعة أنفسهم قد افترقوا بهذا القدر ، فضلاً عن غيرهم حيث ذكر أن الشيعة الزيدية عشرون فرقة ، والشيعة الكيسانية اثنتا عشرة فرقة ، ومن الامامية الشيعية اربع وثلاثون فرقة ، ومن غلاة الشيعة ثمـــاني فرق ، ومن الباطنية ثماني فرق أو تسع . ومن الطبيعي أن ينقرض قسم كبير من هـــذه الفرق الكثيرة ، وتبتعد فرق اخرى عن الأصل ابتعاداً كاد يقطع الصلة بين الأصل والفرع ، وكاد يشذ بهـا عن روح الاسلام .

ومن الملاحظ أنـــه لم يبق من جميـع فرق الشيعة حتى الآن إلا الامامية الجعفرية الاثني عشرية ، والزيدية ، والاسماعيلية – الآغاخانية والبهرة – والنصيرية ، والدرزية المتفرعة عن الاسماعيلية .

وبين هذه الفرق الباقية اختلافات منها مـــا يتصل بجوهر العقيدة الاسلامية والأحكام والعمل بها ، ويكاد يكون سبب منشأ هـــذه الفرق ذلك المحور الذي تدور عليه الاختلافات بين السنة والشيعة ، ثم بين فرق الشيعة أنفسهم .

والاختلاف بين عموم الفرق الشيعية هو في سوق الامامة وفي أشخاص الأئمة ، فالكيسانية منهم أخرجوها عن ولد فاطمة بعد الاعتراف بامامة علي والحسن والحسين (ع) وكذلك صنع الزيدية فانهم لم يعترفوا بامامة الأئمة من بعـــد الامـــام (الرضا) لعدم تحقق شرائط الامامة فيهم على مذهبهم . وأما الاسماعيلية فقد وافقوا الامامية في إمامة خمسة منهـــم وافترقوا عنهم في إمامة السادس ، وهو عند الامامية السابـــع موسى بن جعفر الصادق الى تمام اثني عشر اماماً ، وعند الاسماعيليـــة اسماعيـــل ابن جعفر (ع) وولده مبتدئة بمحمد بن اسماعيـــل وبعقبـــه الى يوم الناس هذا .

وعلى العموم فان جميع الفرق الشيعية ما خلا القليل منها يحصرون الامامة بآل علي وفاطمة من بني الحسن والحسين عند الزيدية بشرط توفر شروط الامامة المنوه عنها فيما تقدم ومن بني الحسين خاصة ، وهم بقية الفرق ، وهو مذهب الامامية الاسماعيلية .

ولما كان موضوعنا يتعلق بالفرق الباطنية فحسب رأينا أن نعود صميم الموضوع فنستعرض بايجـــاز جميـــع الفرق الباطنية التي أتى على ذكرها التاريخ ، ومن ثم نبحث بالتفصيل الفرق الباطنية الرئيسية الباقية حتى يومنا هذا .

يحدد الغزالي ألقاب الفرق الباطنية التي تداولتها الألسنة على اختلاف الاعصار والأزمنـــة بعشرة ألقـــاب هي : الباطنية ، والقرامطة ،

والخرميـــة ، والخرمندية ، والاسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية ، والمحمرة ، والتعليمية . ومن ثم يذكر لكل لقب سبباً فيقول : « أما الباطنية فانما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبـــار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر ، وانها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية ، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة ؛ وان من تقاعد عقـــله عن الغوص على الخفايا والأسرار ، والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها مسارعاً الى الاغترار – كان تحت الأواصر والأغلال معنى بالأوزار والأثقال . »

« وأما القرامطة فإنما لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط ، كان أحد دعاتهم في الابتداء ، فاستجاب له في دعوته رجال ، فسموا قرامطة وقرمطية . »

« وأما الخُرَّمية فلقبوا بها نسبة لهم إلى حاصل مذهبهم وزبدته ، فإنه راجع الى طي بساط التكليف ، وحط أعباء الشرع عن المتعبدين ، وتسليط الناس على اتباع اللذات وطلب الشهوات ، وقضاء الوطر من المباحات والمحرمات . وخُرم لفظ أعجمي ينبىء عن الشيء المستـــلذ المستطاب ...

وأما البابكية فاسم لطائفة منهسم ، بايعوا رجلاً يقال له بابك الخُرَّمي ...

وأما الإسماعيلية فهي نسبة لهم إلى أن زعيمهم محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ويزعمون أن أدوار الإمامة انتهت به ، اذ كان هو السابع من محمد ﷺ ... وأما السبعية فإنما لقبوا بها لأمرين : أحدهما : اعتقادهم ان أدوار الامامة سبعة ، وان الانتهاء الى السابع هو آخر الدور وهو المراد بالقيامة ... والثاني قولهم إن تدابير العالم السفلي ، أعني مـــا

يحويه مقعر فلك القمر منوطة بالكواكب السبعة ... وأما المحمرة فقيل انهم لقبوا به لأنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك ولبسوها ، وكان ذلك شعارهم ... وأما التعليمية فانهم لقبوا بها لأن مبدأ مذاهبهم إبطـال الرأي وإبطال تصرف العقول ، ودعوة الخلق الى التعلم من الامام المعصوم وانه لا مدرك للعلوم إلا التعليم . »

هذا ما ذكره أبو حامد الغزالي في كتابه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » واذا ما علمنا أن الغزالي وضع هذا الكتاب تلبية لرغبة المستظهر العباسي عرفنا أية قيمة علمية يتمتع بهـا مثل هذا الكتاب ، فالتحامل فيه ظاهر بين ، والتناقض في صفحاته واضح ، ولا أريد هنا أن اتعرض لصحة ما ذكره من نماذج زعم أنها علمية في الرد على الباطنية ومناقشتها ، لأن ذلك خروج بالبحث عن هذا الموضوع ، لا يتعلق بذات المادة ومناقشتها ، ولا بالعلوم وتحقيق مباحثها ، ولكننا مضطرون إلى بيان التقسيمات الباطنية الخيالية المفتعلة التي قسم بموجبها الفرق الباطنية الى عشر فرق لأن هذا التقسيم لا يتفق مع الواقع والحقيقة ، لأن الغزالي خلط بين الدعوات الباطنية الدينية الفلسفية وبين أصحـاب الحركات الثورية السياسية الاجتماعية الذين انتفضوا على ظلم العباسيين لتقويض دعائم ملكهم على أساس من التنظيم العسكري والاجتماعي والسياسي .

هذا ولا يخفى بأن أصحاب الدراسات الاسلامية الحديثة أظهروا بوضوح وجلاء بأن الاسماعيلية لقبت في أول ظهورهـا بالسبعية ، والتعليمية ، والباطنية ، والقرمطية ، والقرامطة ، أما الالقاب الأخرى التي ذكرها الغزالي (الخرمندية ، البابكية ، والمحمرة) فهي ألقاب نسبت لفرقة واحدة أو بالأحرى لحركة ثورية واحدة هي المزدكية ، لان بابك وأشياعه من الخرميين أخذوا مذهبهـم الشيوعي عن اخوانهم في الجنس والغاية أصحاب مزدك ، وقد عرفت هذه الفرق باسماء زعمائهم

مع اتفاقهم في المسائل الجوهرية، لذلك نستطيع أن نعتبر المزدكية مصدر كل الحركات الثورية الشيوعية التي انطلقت في ايران مدفوعة بعوامل اجتماعية واقتصادية ، ذلك ما يظهر بجلاء من أفعال بابك وأشياعه يوم كانت السلطة في ايديهم ومن برنامجهم الذي لا نجد فيه أثراً للعوامل الدينية .

أما الحركات الثورية التي يمكننا أن نسميها حركات باطنية قامت على أسس دينية مذهبية فهي :

« الناووسية » التي تزعم ان جعفر الصادق (ع) لم يمت ولا يموت ، وهو القائم المهدي الذي سيعود ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

« الموسوية » أتباع الامام موسى الكاظم ، وتتبع مذهباً باطنياً غير الاثنى عشرية .

« الاسماعيلية » القائلة بإمامة اسماعيل اكبر ابناء جعفر الصادق (ع) وألقابها كما يذكرها التاريخ هي : « التعليمية ، القرمطية ، السبعية ، الميمونية ، الخطابية ، الفاطمية ، النزارية ، المستعلية ، البهرة ، الآغاخانية ، المؤمنية » .

« المفضلية » وتنسب الى المفضل بن عمر الجعفي تلميذ الامام جعفر الصادق (ع) وكانت هذه الفرقة الأساس الذي شيدت عليه « النصيرية » قواعد منهجها .

هذا بالاضافة الى فرق صغيرة أخرى انقرضت تماماً أو انصهرت بالفرق الرئيسية الباطنية وهي :

المعمّرية ، والبزيغيّة ، والعميرية ، والأبطحية ، والعيسوية ، والمحمدية ، والراوندية .

ولم يبق من الفرق الباطنية المعروفة في التاريخ حتى الآن الا ثلاث فرق رئيسية لا تزال تحافظ على التراث الباطني القديم وهي : الاسماعيلية بفروعها ، والنصيرية ، والدرزية . لذلك لا نريد في كتابنا هذا أن نستعرض عقائد وتنظيمات جميع هذه الفرق بل نكتفي بالتحدث عن الاسماعيلية بفروعها ، والنصيرية ، والدرزية ، والاتيان على ذكر نماذج من نظرياتهم وآرائهم المعبرة عن نشاطهم في مجالات العقائد والتنظيمات الدعاوية السرية .

الفصل الرابع

الاسماعيلية

فروعها، عقائدها، تنظيماتها السرية

في هذا العصر ، عصر الذرة والاكتشافات الكونية ، تطور وتقدم كل شيء ، وانطلق الفكر الحر من القيود الدينية والنوازع العصبية ، بعيداً عن المؤثرات العنصرية ليبني ويفصل ويبحث وينقب ويكتشف جوهر الوجود الذي ما زال محجوباً عن الأنظار .

لذلك لا نستغرب إذا ما لاحظنا أن الدراسات الاسماعيلية قد تطورت تطوراً ملحوظاً ، ودار حولها كتابات كثيرة جعلتها موضوعاً معقداً تضاربت حوله الآراء وتناقضت بحيث لا يستطيع الباحث المنصف مهما أوتي من قوة البيان ، وحسن التعبير أن يطمئن الى الصورة الجلية الواضحة التي يريد أن يرسمها للحركة الاسماعيلية .

ففي الوقت الذي نرى فيه بعض المؤرخين يذهبون الى أن الحركة الاسماعيلية حركة اصلاحية اجتماعية اقتصادية سياسية تنطلق من الدين ، وتستمد عقائدها الباطنية ، وفلسفتها من القرآن الكريم ومن تعاليم النبي (ص) وارشادات الأئمة الاطهار من آل البيت ، نرى في الوقت نفسه هؤلاء ينسبون اليها تعاليم وآراء وأفكاراً يستحيل أن يطمئن اليها الباحث المنصف ، كما انهم يذهبون الى أن الاسماعيلية حركة اباحية تعمل على تحليل ما حرم الله ، وتهدف الى تقويض دعائم وأركان الدين الاسلامي لأنها تنادي برفع التكاليف الدينية ، وتدين بالتناسخ والحلول والتلاشي ، وشيوعية المرأة واللواط .

لذلك تشعبت الابحاث حولها ، وأصبحت مثالاً للجدل والاستنتاج الذي قلما يؤدي الى نتيجة واضحة تنير السبيل أمام الباحث أو تكشف الستار الكثيف عن الحقيقة المستترة خلفه .

ولقد حاولنا لفت أنظار هؤلاء في الكتب العديدة التي قدمناها للباحثين والمهتمين بالدراسات الاسلامية قبل أن نقدم هذا الكتاب الى أن الباحث المنصف إذا أراد أن يدرك حقيقة الحركة الاسماعيلية فما عليه الا أن يكلف نفسه دراسة وتمحيص كتب الدعاة أنفسهم باعتبارها تضم نصوصاً تاريخية وعقائدية اسماعيلية لها قيمتها العلمية ، وقد كانت بالأمس مفقودة من بين أيدينا ، وبعيدة عن متناولنا .

هذا بالاضافة الى أن هذه المصادر الاسماعيلية موثوقة وخالية من الشوائب والأضاليل ، واننا لعلى يقين بأن خدمتنا هذه ومسعانا في سبيل اظهار نصوص أكثر سيضع حداً لكل التكهنات والاستنتاجات الاعتباطية التي لا توصل الى هدف علمي صحيح .

ومهما يكن من أمر فباستطاعتنا القول مؤكدين أن جميع ما كتب عن الحركة الاسماعيلية قد جاء مبتوراً ناقصاً وبعيداً عن الواقع فهو لم يعط صورة واضحة لمعالم هذه الحركة أو يرسم خطاً بيانياً لتنظيماتها السرية ، أو لمعتقداتها الباطنية السرمدية .

وليعذرني الاساتذة الذين كتبوا في هذا الموضوع حتى الآن اذا همست في آذانهم قائلاً لهم — مع احترامي وتقديري لأدبهم وعلمهم واستنتاجاتهم - بأن جميع ما دونوه عن الحركة الاسماعيلية لم يأت بالفائدة العلمية الصحيحة المتوخاة ، ولم يزد الموضوع الا صعوبة وتعقيداً ، والأسباب أكثر من أن يتسع لها هذا المجال ، ولكن أهمها عدم اطلاع هؤلاء الاطلاع الكافي الوافي على الكتب الاسماعيلية المخطوطة السرية التي ظهر

قسم منها مؤخراً لحيز الوجود . ومن المؤكد أنهم تعمدوا عن قصد أو غير قصد اهمالهـــا وأغفلوا دراستها ومقابلتها مع ما ورد في المصادر التاريخية المناوئة . مضافاً الى كل ذلك عدم استرشادهم بـآراء أصحاب البيت الذين هم أدرى الناس بما فيه . ولي كلمـة أخيرة أود أن أهمس بها في آذان المهتمين بالدراسات الاسلامية من شرقيين وغربيين وهي أنه لا يهمنا كل ما قيل ويقال عن الحركة الاسماعيلية سواء قيل انها حركة ثورية الحادية رجت العالم الاسلامي ، أم لم ترجه .. أو كانت تهدف الى نشر الالحاد والزندقة والفجور ، أم تنهد الى خلق مجتمـع انساني مثالي خالٍ من الأدران والشوائب .. أقول لا تهمنا كل هذه الأقوال ما دمنا ننشد الحقيقة العلمية التي نريدها أن تعرّف الاسماعيلية تعريفاً علمياً منطقياً ، وتدل على تنظيماتهـــا وعقائدها دلالة تزيل الشك والارتياب والأساطير والأوهام .

ومما لا شك فيه أن علماء الاسماعيلية أنفسهم كانوا يعرفون بما سوف ينسب اليهم ، وبما سوف يجد الباحث أو القارىء من مشقة في فهـــم فلسفة مذهبهم ومدلول مصطلحاتهم وخفايا رموزهم واشاراتهم الباطنيـــة فقالوا :

« إن لنا كتباً لا يقف على قراءتها غيرنا ، ولا يطلع على حقائقهـــا سوانا ، ولا يعلمها الناس الا من قبلنا . ولا يتعلم فك رموزها ومدلول اشاراتها الا من علمناه ، ولا يعرف صور حروفها الا من عرفناه »

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نؤكد الى الذين يدعون معرفة العقائد الاسماعيلية وتنظيماتها السرية ، وتفاصيل رموز مدلولاتها الباطنية التأويلية بأن يخففوا من تبجحهم وادعاءاتهم ، فدراسة الحركة الاسماعيلية ليست بالدراسة السهلة الهينة بل تكتنفها صعوبات كثيرة لما يحيط بها من غموض ،

وربما كان سبب ذلك ان الحركة الاسماعيلية كما سبق وأشرنا في مؤلفاتنا العديدة هي ذات تعاليم واسعة يحتاج الراغب الى استجلاء كنهها لأوقات طويلة يقضيها بالبحث المتواصل والتنقيب المستمر ، باعتبار أنها حركة فلسفية تعليمية باطنية لهـا أصول وفروع فلسفية سامية ذات برامج وأحكام ظل الناس زمناً طويلاً يعملون لاستيعابهـا وفك مـا غمض من رموزها واشاراتها

وانطلاقاً من هذا المبدأ ، واعتماداً على النصوص الاسماعيلية الكثيرة الموجودة لدينا حشدنا امكاناتنا العلمية حتى يأتي بحثنـا هذا مستوفياً للغرض المطلوب ، فعسى أن يلقي شعاعاً من نور على العقائد والتنظيمات الاسماعيلية التي ظلت تعيش بالستر والتخفي زهاء قرن من الزمن ، أي حتى ظهور الأئمة المستورين في المغرب ، والقرامطة في البحرين .

والحركة الاسماعيلية كما يستدل من تاريخها الطويل ، كانت في بادىء الأمر تدل على إحدى الفرق الشيعية المعتدلة ، ثم صارت مـع مرور الزمن تهدف الى تكوين مجتمع اسماعيلي قوي عماده التقيـة والتخفي ، ونظامه الاخاء والمودة ، وربط الفرد بالمجتمع بوشائج قوية من المحبـة والاخلاص ، والايمان الحق .

ويذكر التاريخ أن الاسماعيلية قاموا بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الاسلامي ، فأسسوا أكثر من دولة لهم في البلدان الاسلامية ، فكانت لهم دولة في المغرب اسسها الامام عبيد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هجرية ، وامتدت الى صقلية وجنوب ايطاليا ، وكان لهم دولة في اليمن على يـد (ابن حوشب) سنـة ٢٧٠ هـ . وكان لهـم دولة في مصر على يد القائد جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ واسسوا دولة (آلموت) النزارية في بـلاد فارس على يـد

(الحسن بن الصباح) سنة ٤٨٣ هـ ، ودولة في البحرين على يد (الحسين الاهوازي ، وحمدان بن الأشعث ، وابي سعيد الجنابي ، وزكرويه بن مهرويه) سنة ٢٧٠ هجرية . وكانت لهم قلاعهم وحصونهم واماراتهم المستقلة في بلاد الشام . ومن البدهي ان يكون لهذه الدول اثر فعال في مجرى الحوادث في العصور الوسطى ، حيث اندلعت بينهم وبين الدول والامارات المجاورة لهم وحتى البعيدة عنهم حروب عنيفة طاحنة امتدت وتشعبت حتى شملت العالم الاسلامي كله .

وكانت للحركة الاسماعيلية عقيدة دينية خاصة دانوا لله بها ، وعملوا على نشرها في العالم بالدعاية المنظمة تنظيماً دقيقاً ، مما ادى الى تقويض دعائم المجتمعات القائمة على اساس من التعاليم السطحية الجامـدة التي لا اثر فيها للانطلاق والتحرر والعلم والفلسفة

ومرد ذلك النجاح المدهش الذي حققته الحركة الاسماعيلية إلى المنظمات السرية التي بذروا بذورها ، وإلى الايمان العميق الذي كان يهيب بالاتباع لتضحية انفسهم في سبيل المصلحة العامة ، وتنفيـذاً لأوامر رؤسائهـم الروحيين الذين كانوا يثقون بهم ثقة عمياء مطلقة ، ويؤمنون بهم الايمان الذي لا يتزعزع .

ولما شعرت الخلافة العباسية التي كانت تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، ويتعاقب في خلافتها عدة من الخلفـاء الضعفاء ، اقول لما شعرت بخطر الحركة الاسماعيلية الداهم وكلت رؤسـاء الدين واصحاب المقالات الدينية بالطعن بمبادىء هذه الحركة والافتراء عليها بالأكاذيب ، وليمعتوا مذهبها ونظامها بالاباحية والزندقة والالحاد والخروج عن الدين الاسلامي الحنيف ، ويطعنوا ايضاً بنسب أئمة هذه الحركة على اعتبار انهم ينحدرون من اصل ديصاني قداحي ، هذا بالاضافة الى تحريض اصحاب الجهل واهل

التعصب عليهم .

مما اضطر الاسماعيلية الى إحاطة دعوتهم بهـــالة كثيفة من السرية والكتمان معتمدين على الطرق الخفية لنشرها وبذو بذور معتقداتها شأن كل دين او فكر اجتماعي ممنوع مضطهد .

وبنفس الوقت هب علماء الاسماعيلية لدفع الاتهامات التي الصقت بهم ، وردوا على خصومهم ، فكان النقاش بين الاسماعيلية ومخالفيهم سبباً في ثروة فكرية شغلت الاوساط العلمية زمناً طويلاً . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية رأى دعاة الاسماعيلية الاول امثـــال ميمون القداح وولده عبدالله ، وابي الفضل الجدلي ، والحسين الاهوازي ، وحمدان بن الاشعث ، وابن سعيد الجنابي ، وزكرويه بن مهرويه ، وابن حوشب ، وابي عبدالله الشيعي ، ومنصور اليمن ، وغيرهم من الحجج والابواب ، بعد ان درسوا بدقة شؤون الدولة العباسية ، انه لا بد للقضاء عليها وعلى نظامها الاجتماعي الفاسد المتفسخ المبني عـــلى مصالح توحيد اصحاب الاراضي والثروة من وضع مخطط سري للدعوة يهدف الى بذر بذور الاشتراكية بين جميع الامم والطبقــات والاديان ، المؤلفة منهـا الدولة العباسية ، وكذلك لا بد من جمع كلمة المستائين من حــكم الخلفاء ، وصهرهم في بوتقة الحركة الاسماعيلية . وبالفعل نجحوا نجاحاً كبيراً لم يسبقهم اليه غيرهم من اصحاب المذاهب والدعوات الدينية والاجتماعية .

وباعتقادي أنـــه لن يظهر في المستقبـل حزب او مذهب او حركة تضم تحت لوائها ممثلي جميع الامم وجميع الاحزاب السياسية والاجتماعية من اصحاب الميول اليمينية الى ذوي الآراء اليسارية ، وممثلي جميع المذاهب والاديان ، من اهل السنة والشيعيين المعتدلين .

حقيقة ان كلمة (اسماعيلية) كانت في بادىء الامر ، كما اسلفنا تدل

على إحدى الفرق الشيعية الباطنية المعتدلة ، ولكنها صارت مع تطور الزمن حركة عقلانية علمية تدل على أصحاب احزاب سياسية واجتماعية متعددة ، وآراء فلسفية وعلمية متنوعة .

ومن استقراء النصوص التاريخية والعلمية الموجودة لدينا يتبين أن الحركة الاسماعيلية نشأت نشأتها الأولى سنة ١٢٨ هجرية كحركة دينية علمية فلسفية تأويلية باطنية في العراق وفي الكوفة بالذات ، خطط لها ونظمها الامام جعفر الصادق (ع) عميد المدارس الفكرية في الاسلام .

والجدير بالملاحظة أن علماء الحركة الاسماعيلية يذكرون في بعض كتبهم الباطنية الفلسفية أن دعوتهم قديمة قدم هذا الوجود ، وقد دعموا هذا القول بنظريات علمية وتأويلات باطنية فلسفية وهناك قسم آخر منهم يذهب الى القول بأن حركتهم بدأت في عهد اسماعيل بن ابراهيم الخليل (ع) ، ويستدلون على ذلك بآراء تأويلية عقائدية . وبالرغم من اننا نملك أكثر من نص يؤيد هذه الأقوال ، ولكننا نذهب مع أكثر الباحثين والمؤرخين ، فنبدأ ببحث هذه الحركة منذ وفاة الأمام جعفر الصادق (ع) وانشقاق شيعته الى قسمين ، قسم نادى بامامة ولده موسى الكاظم وعرفت هذه الفرقة بالامامية الاثني عشرية نسبة الى عدد الأئمة .

أما القسم الثاني فقد ساقوا الامامة الى اسماعيل بن جعفر ، وسميت هذه الفرقة بالاسماعيلية ، وتدور حول هذا الانشقاق وشرعية إمامة اسماعيل قصص وروايات لا بد لنا من استعراضها ومقارنتها مع النصوص الاسماعيلية ، ومن ثم مناقشتها على ضوء الواقع والحقيقة .

يذكر المقريزي [1] ان اسماعيل (ع) هو الأبن الأكبر للامام جعفر الصادق (ع) ، وهو الذي نص عليه بالامامة في حياة أبيه ، غير ان اسماعيل توفي سنة ١٣٨ هجرية وجعفر الصادق (ع) والده لا يزال على قيد الحياة ، وخلف من الأولاد محمداً وعلياً وفاطمة وانتقلت الامامة في عقبه .

ويذهب ابن خلدون [2] الى ان اسماعيل توفي في حياة ابيه بالعريض ، في المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع سنة ١٤٥ هجرية ، وقد سبب موته قبل وفاة أبيه اضطراباً كبيراً عند الشيعة أجمعين ، مما أدى الى تضارب الآراء ، فيما يتعلق بطبيعة الامامة . وبسبب هذا الخلاف حدث انقسام كبير بين الشيعة ، فنشأت فرق وطوائف متعددة

ويقول الشهرستاني [3] لقد كان اسماعيل الأبن الأكبر للامام جعفر الصادق (ع) وهو الذي نص عليه في بدء الأمر ، ومن ثم حدث الاختلاف على موته : منهم من ادعى انه مات في حياة أبيه ، وفائدة النص عليه أن انتقلت الامامة في عقبه باعتبار ان النص لا يرجع القهقري ، والقول بالبدء محال ، اذ لا ينص الامام على واحد من ولده الا بعد السماع من آبائه ، التعيين لا يجوز على الابهام والجهالة . ويذهب مؤرخو الشيعة الاثني عشرية وبعض مؤرخي السنة الى ان اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) لم يكن بالرجل الذي يصلح للامامة ، لأنه كان مدمناً على شرب الخمر ولوعاً بالنساء وانه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٦.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٣ ص ٣٦٠ .

(٣) الملل والنحل ص ١١٠ .

الفاسق الملحد الذي ادعى ألوهية جعفر الصادق (ع) وأنه كان رسوله ، مما جعل جعفر الصادق يتبرأ منه ولا يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين ابنه اسماعيل (ع) ، وان جعفراً أظهر فرحه لموت ابنه اسماعيل لما كان معروفاً عنه من فسق [1] .

ويقول رشيد الدين وجويني [2] بأن جعفر الصادق أمر بعرض جثة اسماعيل للملأ ، وشهدها قوم كثيرون وتحققوا من وفاته . ويضيف وجويني ان وفاة اسماعيل كانت سنة ١٤٥ هـ ويقول صاحب عمدة الطالب انها وقعت سنة ١٣٨ هـ. وينسب رشيد الدين وجويني للاسماعيليين القول بان اسماعيل لم يمت وأنه عاش بعد أبيه سنين وانه اتى بمعجزات كثيرة .

وذكر الكشي [3] : أن جعفر (ع) قال : اسماعيل ليس مني ولكنه شيطان في صورة انسان . ويقسم النوبختي الذين ساقوا الامامة باسماعيل بعد وفاة أبيه الى فرقتين . فرقة أنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه ، وقالوا كان ذلك من جهة التلبيس من أبيه على الناس لأن خاف فغيبه عنهم . وزعموا أن اسماعيل هو القائم وانه لم يمت ولكنه في الغيبة وسيرجع . وهذه الفرقة هي الاسماعيلية الخالصة .

وفرقة زعمت ان الامام بعد جعفر بن محمد (ع) هو محمد بن اسماعيل وقالوا ان الأمر كان لاسماعيل في حياة ابيه ، فلما توفي قبل أبيه جعل جعفر بن محمد (ع) الأمر لمحمد بن اسماعيل وكان الحق له ولا يجوز غير ذلك ، لأن الامامة لا تنتقل من أخ الى اخ بعد الحسن والحسين

---

(١) الكشي (١٩١ - ١٩٢) وعمدة الطالب ص ٢٢٣ .
(٢) عمدة الطالب ص ٢٢٣ مقتبسة من كتاب ايفانوف (**Ismailitica**)
(٣) ص ١٥٩ .

ولا تكون الا في الأعقاب وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » برئيس لهم كان يسمى « المبـــارك » مولى اسماعيل بن جعفر (ع) . وقد دخل فيهم أتباع أبي الخطاب ، ثم افترقوا عدة فرق منها فرقـة الباطنية .

ويذكر البغدادي[1] ان الاسماعيلية ساقوا الامامـة الى جعفر وزعموا ان الامام بعده ابنه اسماعيل وافترق هؤلاء الى فرقتين :

فرقة : منتظرة لاسماعيل بن جعفر مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت اسماعيل في حياة أبيه . وفرقة : قالت كان الامام بعد جعفر سبطه محمد بن اسماعيل ابن جعفر حيث أن جعفراً نصب ابنه اسماعيل للامامة بعده فلما مات اسماعيل في حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب ابنه اسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد ابن اسماعيل ، وإلى هذا القول مالت الاسماعيلية من الباطنية .

هذه لمحة خاطفة عن روايات واساطير خصوم الاسماعيلية حول نشأة الاسماعيلية وشرعية امامة اسماعيل (ع) استعرضناها كما وردت في كتب التاريخ والتي اعتمدها اكثر المؤرخين الذين بحثوا في نسب الائمة الفاطميين والتي لا يؤيدها النقد الحديث لما يكتنفها من تحامل وتناقض . ولما كنـا ننشد الحقيقة كما نوهنا سابقاً لا بد لنا من ايراد بعض الروايات والأقوال التي وردت في نصوص ومؤلفات اسماعيلية عديدة .

يذكر الداعي ادريس عماد الدين مؤرخ الدعوة الاسماعيلية ، المتوفي سنة ٨٧٢ هـ[2] ، ان موسى الكاظم لم يجعله الصادق (ع) اماماً الا ستراً

---

(١) الفرق بين الفرق صفحة ٣٩ .

(٢) زهر المعاني (٤٧ – ٤٩) .

على ولي الأمر (محمد بن اسماعيل) ليكتم أمره على الاضداد ، ولئلا يطلع ما خص به أهل العداوة والعناد ، حتى يستطيع الامام المستقر الحقيقي النهوض بأعباء الدعوة سراً .

ويتحدث الداعي اليمني الخطاب بن الحسين بن أبي الحفاظ الهمداني المتوفي سنة ٥٣٣ هـ في كتابه غاية المواليد فيقول : « روي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) في تسليمه الأمر الى ولده اسماعيل (ع) وغيبة إسماعيل وولده محمد بن اسماعيل في حد الطفولة ، ولم تكن الامامة ترجع القهقرى منه كما لم ترجع من غيره ، فأودع حجته المنصوبة بين يدي ميمون القداح مقامه لولده وأقامه ستراً عليه وقدمه بين يديه واستكفله إياه الى بلوغه أشده ، ولما بلغ أشده تسلم وديعته ثم جرى الأمر في عقبه خلفاً عن سلف »

وهناك رسالة وجدها الدكتور حسين بن فيض الله الهمداني ضمن (كتاب الفرايض وحدود الدين) المنسوب لسيدنا جعفر بن منصور اليمن ونشرها ضمن كتيب من مطبوعات الجامعة الاميركية بالقاهرة سماه (في نسب الخلفاء الفاطميين) وهي عبارة عن ملخص رسالة يزعم جعفر المذكور انه تلقاها من الامام عبدالله بعد نزوله بمدينة المهدية وخلاصتها ، انه لما اشتدت المحنة وعظمت التقية في أيام جعفر بن محمد صلوات الله عليه كتم اسم الامام من ولده تقية عليه . فلم يطلع عليه في حياة جعفر بن محمد ولا بعد وفاته ، الا اوثق الثقاة من شيعته وكان يقول : « التقية ديني ودين آبائي ، ومن لا تقية له فلا دين له » . فتعلق كل فرقة من الشيعة بواحد من أربعة من ولد جعفر بن محمد ، وهم : موسى واسماعيل ومحمد وعبدالله . وكل منهم على غير عقد مؤكد منه . وكان صاحب الحق منهم عبدالله بن جعفر صلوات الله عليه ، فلم يكن علم مقامه الا عند الأبواب والثقاة تقية عليه . وقد تعلق به

قوم على غير هذه الحقيقة توهماً منهم .

فلما اراد الأئمة من ولد جعفر إحياء دعوة الحق خافوا من نفاق المنافقين ، فتسموا صلى الله عليهم بغير اسمائهم ، فجعلوا اسماءهم للدعوة في مقام الحجج ، وتسموا بمبارك وميمون وسعيد للفأل الحسن في هذه الأسماء .

واشاروا بالامامة الى عبدالله ، وتسمى باسماعيل ، ودعوا الى ان المهدي صلوات الله عليه اسمه محمد بن اسماعيل ، لأنه محمد وهو من ولد عبدالله الذي تسمى باسماعيل . فنافق جماعة ممن دُعي ، فذكروا اسماعيل ومحمد بن اسماعيل وهما لا يوجدان ، وأصحاب الحق سالمون آمنون . فكان كلما قام منهم إمام تسمى بمحمد ، والاشارة في الدعوة الى محمد ابن إسماعيل . والمراد باسماعيل عبدالله ؛ والمراد بمحمد كل من كان في عصره إلى ان يظهر صاحب الظهور وهو محمد ، فتزول التقية . والأمر منتظم بهذه التسمية . . .

وثمة رواية اخرى وجدناها ضمن مخطوط اسماعيلي سوري جاء فيها :

« والعهود ولها مراتب حقيقية فأولها النص الأول وهو الذي اجراه في نفوس الأنبياء عليهم السلام عند التسليم بمراتب النبوة والامامة ، ومنه عهد ثاني وهو كما قال مولانا جعفر الصادق (ع) عند ستر ولده اسماعيل حين خرج على جماعة كثيرة جعلها ستراً على ولده اسماعيل وذلك خوفاً من الضد وأيام الفترة ، وقصتها طويلة يعرفها المحققون العارفون وسيرها في كل زمان فاعلم ذلك وحقق تفز فوزاً عظيماً » . .

وهناك روايات صريحة يرويها علماء ومؤرخو الاسماعيلية في كتبهم

حول قصة انشقاق شيعة الامام جعفر الصادق (ع) الى فرقتين .

فيقول بعضهم ان الامام جعفر الصادق (ع) نص على ان يتولى ولده الأكبر اسماعيل (ع) الامامة من بعده ، ولكن اسماعيل توفي في حياة أبيه فانتقلت بذلك الامامة الى ابنه محمد بن اسماعيل بن جعفر (ع) لأن الأمامة لا تكون الا في الاعقاب ، فلا بد ان تنتقل من اب الى ابن ، وأولوا الآية القرآنية الكريمة (وجعلهن كلمة باقية في عقبه) بأن معنى الكلمة هي الامامة ، وأنها لا بد ان تكون في الأعقـــاب دون غيرهم ، وبما ان اسماعيل بن جعفر (ع) كان صاحب الحق الشرعي في الامامة بعد ان نص ابوه على ذلك ، فلا بد اذن ان تتسلسل الامامة في ابنه محمد بن اسماعيل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محمد بن اسماعيل اكبر سناً من عمه موسى الكاظم (ع) ، ولمـــا كان التقليد الشيعي القديم الذي يوجب تسلسل الامامة في اكبر أهـــل البيت سناً ، كان محمد بن اسماعيل أحق من عمه موسى الكاظم (ع) بالامامة .

على ان اكثر مؤرخي الاسماعيلية يقولون ان قصة وفاة اسماعيل ابن جعفر في حياة ابيه ، انما كانت قصة اراد بها الامام جعفر الصادق (ع) التمويه والتعمية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد أئمة الشيعة في كل صقع ، فخاف الامام الصادق (ع) على ابنه وخليفته اسماعيل فادعى موته ، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفـــاته ، وارسل ذلك المحضر الى الخليفة العباسي ، الذي أظهر سروراً وارتياحاً بوفاة اسماعيل الذي كان اليه امر امامة الشيعة .

ثم شوهد اسماعيل (ع) بعد ذلك في البصرة وفي غيرهـــا من بلاد فارس ، وعلى ذلك فالامامة لم تسقط عن اسماعيل (ع) بالموت قبـــل

وفاة أبيه لانه مات بعد أبيه . أما ما زعمه مؤرخو السنة من ان اسماعيل قد نزعت عنه الامامة لعلاقاته المشبوهة مع أبي الخطاب ، وانه كان يشرب الخمر ، فيعتبرها كتاب الاسماعيلية اساطير تضاف الى التهم الكثيرة التي الصقها الخصوم بالاسماعيلية .

وعلى هذه الصورة اضطربت الروايات وتناقضت ، واختلفت الاقاويل والنصوص في امر اسماعيل بحيث يصعب على الباحث المنصف التوصل الى حكم قطعي ، لاسيا وان اسماعيل هو الامام الذي تنسب اليه الحركة الاسماعيلية التي قامت بدور هام في تاريخ العالم الاسلامي منذ ظهورها .

وبالرغم من كل هذا الخلط والاضطرابات في النصوص يمكننا ان نعطي رأينا في الموضوع – حتى تظهر نصوص اخرى – بعد ان درسنا كل ما عثرنا عليه من نصوص تتعلق بإمامة اسماعيل (ع) فنقول :

باعتقادي ان الامام جعفر الصادق (ع) عندما شعر بالاخطار التي تتهدد حياة ابنه اسماعيل (ع) جمع دعاته الأربعة الحرم وولده اسماعيل وتداولوا في الأمر ، ومن ثم قرر أن يطلق على ولده ودعاته الأربعة الحرم اسماء مستعارة للتغطية فسماهم كما يتبين من رسالة المهدي (المبارك، والميمون، وسعيد ، والخير) ، الى آخر ما هنالك من اسماء تطلق عادة للفأل الحسن ، فخرج هؤلاء الدعاة بصحبة اسماعيل (ع) من المدينة الى الكوفة ، ومن المحتمل ان الامام جعفر (ع) قد تدبر الأمر بالاتفاق مع عامل الخليفة العباسي الذي كان بدوره من اتباعه فاستكتبه محضراً يعلن فيه وفاة اسماعيل بن جعفر (ع) ويستنتج من النصوص الاسماعيلية الكثيرة الموجودة لدينا بان اسماعيل (ع) توجه فوراً الى سلمية ومنها الى دمشق ، فعلم المنصور العباسي بذلك ، فكتب الى عامله ان يلقي القبض عليه ، ولكن اسماعيل شعر بالأمر فغادر دمشق نحو العراق حيث شوهد بالبصرة عام ١٥١ هجرية ، وقيل انه مر على مقعد فشفاه باذن الله ،

ولبث اسماعيل عدة سنوات يتنقل بين أتباعه حتى اعلنت وفاتـــه سنة ١٥٨ هـ

ميمون القداح كما تصوره المصادر

لا بد لمن يبحث في نشأة الحركة الاسماعيلية من التعرض لاحـد كبار مؤسسي هذه الحركة ، والذي تدور حوله قصص وحكايات واساطير تضع الباحث في حيرة من امر هذا الداعي الكبير والفيلسوف العظيم ، الذي لعب دوراً فعالاً في تاريخ الحياة الفكرية في العالم الاسلامي ، ووضع البذرة الباطنية الأولى في الاسلام . ولا تزال شخصيته الاسطورية موضع خلاف وجدل ونقاش بين الباحثين والمؤرخين لما يحيط بها من الخفـــاء والغموض ، وحتى الآن لا تزال عاصفة قوية من النقاش التـــاريخي تدور حوله ، وبالرغم من كل هـذا لم يقـل فيـه التـاريخ كلمته الحاسمة .

وتشير المصادر التاريخية الى ان اسرة ميمون القداح كانت تحتـــل مكاناً قيادياً مرموقاً في تاريخ الحركة الاسماعيلية في دورها الأول الذي يبدأ بالامام الخامس جعفر بن محمـــد الصادق (ع) ، وينتهي بظهور الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في المغرب سنة ٢٩٦ هـ . ومما لا شك فيه ان الائمة الاسماعيلية كانوا يعتمدون على افراد هـذه الاسرة التي قدمت لهم خدمات لا يزال التاريخ الاسماعيلي يذكرهـــا بالفخر والاعجاب . وكان مؤسس هذه الاسرة الداعي ميمون القداح اول من اتخذه الائمة المستورون حجة ونائباً لهم ، ويذكر التاريخ ان الامام جعفر ابن محمد الصادق (ع) جعله حجاباً وستراً على حفيده محمد بن اسماعيل اول الائمة المستورين .

وقيل ان ميموناً كان راوية للامام محمد الباقر وابنه جعفر الصادق ، وانه ينتسب الى عقيل بن أبي طـالب ، وتذهب المصادر والنصوص السرية الاسماعيلية الى انه يرجع في نسبه الى سلمان الفارسي ، ويعرف لديهم بميمون بن غيـلان بن بيدر بن مهران بن مهران بن سلمان الفارسي . يكتنف تاريخ ولادته الغموض والابهام ، ولكن بعض المصادر تشير الى انه ولد في مكة وانتقل الى الاهواز ، وقيل انه جـاء من محل في الاهواز يدعى (قوزح عباسي) ونزل عسكر مكرم ثم ذهب الى ساباط ابي نوح ، ويذكر مؤلف كتاب زهر المعاني[1] ان الامام جعفر الصادق شاء ان يقيم لحفيده حجاباً ومستودعاً كما اوصى هارون موسى ان يقيم لولده كفيلاً ، فأقام له يوشع بن النون ستراً عليه وحجاباً له ، فسلمه أعني مولانا محمد بن اسماعيل (ع) الى ميمون بن غيلان قدس الله روحه فرباه وأخفى شخصه وهو ابن ثلاث سنوات مع ميمون القداح ، وهو كفيل له ومستودع امره ، وميمون من اولاد سلمان ، وسلمان من اولاد اسحق بن يعقوب أهل الاستيداع والقائمين بالبلاغ والابلاغ ، اي ان ميمون وابنه عبدالله من بعده كانا حجابين ومستودعـين لاسرار اولاد اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) .

ويذهب بعض المؤرخين الى القول بان ميمون القـداح هو مؤسس الحركة الاسماعيلية وان ائمة هذه الحركة هم من ولد القداح ، وليس من ولد فاطمة وعلي بن ابي طالب (ع) . وقال البعض الآخر ان ميموناً كان يهودياً ديصانياً عمل على تهـديم الدين الاسلامي ونشر الزندقـة والالحـاد ، ويذكر آخرون ان الخلفاء الفاطميـين ينتسبون الى هذا الديصاني اليهودي .

---

(١) زهر المعاني للداعي أدريس عماد الدين القرشي ٤٧ - ٤٩

لذلك رأينا ونحن نملك أكثر من نص ومصدر ينفي هذه الاتهامات ويلقي شعاعاً من نور على هذه الاسطورة أن نورد النقاط الهامة التي اثيرت حول هذا الموضوع الشائك ونناقشها ومن ثم نعطي رأينا فيها

ان اقدم رواية عن مسألة انتساب الأئمة الاسماعيلية الى ميمون القداح ، هي رواية ابي عبدالله بن علي بن رزام الكوفي . وقد وردت في كتابه الذي يرد فيه على الاسماعيلية ونقلها الينا ابن النديم في كتابه (الفهرست) وخلاصتها : « ان عبدالله بن ميمون ، ويعرف بالقداح ، كان من أهل قورح العباس بقرب مدينة الأهواز ، وأبوه ميمون الذي تنسب اليه الفرقة المعروفة بالميمونية ، التي أظهرت أتباع أبي الخطاب محمد بن أبي زينب ، الذي دعا الى الوهية علي بن أبي طالب ، وكان ميمون وابنه ديصانيين ، وادعى عبدالله أنه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر ان الأرض تطوى له ، فيمضي الى أين أحب في أقرب مدة ، وكان يخبر بأحداث الكائنات في البلدان الشاسعة ، وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ، ويحسن اليهم ، ويعاونونه على نواميسه . وكان انتقل فنزل (عسكر مكرم) فكبس بها ، فهرب منها ، وصار الى البصرة ، فنزل على قوم من اولاد عقيل بن ابي طالب ، فكبس هناك ، فهرب الى سلمية بقرب حمص ، واشترى هناك ضياعا ، وبث الدعاة الى سواد الكوفة ، فأجابه في هذا الموضوع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط ، وكان داهية ، فنصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ، وفرق عبدان الدعاة في سواد الكوفة ؛ فأقام قرمط بكلواذي ، ونصب له عبدالله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان ، وذلك في سنة احدى وستين ومائتين » . وينقل الينا ابن النديم بعد ذلك اقوالاً اخرى عن نشاط الدعاة من بني القداح

في خراسان وغيرها من المناطق والبلدان [1] .

هذه أقدم رواية تاريخية ينكر فيها نسب الأئمة الاسماعيلية الى آل البيت ، ويرد الى ميمون القداح . وباعتقادي أن جميع الروايات التي وردت في المصادر التاريخية فيما بعد قد استقاها مؤلفوها من رواية ابن رزام ، بقصد الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين .

ومع كل هذا لا يسعنا الا أن نستعرض بعض الروايات التي وردت في الطعن على نسب الخلفاء الفاطميين . ومنها ما كتبه أخي محسن ، وقد عاش في أواخر القرن الرابع في الطعن في نسب الخلفاء الفاطميين واعتبارهم ينتسبون الى ميمون القداح المجوسي الديصاني ، وما كتبه عبد القادر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ ، بمناسبة حديثه عن الدعوة الباطنية ، فهو يقدم ميمون القداح بن ديصان ، باعتباره من مؤسسي هذه الدعوة ، ويدعي أنه كان مجوسياً من سبي الأهواز ، وكان مولى لجعفر الصادق ، وانه رحل الى ناحية المغرب ، وانتسب في تلك الناحية الى عقيل بن أبي طالب ، وزعم انه من نسله ، ثم ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق (ع) ثم دخل في دعوته الى دين الباطنية ، رجل من سواد الكوفة ، هو حمدان قرمط الذي تنسب اليه القرامطة ، ثم لما تمادت بهم الأيام ، ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون بن ديصان القداح ، فغير اسمه ، ولقبه ، وزعم أنه عبيد الله بن الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) .

وهناك بعض الكتاب المتعصبين من السنة قد أوردوا روايات أخرى زعموا فيها ان القداح كان مجوسياً ، وهو جد الخلفاء الفاطميين في

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) صفحة ٢٦٤ - ٢٦٦ .

المغرب ، وأضافوا : وكان القداح كاذباً منحرفاً ، وهو أصل دعاة الباطنية .

ولكن المؤرخ المقريزي يخالف كل هذه الأقوال ويذهب الى الدفاع عن صحة نسب الفاطميين فيقول : « قد وقفت على مجلدة تشتمل على بضع وعشرين كراسة في الطعن على انساب الخلفاء الفاطميين تأليف الشريف المعروف (بأخي محسن) يقول فيها بأن هؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي الذي تنسب اليه الثنوية ، وديصان هذا ولد ابنا يقال له ميمون القداح ، وكان له مذهب في الغلو ، فولد لهذا ابنــاً يقال له عبدالله ، وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب . وولد لعبدالله هذا ابن يقال له أحمد بعد أن مات ، فقام ابنه أحمد هذا في ترتيب الدعوة وادعى بأنه من نسل محمد بن اسماعيل .. ويؤكد بأن عبيد الله المهدي أو محمد المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله ابن ميمون القداح بن ديصان الثنوي الأهوازي وأصلهم من المجوس ... ويرد المقريزي على هذا القول ، فيقول : ان الأئمة من نسل علي بن أبي طالب كان عددهم وافراً ، وكانت مكانتهم لدى الشيعة على جانب عظيم من التقدير والاحترام ، فما هي الأسباب التي جعلت شيعتهم يعرضون عنهم ويدعون لابن مجوسي أو لابن يهودي ؟ فهذا لا يمكن ان يقدم عليه انسان مهما كانت درجته من السخف والجهل ، ولكن هذه الاشاعات ظهرت عندما تداعت الدولة العباسية وضعف مركزها وأصاب خلفاءها الانقراض والتفكك بعد أن حكموا نحو من ٢٧٠ سنة . وعندما عجزوا عن مقاومة الفاطميين والوقوف في وجههم أثناء احتلالهم بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم في بغداد عمدوا الى الطعن في نسب الأئمة الفاطميين ليسودوا صحائفهم وليجروا الناس على كراهيتهم ، وان القضاة الذين سجلوا شهادة الطعن على السماع في بغداد كانوا من ألد أعداء الفاطميين ، ومن أخلص شيعة بني العباس ، ولم

يعرف عنهم التجرد والنزاهة والصدق ، بل اشتهروا بكراهيتهم وبغضهم ونقمتهم على آل علي بن أبي طالب منذ ابتداء الدولة العباسية ، فتآمروا عليهم وطاردوهم وبطشوا بهم أينما وجدوا ، لذلك قرر الأئمة الفاطميون أن يستتروا عن أنظارهم وهكذا كان [١] » .

ويعلق المؤرخ ابن الأثير على انتساب الفاطميين الى ابن يهودي فيقول : « يا ليت شعري ما الذي حمل أبا عبدالله الشيعي وغيره ممن قام في اظهار هذه الدعوة ، ليخرجوا الأمر من أنفسهم ويسلموا الى ولد يهودي ؟ وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يثاب عليه ؟

وان كتاب المعتضد الى عماله حجة كافية على صحة نسب الخلفاء الفاطميين [١] . » ويقول ابن خلدون [٢] : « ومن الأخبار الواهية ما يذهب اليه الكثير من المؤرخين في (العبيديين) خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم الى اسماعيل الامام بن جعفر الصادق ، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفنناً في الشمات بعدوهم حسب ما تذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ، ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات ، وادلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم ، فتوصل شيعة آل العباس عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم ، وازدلفوا بهذا الرأي القائل الى المستضعفين من خلفائهم ، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم المتولون

---

(١) اتعاظ الحنفا ص (٨٤ - ٨٠ - ٩٠) وابن الاثير جـ ٨ صفحة (١٩ - ٣٢ - ٣٤) .

(٢) مقدمة بن خلدون صفحة (١٥ - ٢٠) واتعاظ الحنفا ص (٦٠ - ٦٥) نقل النص عن كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .

لحروبهم مع الأعداء يدفعون به عن أنفسهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز ، من البربر الكتاميين شيعة (العبيدين) وأهل دعوتهم ، لقد سجل القضاة ببغداد نفيهم من هذا النسب ، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي ، وابن البطحاوي ، ومن العلمـاء أبو حامد الاسفرائيني ، والقدوري ، والصيمري ، وابن كناني ، والابيوردي ، وأبو عبدالله بن النعمان ، وغيرهم من أعلام الأمة في بغداد في يوم مشهود سنة ٤٠٢ هـ . في أيام الخليفة العباسي القادر ، وكانت شهادتهم في ذلك على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب ، فنقله الاخباريون كما سمعوه ، ورووه حسبما وعوه ، والحق من ورائه ، وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان ، وابن مدرار بسجلماسة ، لأصدق شاهد وأوضح دليل على صحة نسبهم ، فالمعتضد أعرف بنسب آل البيت من كل احد ، والدولة والسلطان سوق للعالم ، تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع ، وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار ، وما نفق فيها نفق عند الكافة ، فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والسفسفة ، وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسماسرة البغي والباطل ونفق البهرج والزائف ، والناقد البصير ، قسطاس نظره ، وميزان بحثه وملتمسه » .

وعلى ضوء هذه الآراء المتضاربة والروايات المتناقضة بذلت في عصرنا الحاضر محاولات عديدة لاثبات نسب الأئمة الاسماعيلية الى ميمون القداح ، ونشرت حول ذلك كتب ومقالات كثيرة حاول أصحابهـا استعراض ومناقشة بعض النصوص التاريخية الاسماعيلية التي خرجت الى حيز الوجود ، بعد أن عاشت طويلا في طي الستر والكتمان والتقية .

وبالرغم من أن تلك الكتابات لا تختلف في جوهرها عن الروايات والاساطير السابقة ، ولكن ما كتبه البروفسور (فلادمير ايفانوف) المستشرق الروسي المعروف يستحق عناية كبيرة لما تضمنه من حقائق ثابتة ، وحجج منطقية سليمة . لذا رأينا ان نستعرض بعض ما كتبه حول ميمون القداح وامرته ، وخاصة النتيجتين اللتين توصل اليهما ، في مناقشته ، وهما :

آ – ان ميمون القداح وولده عبدالله لم يكونا أصل الفاطميين ، ولم تجمعهما بهم أية صلة رحم .

ب – انهما لم يكونا ديصانيين ، أو زنديقين ، بل كانا بالعكس فقيهين ورعين ، وان الدعوة السرية الالحادية التي تنسب اليهما لم تكن الا من نسج الخيال .

ويرى ايفانوف أن الخلفاء الفاطميين قد أخفوا أنسابهم ، وفروع ذوي قرباهم ، خوفاً من اعدائهم في البلاد الخارجة عن سلطانهم ، على أولئك الأقربين ، وان قصة ميمون القداح وولده هذه ، ما هي الا اسطورة وخرافة .

ويورد الاستاذ ايفانوف الاحاديث التي وردت في كتاب (الكافي في علـــم الدين) برواية عبدالله بن ميمون ، ووالده ميمون بن القداح ، والاحاديث التي رواها عبدالله ونسبها الى والده ميمون ، وعددها مائة وخمسون حديثاً ، منها مائة وثلاثون ، نقلت من كتاب الكافي ، والباقية نقلت من كتاب (تهذيب الاحكام) [١] .

Rise of the Fatimide, By. W. Ivan ow. p 128. (١)

ومن الأحاديث المذكورة يتضح ان ميمون القداح كان على صلة بالامام محمد الباقر (ع) ؛ وهناك ما يدل على انه كان ضمن خدم أسرة الامام ، وكان الامام الباقر (ع) يصحبه في جولاته ، وكان الباقر عليه السلام اذا سار استند الى ابن القداح ، ويستدل ايفانوف على ذلك بما ورد في الحديث الرابع ، حيث يوصف ميمون القداح صراحة بأنه (مولى) الامام محمد الباقر (ع) ، وغلام الامام جعفر الصادق (ع) .

ويستدل ايفانوف ايضاً ببعض الروايات السنية التي تصف عبدالله بن ميمون بأنه « مولى الامام جعفر الصادق (ع) » ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ينفي ايفانوف تهمة الالحاد عن عبدالله بن ميمون ، ويستدل على ذلك بأن اسمه ورد في كتب الحديث السنية ، مثل ابن النجار المتوفي سنة ٦٤٣ هـ ، والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ وابن حجر المتوفي سنة ٨٥٢ هـ ، وعبدالله الخزرجي الانصاري المتوفي سنة ٩٢٣ ، ولم تنسب اليه في كتب السنة ، أية دعوى بالالحاد او الزندقة ويصفه اكابر رواة الحديث السنيين بصفات مختلفة من ضعيف ، وسقيم ، وراوية لاحاديث مدخولة ، او امور منكرة ، ولكن لم يرمه احد منهم بشبهة الالحاد .

ومن ثم يستنتج ، ان ميمون القداح كان من الموالي ، وكان مقيماً بمكة وله أهمية محلية ، وكان خادماً مخلصاً للامام محمد الباقر (ع) ، ثم ولده جعفر الصادق ، ومن الممكن أنه كان تاجراً ، وربما كان ايضاً مشرفاً على املاك الأئمة بمكة . وقد كان فيما بعد رجلا ذا شخصية ، وكان له عدة اولاد منهم عبدالله ، وابان ، وربما ابراهيم . وكان ولده ابان عالماً يحفظ القرآن ، وليس من المستحيل ان كان اخوه عبدالله معلماً للكتابة ، وانه دوّن خلال خدمته للامام ما سمعه منه . وان مجهوده فيما يبدو ، كان منحصراً في تدوين الاحاديث التي سمعها من الامام جعفر

(ع) ، وليس هناك ما يدل على انه كان مشتركاً في اية حركة الحادية

ومما لا شك فيه ان المصادر الخصيمة للاسماعيلية قد صورت ميمون وابنه من الأبالسة في الألحاد والكفر ، وانه لا محل لنقد مثل هذه الرواية ، ولا داعي لأن يهتم بها هو خيال واضح . وخصوصاً لما يتضمنه ذلك من تناقض في التواريخ ، ومن مبالغات واضحة . وينفي أن ميموناً قد ألّف كتاباً في نصرة الزندقة ، وكل ذلك روايات وأكاذيب لا تستحق الجدل .

ومن النصوص التي أوجدها خصوم الاسماعيلية ، والتي ينسبون ميمون وولده عبدالله الى طائفة (الديصانية) النصرانية التي قام بتأسيسها الحبر مار ديصان في مدينة الرها في القرن الثاني من الميلاد ، وهو الذي يرى البعض أن نظرياته كانت أصل (المانوية) – ويقولون أن ميمون وولده كانا من الديصانيين أتباع هذه الطائفة .

كما وان المصادر السلبية تشير الى أن شخصاً كافراً ، يدعى أبا شاكر الديصاني ، كان يتصل بالامام جعفر الصادق (ع) ، ويسأله أسئلة عن الله وعن قدرته .

وقد ذكره ابن النديم بين العلماء الذين يتظاهرون بالاسلام في قلوبهم[1] وأما الاسمان الديصانيان في أحاديث الشيعة فهما : عبدالله الديصاني ، وعبدالله بن ميمون الديصاني ، وأبو شاكر الديصاني ، وأبو شاكر ميمون الديصاني ، فلو فرض حقاً أن ميمون وولده كانا في الأصل ديصانيين ، فانه لا يعقل أن يكونا كافرين ومسلمين في آن واحد . والواقع أن هنالك من الأحاديث المشار اليها ما يدل على أن ميمون كان مولى للامام

---

(١) الفهرست صفحة ٤٧٣ .

محمد الباقر ، وأنه يروي أحاديث عن هذا الامام ، وان ابنه كان يتلو القرآن عليه ، ويروي ولده الآخر عبدالله عنه الأحاديث ، فلا بد اذاً أن يكون ميمون وولده قد اعتنقا الاسلام عندئذ ، وذلك في القرن الأول من الهجرة . ومن ناحية أخرى ، فان هنالك من الأحاديث ما يدل على أن ذلك قد حدث أيام الامام جعفر الصادق ، وقد توفي هذا الامام ، وفقاً لرواية هشام بن الحكم في سنة ١٩٩ هـ ، وهذه مغالطة تاريخية ظاهرة ، ولذلك نستطيع أن نقول بلا شك انه ليس هنالك من علاقة بين الديصانيين وبين ميمون وولده .

أما هذا الجمع في الأسماء فلا بد أنه محاولة فاشلة ، ترمي الى جعل ميمون وولده ، هما أبو شاكر الديصاني وولده . وفي نهاية المطاف نجد ان الأحاديث الشيعية ، لا تذكر شيئاً عن أصل ميمون الديصاني ، بل بالعكس تدل على انه حتى لو كان ميمون قد تحول من هذه الطائفة الى الى الاسلام ، فانه كان مخلصاً ورعاً [١] .

وبعد كل هذا العرض والمناقشة يؤكد ايفانوف ان هذه القصة التي تجعل ميمون القداح جد الخلفاء الفاطميين ، انما هي اسطورة سخيفة ، ويعيب على المؤرخين أمثال فون همر ، ودوزي ، ودي غويه ، كونهم صدقوها وآمنوا بها .

ومن ثم يتعرض ايفانوف لناحية عقائدية هامة فينفي ان يكون ميمون وولده قد اختير احدهما مستودعاً للامام ، لان مثل ذلك النظام – الاستيداع – لم يكن موجوداً في وقتها ، ولم تعرف هذه النظرية الا في القرن الرابع الهجري . ويختتم مناقشته بقوله : ان هذه الملحمة

---

(١) The Alleged Founder of Ismailism , p. 78, 79, 80, 81

الالحادية التي نسجت حول اسم عبدالله بن ميمون القداح ، ليست الا معتركاً من الأكاذيب والأقوال الباطلة وليست الا من صنع الخيال .

ونحن وان كنا نوافق البروفسور (ايفانوف) في بعض ما ذهب اليه ، ولكننا نخالفه في قوله بأن نظرية الاستيداع لم تكن معروفة إلا في القرن الرابع الهجري ، لأن النصوص الاسماعيلية القديمة التي تبحث في التأويل الباطني الاسماعيلي تدل دلالة واضحة على ان نظرية الاستيداع عرفت لدى الاسماعيلية منذ القدم كنظرية أساسية تتعلق بالأصول العقائدية وبصلب التنظيمات السرية . فهم يعتبرون مثلاً أولاد اسحق أئمة استيداع ، كما يذكرون في كتبهم ان هذه النظرية كانت معروفة في عهد هارون حيث أوصى موسى بأن يقيم لولده كفيلاً ومستودعاً ، فأقام له يوشع بن النون ستراً عليه وحجاباً له .

وهناك اسطورة جديدة طلع بها علينا عارف تامر في كتابه (القرامطة) تحت عنوان اسطورة ميمون القداح . وخلاصة اسطورة التامر أو بالأصح خرافته قوله : « ان محمد بن اسماعيل عندما فر من المشرق واتخذ من تدمر السورية مركزاً لنشاطه سمى نفسه (ميمون) والقداح أي طبيب العيون .. ومهما يكن من أمر فان أسماء الحسين الأهوازي ، وسعيد الخير وغيرهما من الأسماء التي اتخذها الأئمة الاسماعيليون حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر .. [١] »

ونحن نستغرب أن يطلع علينا التامر بمثل هذه الاسطورة الجديدة لنضيفها الى الأساطير السابقة ، وهو الذي أتى على ذكر ميمون القداح وولده ، والحسين الأهوازي في كتاباته أكثر من مرة وسماهم بالدعاة

---

(١) القرامطة صفحة ٨٦ – ٨٧ .

الأفذاذ ، والحجج الكبار الذين قامت على عواتقهم الحركة الاسماعيلية في عصورها الأولى ، ولا ندري كيف يجيز لنفسه النزاعة الى ايجاد وخلق الأساطير الوهمية الخيالية ، فيحكم على من سمام بالأمس القريب علماء وحججاً وأبواباً بالاعدام ويعتبرهم أشخاصاً خياليين لا وجود لهم في التاريخ – مع ان المصادر الاسماعيلية تجمع على أنهم تسنموا مراكز قيادية خطيرة في تنظيمات الدعوة السرية – بدون أن يرجع الى ما كتبه هو نفسه عنهم ، أو على الأقل يدعم اكتشافه هذا بأي نص علمي تاريخي .

وباعتقادي ان التامر يعرف في قرارة نفسه حقيقة هذه الاسطورة التي لا تتفق مع المنطق والتاريخ ، وتتناقض أشد التناقض مع قوله « ومن القاء نظرة على تاريخ حياة محمد بن اسماعيل يتبين لنا انه هو موجد دور الستر ، وان امامته كانت بداية دور جديد في تاريخ الاسماعيلية ونذهب الى أبعد من ذلك فنقول بأنه جاء بتعاليم جديدة نسخت بعض تعاليم الشريعة التي سبقته ، وهو أيضاً بالحقيقة اول إمام رفع التكاليف الظاهرية ونادى بالتأويل وبالمعنى الباطني ، وقد كان يعتمد في نشر دعوته على حجته الداعي الكبير ميمون القداح وسنرى عندما نتوسع بالدرس ان اسرة القداح لعبت دوراً هاماً في تاريخ الاسماعيلية .. [١] »

وقوله ايضاً : « واني لأذهب بعيداً أو اتخطى الحدود او أشذ عن الموضوع ، اذا ما قلت ان الفضل يعود الى بعض تلامذة هذه المدرسة كأبي الخطاب ، وجابر بن حيان ، والمفضل بن عمر الجعفي ، وميمون القداح ... وغيرهم من الأقطاب الذين فتحوا الفتوحات الفكرية . [٢] »

---

(١) عبقرية الفاطميين المقدمة صفحة ١٤ – ١٥ .
(٢) الهفت والأظلة المقدمة صفحة ١٦ – ١٧ .

ولكن التامر جاء بهذه الاسطورة لينال ما يرضي شهوته ، ويشبع نهمه ، معتمداً في ذلك على المبدأ الذي يقول (خالف تعرف) . ولو شئنا ان نضرب الأمثـال ، لطال بنـا المطاف ، ولخرجنا عن دائرة الموضوع ، لذلك يمكننا أن نضيف اسطورته هذه الى الأساطير الخيالية السابقة التي لا تستحق الجدل والمناقشة لتفاهتها ، وتناقضها مع الوقائع والحقائق التاريخية التي أوردهـا التامر نفسه في اكثر من مناسبة تحدث فيها عن اسرة ميمون القداح . وليس لنا في هذه المناسبة الا أن نردد قول الشاعر العربي الذي ينطبق على مسلكية التامر المناقبية والخلقية :

عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقيـه
ومن لا يعرف الشـّر ـرَ من الناس يقع فيه

والخلاصة نستطيع أن نقول بعد كل ما أوردناه من أقوال ومناقشات بأن ميمون القداح كان فيلسوفاً وعالماً من أنبغ علماء عصره ، ومن أعظم واضعي أسس الحركة الاسماعيلية ، وعلى يده ويد أولاده وأحفاده ازدهرت هذه الحركة في دور الستر الأول ، ومن الارجح أن ميمون القداح استقر في سلمية في اواخر حياته وعكف على التخطيط والتأليف والتصنيف حتى وافته المنية فدفن في مقام الامام اسماعيل .

ومهما اختلف المؤرخون والعلماء في تحليل شخصيته ، فلم يكن سوى ذلك الخادم الأمين لآل البيت ولدعوتهم الحقة .

عقائد الاسماعيلية الباطنية :

على ضوء ما استوعبناه خلال دراساتنا الطويلة لكافة النصوص المطبوعة والمخطوطة التي تبحث في اصول معتقدات الاسماعيلية يمكننـا أن نعتبر

التأويل ونظرية المثل والممثول المدماك الذي تتركز عليه اسس العقائد الباطنية الاسماعيلية ، فهو بمثابة الشريان الحيوي الذي يمد الافكار الفلسفية العقلانية التعليمية بالتجدد والتطور نحو الأكمل والأمثل . ويفتح مغاليق النفس العاقلة الى دنيا زاخرة بالمعرفة والكوامن الفلسفية ، وبما يفجر من طاقات روحانية في عالم النفس ، ويغذي الفلسفة الباطنية بالحكم والمنطق والبيان .

والتأويل حسب المفهوم الاسماعيلي يختلف تمام الاختلاف عن التفسير كما يفهمه عامة الفرق الاسلامية الأخرى ، لأن التفسير يقصد به شرح أو ترجمة المعنى لكل كلمة أو جملة عامة لا يفهم معناها ، أما التأويل فيقصد به باطن المعنى أو رموزه واشاراته ، أو الجوهر الخفي وراء الكلمة التي لا تدل عليه . لذلك لا نستغرب اذا وجدنا أن المذهب الاسماعيلي يخص الناطق (النبي) بالتفسير الظاهر ، ويعطي حق التأويل الباطن للامام ، لأن الناطق حسب اصول المذهب الاسماعيلي يمثل الشريعة والأحكام والفقه والقانون الظاهر ، أما الامام فتجسد فيه الحقيقة والتأويل والفلسفة الباطنية ، باعتبار أن القرآن انزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه الظاهر للناس فهو اذاً صاحب التنزيل للقرآن ، أما أسرار القرآن التأويلية الباطنية واظهار معاني الرموز والاشارات فقد خص بها عليّ والأئمة من بعده الى يوم الدين . ولقد اعتمد علماء الاسماعيلية على بعض آيات القرآن الكريم واتخذوها دليلاً على القول في وجوب التأويل ، واليك ما يقول القاضي النعمان بن محمد في هذا الصدد [١] :

« كنا بسطنا في كتاب حدود المعرفة الذي قدمنا ذكره كلاماً طويلاً في اثبات علم التأويل والباطن ، والرد على من أنكره من الكتاب

(١) أساس التأويل للقاضي النعمان ورقة ١١ نسخة خطية في مكتبتي الخاصة .

والسنة وأقوال الأئمة والامة واشبعنا القول في ذلك ، وان كنا قد اختصرناه ، ولا ينبغي لنا أن نخلي صدر هذا الكتاب من طرف منه ليكون حجة لنا بين أيدي من يتلوه فنقول وبالله التوفيق : انه لا بد لكل محسوس من ظاهر وباطن ، فظاهره ما تقع الحواس عليه ، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بانه فيه ، وظاهره مشتمل عليه وهو زوجه وقرينه . قال الله عز وجل من قائل :

« وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لعَلَّكُمْ تذكَّرُونَ [١] » .

وان كل ما جاء في الحديث والتنزيل شيء ، وكل شيء وان كان واحداً فلا بد له من زوج ابانة لوحدة البـاري البائن عن خلقه ، ولا يقوم شيء من دونه الا بمزواجة ، كالانسان وهو شخص واحد ، الا أنه جسد وروح ، فالجسد هو الظاهر والروح هي الباطن ، وكل واحد من الاثنين مركب من شيئين ، فالجسد مركب من البرودة واليبوسة ، والروح مركبة من الحرارة والرطوبة ، فـاذا فارقت الروح الجسد بقي الجسد بارداً يابساً ، ولذلك كل ما في العالم اذا اعتبر لا بد له من الازدواج ، وقد ذكر الله سبحانه الباطن في مواضع كثيرة من كتابه فقال جل ثناؤه :

« واسْبَغَ عَليكم نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنةً [٢] » .

وأخبر انه يسأل عباده عن نعمه عليهم فقال عز وجل :

« ثمّ لتَسألُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم [٣] » .

---

(١) سورة ٥١ آية ٤٩ .
(٢) سورة ٣١ آية ٢٠ .
(٣) سورة ١٠٢ آية ٨ .

فمن لم يعرف باطن النعيم ما هو ؟ وقد علم انه مسؤول عنه وكيف يكون جوابه اذا سئل عنه ، ثم قال سبحانه لا شريك له :

« وذروا ظاهِرَ الإثمْ وباطِنهُ [1] » .

فمن لم يعرف باطن الاثم فيذره ، أليس يخشى عليه من أن يقع فيه اذا جهله ؟ ثم ذكر عز وجل في كتابه فقال :

« هوَ الذي أنـْزلَ عَليْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أمّ الكِتاب وأُخَرُ مُتَشابِهات [2] » .

الى قوله :

« وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والرّاسِخونَ في العِلمِ [3] » .

وقد ذكرنا في « حدود المعرفة » قول من أقر بالتأويل وجهل وجهه ، وقول من دفعه وأنكره ، والحجة على جميعهم ، وقال سبحانه وتعالى في التأويل :

« هَلْ يَنظُرُونَ إلا تأويلَهُ يومَ يأتي تأويلُهُ يقولُ الذينَ نَسوهُ مِنْ قَبْلُ قد جاءَت رُسُلُ ربِّنا بالحقِّ [4] » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما نزلت عليّ من القرآن آية الا ولها ظهر وبطن » ، وقد ذكرنا في كتاب حدود المعرفة اجماع الأمة على صحة هذا الخبر ، وفساد [5] تأويل من تأويله على غير الصواب فيه . وذكرنا

---

(١) سورة ٦ آية ١٢٠ .
(٢) سورة ٣ آية ٧ .
(٣) سورة ٣ آية ٧ .
(٤) سورة ٧ آية ٥٢ .
(٥) اساس التأويل القاضي النعمان ورقة ١٣ .

ما أقروا به من الباطن لما لم يجدوا محيصاً دون الاقرار به ، ولزمهم ذلك لضرورة فيه ، اذ لم يجدوا مخرجاً منه نظير الماء . وقولهم ان الله سبحانه وتعالى أراد به العلم في موضع ، والموت والكفر في موضع آخر ، وبالحياة الايمان ، وبالنور الهدى ، وبالظلام الضلالة ، وبالعمى والصم والبكم غير ما هو في الظاهر ، وبالنعاج النساء ، وكثير من مثل ذلك مما يطول شرحه ، فإذا سمعوا من مثل ذلك ما يوجب توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات خلقه أنكروه ، وشبهوا معبودهم ، ووصفوه ونسبوه الى ما يتعالى الله جل ثناؤه ، ويتقدس ويتبارك اسمه عنه ؛ وقد سمعوا ما ذكر عز وجل في كتابه من ضرب الأمثال لعباده كقوله تعالى :

« وتِلكَ الأمثالُ نضربها للنّاسِ وما يَعقِلُها إلا العالِمُون [1] » .

وقوله :

« إن الله لا يَستحيي أن يَضرب مَثلاً ما بَعوضةً فما فوقَها فأمّا الذينَ آمَنوا فيعلمونَ أنّهُ الحقُّ مِنْ ربّهمْ وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثلاً يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسِقينَ [2] » .

وقوله :

« وكُلّاً ضرَبْنا لهُ الأمثال وكُلّاً تبّرْنا تتبيراً [3] » .

وقوله : « ولقدْ ضرَبْنا للنّاس في هذا القُرآنِ مِن كلّ مَثلٍ [4] » .

---

(١) سورة ٢٩ آية ٤٣ .

(٢) سورة ٢ اية ٢٦ .

(٣) سورة ٢٥ اية ٣٩ .

(٤) سورة ٣٠ اية ٥٨ .

وأخبر سبحانه ان للأحاديث ايضاً تأويلاً فقال في قصةِ يوسف عليه السلام :

« وكذلكَ يجتبيكَ ربُّكَ ويُعلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ [1] » .

وقال :

« وكذلِكَ مَكنّا لِيوسفَ في الأرْض ولنِعلّمهُ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ [2] » .

وفي آيات كثيرة من كتابه سبحانه وتعالى ذكر للامثال والباطن والتأويل ، وذلك معروف في لسان العرب الذي نزل القرآن به ، وخاطبهم بلسانهم فيه ، وذلك من معجزات وغرائب تأليفه ، انه يأتي بالشيء الواحد وله معنى في ظاهره ومعنى في باطنه ، فجعل عز وجل ظاهره معجزة رسوله ، وباطنه معجزة الأئمة من أهل بيته ، لا يوجد الا عندهم ، ولا يستطيع أحد أن يأتي بظاهر الكتاب غير محمد رسول الله ﷺ جدهم ، ولا أن يأتي بباطنه غير الأئمة من ذريته [3] ، وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم ، يخاطبون كل قوم منه بمقدار ما يفهمون ، ويعطون كل اهل حد منه ما يستحقون ، ويمنعون منه من يجب منعه ، ويدفعون عنه من استحق دفعه .

ومن هنا نستنتج أن العقيدة الاسماعيلية تفرض على الاتباع أن يعملوا بمبدأي الظاهر والباطن معاً ، باعتبار أنهما يؤلفان روح الدين وهما متصلان ببعضهما البعض ، ومرتبطان تمام الارتباط ، وواجبان على كل اسماعيلي مؤمن ، فالظاهر هو المفهوم العام للتوصيات المتعلقة بقواعد علم الدين ،

---

(١) سورة ١٢ اية ٦ .
(٢) سورة ١٢ اية ٢١ .
(٣) أساس التأويل للنعمان ورقة ١٤ .

والباطن هو جوهر الدين المستور عن الأنظـار ، والمخصص للألبـاب ، ولهذا ذهب الاسماعيلية الى تكفير من اعتقد بالباطن دون الظاهر ، او بالظاهر دون الباطن . وفي ذلك يقول داعي الدعاة المؤيد في الدين :

« من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا ، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا » .

ومن اصول العقيدة الاسماعيلية ضرورة وجود الامام المعصوم ، المنصوص عليه من نسل علي بن أبي طالب (ع) ، والنص على الامام يجب أن يكون من الامام الذي سبقه ، بحيث تتسلسل الامامة في الاعقاب .

ولا تزال الامامـة المحور الذي تدور عليـه كل التأويـلات الباطنية وفلسفتها ، لأن الامامة حسب المفهوم الاسماعيلي ركن اساسي لجميـع اركان الدين ، فدعائم الدين لدى الاسماعيلية هي :

الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والولاية .

واعتبروا الولاية افضل هذه الدعائم ، فان اطاع المؤمن الله تعالى وأقر برسالة الرسول الكريم ، وقام بفروض الدين كلها ثم عصى الامام ، أو كذب به فهو آثم في معصيته ، وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة الرسول .

وتدور حول هذه النقطة الجوهرية اكثر أبحاث علمـاء الاسماعيلية . ومن الملاحظ ان الاسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر ان الأئمة من البشر ، وانهم خلقوا من طين ، فهم يتعرضون للأمراض والموت مثل غيرهم من بني آدم ، ولكن في التأويلات الباطنية يسبغون على الامام نعوت (وجه الله) ، و (يد الله) ، و (جنب الله) ، وانـه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة ، وهو الصراط المستقيم ، والذكر الحكيم الى غير ذلك من الصفات .

وفي هذه الأقوال أدلة على كل صفة من هذه الصفات ، فمثلاً : ان الانسان لا يعرف الا بوجهه ، ولما كان الامام هو الذي يدل العالم على معرفة الله ، فبه اذن يعرف الله ، فهو وجه الله ، الذي يعرف به الله ، وان اليد هي التي يدافع بها الانسان عن نفسه ، والامام هو الذي يدافع عن دين الله ، فهو على هذه المثابة يد الله ، ومن ناحية ثانية نلاحظ أن الاسماعيلية يجردون الله من كل صفة ، وينزهونه التنزيه كله ، وينفون عنه جميع ما يليق بمبدعاته التي هي الاعيان الروحانية - ومخلوقاته - التي هي الصور الجسمانية وهي الاسماء والصفات . ويعتبرون نفي المعرفة هو حقيقة المعرفة ، وسلب الصفة هو نهاية الصفة . ودعموا هذه المعتقدات بنظريات فلسفية وتأويلات باطنية ، أما اكتساباً أو استنباطاً . فأصبحت الفلسفة بنظرهم وسيلة لتقييم العقيدة ، وطريقاً الى تكشف جوهر الخالق والدين ، والعقيدة الاسماعيلية كما يتضح من كتب الحقائق السرية لا تختلف في شيء عما يدين به كل المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب . وهم يؤدون الفرائض الدينية ، ويحرمون ما حرمه الله ، ويعتمدون في أكثر اصول معتقداتهم المذهبية على الاصول الشيعية المعروفة والتي تظهر بوضوح لكل من يتعمق في دراسة العقائد الاسماعيلية والتي يمكننا أن نوجزها بما يلي :

آ - توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل الاشياء ونفي الاشراك له والقرناء .

ب - الاعتراف بالانبياء والرسل ، وانهم معصومون من كل خطأ وان محمداً خاتم الانبياء والمرسلين ، ووجوب طاعته واتباع ما شرعه وسنه .

جـ - القول بوصاية الامام علي بن أبي طالب (ع) وولاية الأئمة

المنصوص عليهم من ذريته وعصمتهم جميعاً .

د - التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .

هـ - ابطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ، ووجوب الأخذ عن الأئمة وحدود الدين .

و - القول بالظاهر والباطن معاً حيث لا يقبل الأخذ بالظاهر دون الباطن ، ولا بالباطن دون الظاهر ، والعبادة العملية لا تكاد تختلف في شيء عند الاسماعيلية عما يدين به كل المسلمين ، ففرائض الدين من صوم وصلاة وزكاة .. الخ من اصول العبادة العملية الظاهرة ، وانما الخلاف الجوهري في التأويل الباطني باعتبار أنه يرتكز على أساس نظرية المثل والممثول .

ومن الخلافات الجوهرية بين الشيعة الاثني عشرية والاسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن امامهم الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى بسرداب في مدينة سامراء (شمالي بغداد في العراق) سنة ٢٦٠ هجرية لا يزال حياً يرزق ، وانه سيظهر ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جورا ، في حين يذهب الاسماعيلية الى ان الامام هو حجة الله على خلقه وهاديهم الى الطريق المستقيم وأبوهم الروحي ، الواجب على كل مؤمن أن يسلم اليه أمره ويتبعه ، لان ولاية الامام حسب المفهوم الاسماعيلي ركن أساسي من أركان الدين ودعامة من دعائمه ، بل هو (الايمان) بالحقيقة والامامة هي المحور الذي تدور عليه دائرة الفرائض التكليفية فلا يصح وجودها الا بوجوده ، والامامة تستمر بالنص مدى الدهر ، لأن الكون لا يستطيع البقاء لحظة دون امام ، فلو فقد ساعة واحدة لماد الكون وتبدد ، والامام بما اوتيه من معرفة خارقة للعادة يعرف اي ابنائه قد نالها بالنص ، فهو لا يخطىء في معرفته هذه بحال من الأحوال ، والا لما اعتبر اماماً وكل هذا مستمد من أصول القرآن لقوله عز وجل :

« وجَعَلَها كَلِمةً باقيةً في عقِبه لعلَّهم يَرْجِعونَ [1] »

والامام يجد ذاته من البشر يجري عليه ما يجري على البشر من حياة وموت ، فمن غير المعقول أن يقال ان اماماً يعيش طول هذه المدة .

ومن الواضح ان علماء الاسماعيلية عندما عالجوا نظرية الامامة لم يجعلوا تسلسلها من اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) فحسب ، بل ذهبوا الى ابعد ذلك وحجتهم ان الامامة اذا كانت قد بدأت من هذا العهد المبكر ، تكون محدثة ، لا يقوم وجودها على أساس متين . لذلك ذهبوا إلى عهد بدء الخليقة المعروف بعهد آدم فطبقوا قواعدهم الأمامية تطبيقاً دقيقاً وسلسلوا الامامة تسلسلاً منطقياً مرتكزاً على النصوص التي وردت في التوراة والانجيل ، ثم أضافوا الى ذلك نظريتهم بالأدوار والأكوار ، فقالوا ان كل دور يتألف من امام مقيم ورسول ناطق أو أساس له ومن سبعة أئمة يكون سابعهم متم الدور ، ويمكن أن يزيد عدد الأئمة عن سبعة في ظروف اخرى وفي فترات استثنائية ، وهذه الزيادة تحصل في عدد الأئمة المستودعين لا في عدد الأئمة المستقرين ، أما الدور فقد جعلوه على نوعين ، صغير وكبير ، فالدور الصغير هو الفترة التي تقع بين كل ناطق وناطق ويقوم فيها سبعة أئمة .

أما الدور الكبير فيبتدىء من عهد بدء الخليقة الى قيام القائم المنتظر الذي يسمى دوره السابع ، فيكون بنفس الوقت متماً لعدد النطقاء الستة .

وانطلاقاً من هذه النظريات والآراء نادى الاسماعيلية مؤكدين بوجوب الأخذ بنظرية التأويل الباطني ، لأنه من عند الله خص به علي بن أبي

(١) سورة ٤٣ اية ٢٨ .

طالب (ع) كما خص الرسول بالتنزيل ، أي أن الامام هو صاحب التنزيل في عصره ، لأن الأئمة هم الراسخون في العلم ، وهم قرناء القرآن ومعدن التأويل والبيان . لقوله عز وجل لنبيه :

« لا تُحرِك به لِسانكَ لِتعْجَل بهِ . إن عَلينا جَمْعهُ وقُرآنه . فإذا قرَأناهُ فاتّبِعْ قُرآنهُ ثمّ إنّ علينا بَيانهُ [1] » .

فكان بيان التنزيل ملتمساً من جهة الرسول فاستفاد منه ما سئل عن شرح بيانه ، وأودع ما لم يبلغ طلبات السائلين اليه عند وصية الذي دل ببلاغته عليه فقال : « أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب » . ووافق هذا القول ما تضمنه محكم الكتاب من قوله تعالى باختلاف الأمة في طلابها :

« ولكنّ البِرّ مَن اتّقى واتوا البُيوتَ مِنْ أبْوابها [2] » .

وكان الامام علي (ع) يفيد في زمانه من طلب ، ويعرض عمن استنكف وكذب ، ويحث في المحافل على سؤاله ، ويعلن مخاطباً بمقاله : « سلوني قبل أن تفقدوني ، ان بين جنبي علماً جماً ، لا أجد له حملة ، ان وجدت لقناً لم يكن مأموناً ، وان وجدت مأموناً لم يكن لقناً » . ثم ان الامام علي (ع) كما يقول الاسماعيلية نقل ذلك العلم الى ذريته الطاهرة الذين اصطفاهم الله تعالى لحمله حفظاً وصحفاً ، كما قال تعالى :

« كلا إنها تذكِرةٌ . فَمَنْ شاءَ ذكرَهُ . في صُحُفٍ مُكرّمةٍ .

---

(١) سورة ٧٥ اية ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة ٢ اية ١٨٩ .

مرفوعةٍ مُطهَّرةٍ . بأيدي سَفَرةٍ . كِرامٍ بَررةٍ [1] .

فالتأويل الاسماعيلي يسمي الأئمة السفرة ، الحاملين الصحف المطهرة ، يسلمها الأول منهم الى الثاني ، ويأخذها الثاني منهم ممن سلف من الماضي ، فيظهر كل امام منهم في زمانه ما يرى أن المصلحة فيه ، ويقيم للابلاغ عنه من يتخيره لذلك ويرتضيه .

وقال تعالى :

« ولقدْ آتيْناكَ سبعاً من المثاني والقُرآنَ العظيمَ [2] » .

فالقرآن العظيم حسب التأويل الاسماعيلي هو الكتاب المنزل وقرينه في التأويل أمير المومنين علي بن أبي طالب (ع) لأنه في زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وانما يسمى الكتاب قرآناً لاقترانه بالعترة ، يبين ذلك قول رسول الله ﷺ : « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي فانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » . فالقرآن اذن قرين كل واحد من الأئمة الطاهرين ذرية الرسول ﷺ في عصره يدعو الى أحكامه ، ويجاهد على اظهار اعلامه ، ويبين للناس حلاله من حرامه .

وبعد كل هذا نستطيع أن نقول إن الاسماعيلية جعلوا من التأويل نظرية فلسفية دينية فذهبوا الى ان الله سبحانه وتعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالانسان ليستدل بما في الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين ، لذلك جعلت كافة المخلوقات قسمين :

---

(١) سورة ٨٠ اية ١٢ : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ .
(٢) سورة ١٥ اية ٨٧ .

قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي ، فالظاهر يدل على الباطن ، كجسم الانسان الذي هو ظاهر والنفس هي الباطن ، وان ما ظهر من امور الدين من العبادة العملية ، وما جاء في ظاهر آيات القرآن هي معان يعرفها وينطق بها علماء أهل الظاهر والعامة ايضاً ، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنياً ، لا يعلمه الا الأئمة وكبار دعاتهم وحججهم ، وعمدوا الى احاطة جميع العلوم الباطنية بالستر والكتمان ، وحظروا اظهارها الا لمن يستحق ذلك من اتباع الدعوة المخلصين الذين تدرجوا في مراتبها ، وترفعوا في مناصبها وهم الطبقة المعروفة بالخاصة .

وللاسماعيلية أدلة عقلية على وجوب التأويل استقوها من القرآن الكريم ، فذهبوا الى أن مثالة الدين تؤخذ من السموات والأرض ؛ وتركيب الأفلاك ، وجميع ما يتأمل مما خلقه الله ، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حمله القرآن الكريم ، فآيات القرآن اذن بحاجة الى من يخرج كنوز هذه المعاني ، واستناداً الى ذلك أوجدوا نظرية المثل والممثول ، والباطن والظاهر ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن وسموا الباطن ممثولاً ، والظاهر مثلاً ، وفي ذلك قال داعي دعاتهم المؤيد في الدين : « خلق الله أمثالاً وممثولات ، فجسم الانسان مثل ، ونفسه ممثول . والدنيا مثل والآخرة ممثول . وان هذه الاعلام التي خلقها الله تعالى ، وجعل قوام الحياة بها ، من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل ، وان قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي ممثول تلك الأمثال[١] » .

وجاء في المجالس المستنصرية : « معشر المؤمنين ، ان الله تعالى ضرب

---

(١) المجالس المؤيدية : ٢ – ٢ هـ المجلس الثامن من المائة الثانية .

لكم الأمثال جملة وتفصيلا ، ولم يستح من حقر المثال اذا بين به ممثولا ، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلا[1] » .

ويقول داعي الدعاة المؤيد في الدين :

أقصد حمى ممثوله دون المثـل ذا ابر النحل ، وهذا كالعسل[2]

وبناء على نظرية المثل والممثول هذه يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن ، فالامام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالي ، وكل خصائص العقل الأول (السابق) جعلت للامام وقالوا ان الظاهر هو العبادة العملية من طهارة واقامة الصلاة وايتـاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد في سبيل الله . لذلك يجب على المريد المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية الظاهرة كما ورد في كتاب الله وكما سنه رسول الله . وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن بعلم الباطن الذي هو العبادة العلمية التي خص بها الوصي والأئمة ، ومن هنا يتضح لنا ان الاسماعيلية لم يعملوا على طرح الاديان وابطال العبادة كما زعم الكتاب والمؤرخون الذين تحدثوا عن الاسماعيلية ، بل كانوا كما قال شاعرهم :

فأننا لأهل علم وعمل لله دنا بهما عز وجـل

ولا بد لنا قبل أن نخوض غمار الفلسفة الاسماعيلية والتنظيمات السرية ، من الاشارة الى ما ذهب اليه أكثر الذين تحدثوا عن عقائد الاسماعيليـة من الكتاب القدماء والمحدثين بان الاسماعيلية يقولون بالتناسخ (التقمص) ، أي بانتقال الروح بعد الموت الى انسان آخر او الى حيوان أو نبات على

(١) المجالس المستنصرية : ص ٩٩ .

(٢) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة .

نحو ما نراه واضحاً في بعض المذاهب .

ويمكننا أن نقول بعد أن نقبنا في كتب اسماعيلية باطنية سرية ان الاسماعيلية لا يدينون بالتناسخ (التقمص) بل يقولون بان الانسان بعد موته يستحيل عنصره الترابي (جسمه) الى ما يجانسه من تراب ، وينتقل عنصره الروحاني (الروح) الى الملأ الأعلى ، فان كان الانسان في حياته مؤمناً بالامام فهي تحشر مع زمرة الصالحين وتصبح ملكاً مدبراً ، وان كان شريراً عاصياً لامامه حشرت مع الأبالسة والشياطين وهم أعداء الامام . والامام نفسه عندهم مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم الى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود الى التراب ، والنفس الشريفة تعود الى ما يجانسها ويناسبها فتصبح نفس الامام عقلاً من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ (تتقمص) ولا تتلاشى .

ولقد ناقش علماء الاسماعيلية أصحاب هذا الرأي ، كما كفروا الغلاة الذين الهوا الأئمة باعتبارهم شوهوا المذهب وخرجوا به عن منهجه الصحيح مما اضطر الأئمة أنفسهم الى اعلان عصيان الغلاة من الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالاتهم . كما وانهم كلفوا كبار دعاتهم للرد عليهم وتسفيه آرائهم ، وليس أدل على صحة ذلك مما قاله الفيلسوف الكبير أحمد حميد الدين الكرماني : « ان أعظم الفرق ضلالاً فرقة الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة [1] » .

ويقول داعي الدعاة المؤيد في الدين [2] : « استعيذوا بالله من قوم

---

(١) تنبيه الهادي والمستهدي للكرماني صفحة ٣.
(٢) المجالس المؤيدية صفحة ٢٧ .

يقولون بأفواههم انهم شيعة وهم من طلائع الكفر والالحاد شر طليعة ، يستوطئون مركب الاباحة ، ويميلون ميل الراحة ، ويحتجون بكون الصلاة اشارة الى حد من حدود الدين ، فاذا عرف سقطت الصلاة ، وان الزكاة اشارة الى مثله فاذا عرف بطلت الزكاة ، وان الصوم هو السكون عن افشاء سرهم الى غير أهله ، فاذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة الى الصوم واحتمال كده ، وان النهي عن شرب الخمر هو النهي عن موالاة بعض الاضداد ، فاذا هم كفوا كان شربها حلالاً سهل القياد ، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا في مهاوي الردى في تحليل المحرمات شر ورد ، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه الى أئمتهم بالبغضاء » .

ولما كان الفلاسفة الاسماعيليون يتمتعون بخصائص عقلية نادرة وعمق نظر واستمداد فلسفي ، والمام واسع بجميع العلوم فقد حاولوا أن يوفقوا بين الاديان السماوية التي سبقت الاسلام وبين ما جاء به الاسلام وكانت مؤلفاتهم مصدر ثروة فكرية بل ثورة عقلية وتعاليم فلسفية ينهل من ينبوعها الفياض كل متعطش للمعرفة .

ولما كان الاسماعيليون يهدفون الى تنمية القوى العقلية من وراء علومهم الباطنية وفلسفتهم التأويلية يمكننا أن نسميهم « العقليين » او « العقلانيين » « **Rationalistes** » أي الذين يركزون عقائدهم على قواعد تنهد الى الوصول بالانسان الى الدرجة السامية من الكمال العقلي والتطور الفكري الذي يقود صاحب العقل السليم الى الاعتقاد بالانسان الكامل أو الحكيم المتجرد .

ومن المؤكد ان الحركة الاسماعيلية أصبحت مع مرور الزمن وتطور أنظمتها ومعتقداتها حركة فكرية ثورية علمانية تهدف الى قلب النظم

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسيطر على البلدان الاسلامية ، والى تحقيق أهداف انقلابية في النظم والأفكار والمعتقدات .

والذين يدرسون التصوف الاسلامي يستطيعون بسهولة ويسر أن يلمسوا أثر الأفكار الاسماعيليـة واضحاً بارزاً في فلسفة الصوفية ، فابن عربي والسهروردي وغيرهما ما هم الا من تلاميذ الاسماعيلية .

ولا بد لنا ونحن نستعرض العقائد الاسماعيلية من تقديم بعض الآراء الفلسفية الاسماعيلية التي تلقي نوراً ساطعاً على مـا يدين به الاسماعيلية قالوا : « ان الله سبحانه وتعالى متعال عن المراتب كلها كمالاً ونقصاناً ، ووحدة وكثرة ، وأول ما ترتب أولاً في الوجود وهو موجود وجد على طريق الابداع والاختراع لا على طريق الفيض كما يقول الفلاسفة ، وهذا الموجود الأول علة أولى يتعلق بها ويترتب عنها وجود ما سواهـــا من الموجودات ، ومثله في هذا كمثل الواحد الذي هو في الاعداد التي ترتب عنه ، بمثابة العلة الأولى في وجودها ، فان الأول إن لم يثبت وجوده لم يكن للثاني طريق إلى الوجود ، والثاني إن لم يثبت وجوده لم يكن للثالث طريق إلى الوجود ، وإذا لم يكن للثاني والثالث وجود الا بثبوت وجود ما يكون أولاهما وسبباً لوجودهما . فمن وجود الثالث والرابع وغيرهما من الموجودات قيام الدليـل على وجود أول لها ثابت ، وسبب لولاه لما وجد ما سواه ، فقد ثبت للموجودات بوجودها مبدأ أول ، عنه ترتبت في الوجود ، وذلك المبدأ الأول نسميه : العقل الأول ، والموجود الأول ، الذي وجوده لا بذاته بل بابداع المتعالي سبحانه اياه .

ولما كانت الموجودات موجودة ثابتة ، ثبت ان العلل ثابتة ، وانها لا تزال ترتفع عن الكثرة عند التوجه نحو الأول منها ، وتقل الى أن تنتهي الى شيء واحد ثابت هو علة تنتهي اليها العلل ، مثل التسمة عن

الأعداد التي وجودها يدل على وجود الثانية ، ووجود الثانية يدل على وجود السبعة ، فلا تزال ترتفع عن الكثرة تحليلاً الى ما منه وجدت ، الى أن تنتهي الى واحد ثابت هو علة لجميعها ، وقوامها . فيكون ذلك الواحد المتقدم الرتبة وجوده لا بذاته ، بل هو في ذاته فعل عمن لا يستحق أن يقال انه فاعل ، وهو مفعول لا من مادة ، وهو فاعل لا في مادة هي غيره . وانما قلنا انه هو فعل في ذاته لكونه أول موجود [1]

ويحدثنا الداعي ابراهيم بن حسين الحامدي المتوفي سنة ٥٥٧ هـ . عن الابداع والمبدع الأول فيقول [2] : « فيه من الأسرار التي رمزت بها الحدود تلويحاً لا تصريحاً لأنه المبدأ الأول الذي يعرف به الأصول والفروع ، والفصول والعلل والمعلولات والأسباب والكائنات ... حتى لا يقع علم الكيفيات واللميات في أيدي الجهلة الغفلة من فسقة الانس والجن ، لأنه العلم المكنون المستور المصون .. وقد وثقت بك في حفظ مجموع من الحكم ما شرح في مصدور قبله وتحملت فيه الامانة التي هي عهده وميثاقه ، الذي أخذ على الملائكة المقربين ، والانبياء ، والمرسلين ، والأوصياء الطاهرين ، والأئمة المنتجبين ، والحدود التابعين ، انك لتصونه غاية الصيانة ، ولتراعي فيه الامانة ، ولتجنب الخيانة ، وتجمله لخلاص صورتك ، وانارة بصيرتك والله على ما نقول وكيل .

نعود الى ما كنا فيه ، ان جميع اهل الشرائع من الاولين ، وفرق الآخرين ، ينتحلون في ذلك انتحالات .. منهم من يقول ان الله تعالى

---

(١) راحة العقل للكرماني صفحة (٥٩ - ٦٠) .
(٢) كنز الولد جـ ١ صفحة (٤٢ - ٤٧) نسخة خطية في مكتبتنا الخاصة .

سبحانه أبدع العقل الأول وحيداً فريداً لا ثاني له ، وان النفس الكلية انبعثت عنه على سبيل وجود الضوء من الضوء ، ووجد عن النفس الكلية الجد والفتح والخيال ، ثم الهيولى والصورة ، ثم الافلاك والبروج والاملاك والطبائع ، والامهات والمواليد المتأخرات . وهؤلاء أهل التأويل المحض ومن ينحو نحوهم من الفلاسفة وغيرهم من أهل الشرائع الظاهرة يقولون بالقلم واللوح واسرافيل وميكائيل وجبرائيل ، وذلك حدهم من العلم .

ومن أهل المقالة من يرى ان الابتداء خطيئة وقعت على بعض العالم الروحاني مثل الشخص الفاضل صاحب الرسائل نضر الله وجهه ، وان تلك الخطيئة أوجبت الهبوط والتكثف . وفرقة تنفي الخطيئة وتقول بان التكثف من سبب نقصان النفس عن مرتبة العقل .. »

وبعد أن يستعرض أقوال الفيلسوف الاسماعيلي الكرماني حول هذا الموضوع وأقوال صاحب الرسائل أي رسائل اخوان الصفاء يقول: « قال سيدنا حميد الدين ، ق س ، فكان العقل ذا نسبتين : نسبة أشرف ونسبة أدون . فأما النسبة الاشرف فهي اضافته الى مبدعه ، وأما النسبة الادون فهي نسبته الى ذاته . فوجب ذلك أن يوجد عنه اثنان : أحدهما قائم بالفعل عن النسبة الاشرف ، واحدهما قائم بالقوة ، وان يكون عن المبدع الاول والمنبعث الأول عقول سبعة مجردة واحد عن واحد .. ونقول إن الموجود عن العقل الاول اثنان أحدهما أشرف من الآخر ، كشرف الوصي القائم بالفعل ، والقائم بجميع ما جاء به .. وتكون تمامية دوره باتماء سبعة ، وقيام كل منهم بنصرة من تقدمه صاعداً الى الاساس . وفعل[1]

---

(١) كنز الولد ورقة ٤٦ .

كل منهم في ركن من أركان الدين ودعائم الاسلام الذي جاء الناطق لظهور الحكم والمعارف المتضمنة على أن الموجود عن العقل الأول والمنبعث الاول عقول سبعة كل واحد منهم عن الآخر صاعداً الى المنبعث الأول ، وان نور كل منهم ساطع ساري فيما وجد عن الاول من الهيولى والصورة ... »

ويذهب شيخ فلاسفة الاسماعيلية السجستاني المتوفي سنة ٣٣١ هـ . الى القول في ان السؤال ، لم خلق الله العالم ؟ محال ممتنع فيقول : « انما حكم ان السؤال عن لمية ما يدرك كيفية كونه محال ممتنع ، فأما إذا أحاط الانسان بكيفية كون شيء ، ثم طلب لميته ، كان ذلك مستقيما جائزاً في العقل . ومثال ذلك كمن وقف على كيفية كون النبات من الطبائع بمعونة من حركات الاجرام العلوية ، جاز له أن يطلب لمية كونه ، ويمكنه الاحاطة به ، كمن وقف على كيفية كون الحيوان من الامهات بمعونة النبات ، كان له ان يطلب لمية كونه .

ومن المتفق عليه ان احداً لم يقف على كيفية كون العالم من الصانع ، وان كان بعض الحكماء قد اطلقوا على أن كونه من الصانع بالامر ، فلم يقفوا على كيفية ذلك الامر . فلما اتفقت آراؤهم على ان درك كيفية كون العالم غير ممكن ، كان طلب لمية كونه احل وأبعد عن القياس . ولعل لمية داخلة في كيفيته ، فيعسر الوقوف على لميته لخفاء كيفيته ، فاعرفه . وأيضاً فان القوة الباحثة على لمية خلق العالم في الانسان جزء من العالم ، فكيف يمكنه الوقوف على لمية خلق شيء ، والقوة الباحثة جزء من الشيء الذي يريد الوقوف على لميته ؟ فاذا أمكنه الوقوف على لمية خلق العالم بالقوة الباحثة التي فيه ، كانت هذه الصورة خارجة

عن الشيء الذي أحاط الانسان به ، والجزء لا يخرج من كله ، فاعرفه [١] » .

ومن ثم يتحدث السجستاني في مكان آخر من كتابه عن كيفيه ابتداء الانسان فيقول :

« ان من المتفق عليه ان قوى العالم قوى غير منقطعة ولا زائلة ، فلا ترى شيئاً يظهر في العالم بقوة من قوى الطبيعة الا ومثله يظهر في الزمان المستقبل . ولا تعدم قوى من قوى العالم بعد ، فيعدم بعدمها المظهر بها . فمن أية قوة من قوى الطبائع والاجرام السماوية ظهر الانسان على غير الجهة التي يظهر الآن بها ؟ ومتى عدمت القوة من الطبيعة والاجرام السماوية وليس يعدم قوتها بوجهه البتة ، فاذا ظهور الانسان لا من هذه الجهة محال ممتنع . فقد ثبت ان الانسان في جميع الازمنة على نسق واحد وجهة واحدة . فقد نطق القرآن في آيتين وهما قوله :

« فلينْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ منْ ماءٍ دافقٍ [٢] » .

وقوله :

« إنّا خلقْنا الإنسانَ مِنْ نُطفةٍ أمْشاجٍ [٣] » .

والعجب ممن لا يستعجب ظهور العالم الطبيعي من سماواته وأرضه ونجومه وبروجه دفعة واحدة ، ثم يستعجب ظهور المتولدات الطبيعية

---

(١) كتاب الينابيع ص (١٠٣ ١٠٤) حققه مصطفى غالب منشورات المكتب التجاري بيروت .

(٢) سورة ٨٦ اية ٥ ، ٦ .

(٣) سورة ٧٦ اية ٢ .

معه دفعة واحدة ، ليستريح من طلب ما لا سبيل في دركه ، وينجو من الوقوع في الشكوك المهلكة المؤذية ، بل الواجب على الفاضل الأديب ان لا يطلب من الشيء إلا الممكن الدرك .

فأما الذي قد اختصّ به السابق من الاحاطة فيذره ولا يطلب دركه والاحاطة به ليظهر شرف العقل المحيط بالانسان العاجز عن جميع الدركات فاعرفه .

وقد جعل الله تبارك وتعالى في نفسه ، أعني نفس الانسان الدلالات على ان طلب ابتداء كون الانسان غير ممكن ، ولا يصير معلوماً البتة . وذلك لأن الشخص الواحد من الانسان لا يعلم من أين مبدأ حركته حيث كان جنيناً في بطن امه : من قلبه ، أم من دماغه ، أم من كبده ، أم من طحاله ، أم من مرارته ، أم من كليته ؟

فاذا كانت الاحاطة بابتداء الانسان المرسل أحرى وأولى ان لا يكون ما يكون من ذلك ممكناً .

فان قال قائل : « انا قد نرى في الشواهد ممكناً ان يتولد من إنسان واحد الى الف انسان على التناسل ، حتى يملأ العالم من ذريته ، ويهلك نشوءه ويخلف غيره ، فلا يبقى له ذكر ، فيجب ان يكون جميع الناس من رجل واحد ، كما ينتهي امر جميع الناس إلى رجل واحد مثلاً » ، فيكون الواحد من الكثير ، كما كان الكثير من الواحد ، فاما ان يكون واحداً لم يتقدمه كثير فلا يمكن ان يكون منه كثير هو متقدمه ، فان كان الانسان الذي يملأ العالم من نسله ، فقد سبقه الخلق الكثير من نوعين ، فيمكن ان يتأخر الكثير من

نسله ونوعه ، فأعرفه ..[1] »

من هنا يتضح لنا ان الاسماعيلية يخالفون كل النظريات التي تقول بأن البشر خلقوا على التناسل ، اي ان الله تعالى خلق اولاً إنساناً واحداً ، وخلق منه البشر على التناسل لأن هذا القول يحمل منزلة الباري تعالى كمنزلة بعض الرعاة ، الذي يعمد إلى شراء بقرة أو ناقة أو شاة فيبقيها عنده مدة من الزمن لتتوالد وتتكاثر ، فالله حسب رأيهم له قدرة على إبداع خلق كثير دفعة واحدة ، كما خلق السماوات والارض والكواكب والامهات دفعة واحدة .

ولا بد لنا من تقديم الدليل القاطع الذي يدعم قولنا بأن الاسماعيلية حاولوا ان يوفقوا بين كافة الأديان السماوية التي سبقت الاسلام وبين ما جاء به الاسلام . وهذا الدليل نجده في قول السجستاني عندما حاول أن يوفق بين الصليب والشهادة فقال :

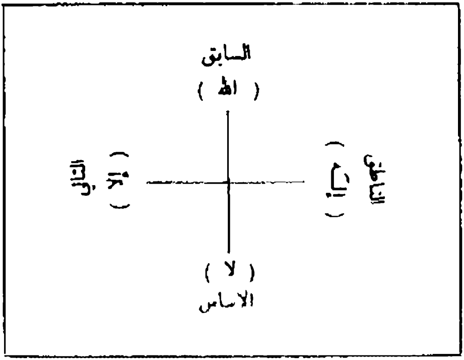
« ان الشهادة مبنية على النفي والاثبات ، فالابتداء بالنفي والانتهاء إلى الاثبات . وكذلك الصليب خشبتان : خشبة ثابتة لذاتها ، وخشبة اخرى ليس لها ثبات إلا بثبات الاخرى . والشهادة أربع كلمات ، كذلك الصليب له أربعة أطراف . فالطرف الذي هو ثابت في الأرض ، منزلته منزلة صاحب التأويل الذي تستقر عليه نفوس المرتادين ، فالطرف الذي يقابله علواً في الجو ، منزلته منزلة صاحب التأييد الذي عليه تستقر نفوس المؤيدين . والطرفان اللذان في الوسط يمنة ويسرة دليل

---

(١) الينابيع ص ١٢٠ – ١٢٢ .

على التالي والناطق ، اللذين أحدهما صاحب التركيب والآخر صـــاحب التأليف ، أحدهما مقابل الآخر ، والطرف القائم دليل على السابق الممد لجميع الحروف . الشهادة سبعة فصول ، كذلك الصليب أربع زوايا وثـلاث نهايات . وللزوايا الأربـع والنهايات الثـلاث دليلة على الأئمـاء السبعة في أدوارهم ، كما دلت الفصول السبعـــة في الشهادة على أئمة دور ناطقنا عليه السلام . وكل طرف منها له ثلاثة أطراف ، تكون الجملة إثني عشر ، كذلك الشهـــادة اثنا عشر حرفاً . وكما ان تأليفها من ثلاثة أحرف غير مكررة ، كذلك الصليب تركيبه من سطوح وخطوط وزوايا . فالخطوط نظيرها الالف ، والسطوح نظيرها اللام ، والزوايا نظيرها الهاء . وكما أن الشهادة إنما تكمل عند اقترانها بمحمد صلى الله عليه وآله ، كذلك الصليب انما شرف بعد ان وجد عليه صاحب ذلك الدور . ولنصوّر ههنا كيفية اتفاق الصليب مع الشهادة بفصولها وأقسامها تحت الحس . [1] »

(١) الينابيع ص (١٤٨ - ١٤٩) .



ومن خلال هذه الفقرات يتبين لنا بأن السجستاني يحاول أن يوفق بين الصليب شعار المسيحية ، وبين الشهادة شعار الاسلام ليصل بنفس الوقت الى التوفيق بينهم وبين الحدود العلوية الاسماعيلية .

ولو حاولنا أن ندرس كافة النظريات والآراء والافكار الاسماعيلية لطال بنا المطاف ولاستغرق ذلك صفحات وصفحات . لذلك نكتفي باستعراض بعض مقابلاتهم لمراتب الموجودات او مراتب الصنعة الالهية ، كما يسمونها ، مع مراتب عالم الصنعة النبوية أو عالم الدين .

اعتبر الاسماعيلية الناطق (النبي) أصل عالم الدين من جهة التركيب ، وعنه وجد الامام القائم بالفعل وهو الأساس . وكذلك عن الناطق وجد الامام بالقوة الذي هو الكتاب ، وعن الامام القائم بالفعل الذي هو

الأساس وجد الأئمة القائمون بحفظ الشريعة ، وهم كثيرون . وعن الامام القائم بالقوة الذي هو الكتاب وجدت الشريعة الجامعة للعبادتين الباطنة والظاهرة علماً وعملاً . وهي أشياء كثيرة . وعن الأئمة والشريعة يحصل كمال النفس البشرية ، إذ بالشريعة يحصل كمالها العلمي الذي يأتي من العبادة الظاهرة ، وعن الأئمة يحصل كماله العملي الذي يأتي من العبادة الباطنة . كما وانهم يعتبرون ان جميع اصحاب الشرائع من الأنبياء والرسل لم يأخذوا التأييد ، ولا اتصل بهم الوحي إلا عن طريق الحدود الروحانية غير المتشخصة ، وذلك استناداً إلى تأويلهم للآية :

« وما كانَ لِبَشرٍ أنْ يُكلّمَهُ الله إلا وَحْياً أوْ منْ وَراءِ حِجابٍ ، أوْ يُرْسِلَ رَسولاً فَيُوحيَ بإذْنِهِ ما يَشاءُ [1] » .

فقالوا ان القسم الأول منها هو رتبة (الجد) الذي هو كلام الله وحياً . وكلمة من وراء حجاب ، هي رتبة (الفتح) . وكلمة ويرسل رسولاً هي رتبة (الخيال) . وأفضى السابق إلى تاليه بالمادة الارادية ، والمشيئة المقتضية . وأفضى التالي بدوره الى الجد ، وهو اسرافيل بما يجري في العالم الروحاني ، فأفضى به اسرافيل إلى الفتح وهو ميكائيل الذي أبلغه إلى الخيال ، جبرائيل ، فبلغه جبرائيل الى الناطق الحي ، الذي يمثل في دوره ، السابق ، كما يمثل الحجة أي الأساس دور التالي ، ويمثل الداعي الجد والمأذون الفتح ، والمكاسر الخيال في كلا الدورين .

---

(١) سورة ٤٢ آية ٥٢ .

فقول النبي ﷺ : اني آخذ الوحي عن جبرائيل ، وجبرائيل يأخذه عن ميكائيل ، وميكائيل يأخذه عن اسرافيل ، واسرافيل يأخذه عن اللوح ، واللوح يأخذه عن القلم ، إنه يعني بذلك إني آخذ الوحي عن الخيال الذي يأخذه عن الجد عن الفتح عن التالي الذي يأخذه عن السابق . فيكون قد أخذ عن خمسة حدود علوية اتصل عنهم خمسة حدود أرضية هم : النطقاء عن السابق ، والاوصياء عن التالي ، والدعاة عن الجد ، والمأذونون عن الفتح والمكاسرون عن الخيال . ولما كان المأذونون أقرب الحدود الى المستجيبين ، ومرتبتهم كبيرة ، لا تتوافر إلا في من كان على علم تام بالعقائد ويعرف مواضع الضعف فيها ، ليتمكن من مجادلة اصحاب الفرق الاخرى وإظهار ما في معتقداتهم من من أخطاء لترغيب المستجيبين ، اعتبروا عصباً مهماً بالنسبة للدعوة ، فيلتخبون من أصحاب المواهب الخارقة والقدرة الفائقة في بث الدعوة والعمل على نشرها في مختلف الطبقات.

وإمعاناً في إسباغ الفضائل عليهم فقد جعل الاسماعيلية الدعاة من (حدود الدين) ، ليتمكنوا من نشر الدعوة وتوجيه الاتباع دونما أية معارضة او مخالفة ، باعتبار ان مخالفتهم ومعارضتهم بنظر الاسماعيلية مروق عن الدين وخروج عن طاعة الإمام نفسه ، لأنهم من أصل العقيدة وحدودها .

وإذا طبّقنا نظرية المثل والممثول يكون في العالم الأرضي حدود جسمانية تماثل الحدود العلوية وتتصف بصفتها وتسمى باسمائها ، لأن الله سبحانه وتعالى المنزّه عن الأسماء والصفات ، أقام العالمين العلوي والسفلي بعشرة حدود كاملة : خمسة حدود روحانية ، وخمسة حدود جسمانية . فالحدود الجسمانية أو الأرضية هم : النبي والوحي والإمام والحجة

والداعي ، يقابل كلا منهم : السابق والتالي والجد والفتح والخيـال ؛ وان العالم العلوي يمد العالم السفلي ، وعالم العرش يمد عالم الكرمي ، وعالم الكرسي يمد فلك زحل ، وفلك زحل يمد فلك الشمس ، وفلك الشمس يمد فلك زهرة ، وفلك زهرة يمد فلك عطارد ، وفلك عطارد يمد فلك القمر ، وفلك القمر يمد فلك الحرارة ، وفلك الحرارة يمد فلك الهواء ، وفلك الهواء يمد فلك الماء ، وفلك الماء يمد فلك التراب .

من هذه المقابلات تنطلق الحركة الاسماعيلية بتنظيماتها الدعاوية السرية العجيبة التي اذا قورنت مع أحدث التنظيمات العصرية واجهزتها الدعائية ، لتوضح لنا ان الاسماعيلية كانوا السباقين في هذا المضمار ، من حيث الدقة في التنظيم والبراعة التامة التي لا تحد – على قلة الوسائل في تلك العصور – واستطاعوا ان يشرفوا بسرعة فائقة على اقاصي بقاع المسلمين ، ويتنسموا أخبار أتباعهم في الأبعاد المتناهية ، وذلك بمـا نظموا من أساليب وأحدثوا من وسائل ، وقد كان للحمام الزاجل – الذي برع في استخدامه الدعاة وكانوا أول من استعمـله في هذه البلاد – أثره الفعّال في تنظيم نقل الأخبار والمراسلات السرية الهامة .

والجدير بالملاحظة ان الحركة الاسماعيلية وفقت بين جهاز الدعـاية الضخم الذي نظمته ، وبين جهاز الفلك ودورته ، فجعلوا العالم – الذي كان معروفاً في عصرهم – مثل السنة الزمنية المقسمـة إلى اثني عشر شهراً ، لذا يجب ان يقسم العالم الى اثني عشر قسماً ، أطلقوا على كل قسم « جزيرة » فعينوا لكل جزيرة من هذه الجزر داعياً مسؤولاً عن الدعاية فيها ، ولقّبوه بحجة الجزيرة أو بداعي دعاتها .

وذهبوا الى ان الدعوة بحـد ذاتها لا يمكن استقامتها إلا باثني عشر

داعياً يتولون ادارتها بقابلهم في عالم الفلك الواحد اثنا عشر برجاً ويطابقها في جسم الانسان اثنا عشر ثقباً ، وفي عالم الحجب اثنا عشر حجاباً مستدلين على ذلك بقول النبي ﷺ :

« طوبى لمن حفظ الرأس وما حوى ، والعقل وما طوى ، والقلب وما وعى ، وذكر القبر والبلى ، ولم يتأثر بالحياة الدنيا » .

أي ان النبي ﷺ قصد من وراء قوله هذا : طوبى لمن حفظ رأس دعوة الحق والأئمة من ولده . ويعني بقوله : « العقل وما وعى » أي أن في العقل اثني عشرة قطعة دليلاً على اثني عشر داعياً الذين هم في جزائر الأرض .

وقالوا : لما كانت الأبراج ستة قبلية وستة شمالية ، اقتضى ان تكون ثقوب الجسد ستة في الجانب الأيمن وستة في الجانب الأيسر يطابقها ان شهور السنة على نوعين : ستة شمالية ، وستة جنوبية . فالستة الشمالية عدد أيامها ثلاثون يوماً ، وتسمى بالأشهر الكاملة . والستة الجنوبية عدد أيامها تسعة وعشرون يوماً ، وتسمى بالأشهر الناقصة . ولما كان الشهر ثلاثين يوماً ، لذلك كان لكل داعي جزيرة ثلاثون داعياً لمساعدته في نشر الدعوة ، وهم قوته التي يستعين بها في مجابهة الخصوم ، وهم عيونه التي بها يعرف أسرار الخاصة والعامة . فكانوا ايضاً بمثابة مستشاريه ووزرائه في كل ما يتعلق بجزيرته .

ولما كان اليوم الواحد مقسماً الى أربع وعشرين ساعة ، اثنتي عشرة ساعة بالليل ، واثنتي عشرة ساعة بالنهار ، فجعل الاسماعيلية لكل

داع نقيب أربعة وعشرين داعياً ، منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً كظهور الشمس بالنهار ، واثنا عشر داعياً محجوباً مستـــتراً كاستتار الشمس بالليل .

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن عدد الدعاة الذين بثهم الاسماعيلية في عالمهم كان حوالي ٨٦٤٠ داعياً في وقت واحد . هذا بالاضافة إلى عدد آخر من الدعاة الذين يكونون دائماً في مركز قيادة الدعـوة مع الإمام . علماً بأنه كان لكل فئـة من هؤلاء الدعاة واجبات مفروضة لا يتعدونها حفظاً لنظام الدعوة .

أما دعاة القيادة العليـــا الذين يكونون دائماً بصحبة الإمام فهم : الحجة ، والباب ، وداعي الدعـاة ، وداعي البلاغ . ويعرفون بالدعاة الاربع الحرم .

ومن خلال هذه الحقائق يمكننا ان نرتب مراتب الدعوة الرئيسيـة العامة التي تعتبر الأساس الذي أقيم عليه جهاز أنظمة الدعوة وهي :

١ – الناطق وله رتبة التنزيل .

٢ – الأساس وله رتبة التأويل .

٣ – الأمام وله رتبة الأمر .

٤ – الباب وله رتبة فصل الخطاب .

٥ – الحجة وله رتبة الحكم فيما كان حقاً او باطلاً .

٦ – داعي البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد

٧ – الداعي المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية ، والعبادة الباطنية .

٨ – الداعي المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية ، والعبادة الظاهرة .

٩ – المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق .

١٠ – المأذون المحدود وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة ، ويُعرف بالمكاسر .

١١ – لاحق } ولهما رتبة مؤزارة المأذون المحدود والقيام بمهمته
١٢ – الجناح } اثناء غيابه .

ولا بد لنا من الاشارة بأن هناك بعض الاختلافات البسيطة في أسماء ورتب بعض الدعاة ، قد يعثر عليها القارىء أو الباحث في بعض الكتب الاسماعيلية ، ولربما كان مرد هذا الاختلاف إلى ظروف وأسباب خاصة ، أو نتيجة لعدم تعمق المؤلف ووقوفه على التمييز بين كل واحد وآخر .

ولكن كتب الحقيقة السرية التي ألفها كبار الدعاة والفلاسفة قبل العصر الفاطمي وخلاله تتفق مع التنظيمات المذكورة أعلاه ، ولكن الدعوة النزارية بعد أن انتقلت إلى فارس أجرى الإمام النزاري بعض التعديلات التي تتناسب مع ظروفه وعصره ، ولكن القسم الخاص بالدعاية الدينية ظل قريب الشبه من النظام السابق ، ولو أن عدد الدعاة نقص وتقلص ؛ فالامام النزاري جعل رتبة (الشيخ) بدلاً من

رتبة (داعي الدعاة) وعين لكل شيخ من شيوخ القلاع والحصون النواب وعدداً غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للمذهب الاسماعيلي النزاري .

والى جانب التنظيمات الدينية أوجد التنظيمات العسكرية والسياسية ، أي الفدائية . وهؤلاء كانوا يتبعون مباشرة لمركز الامامة أو لنسائب الامام في قطره ، ويتلقون الأوامر والمهمات السرية منه مباشرة . وكان هؤلاء على ثلاث مراتب :

أولاً : الرفاق أو المقدمون ، وهم قادة الجيش والفدائية ، يشرفون على تدريبهم ، ويسهرون على تنفيذ المهمات العسكرية والسياسية ، وأحياناً يخططون للاغتيالات الفردية .

ثانياً : الفدائيون الذين ينتقون من العناصر الشابة المخلصة المشهود لها بالاقدام والشجاعة النادرة ، والتضحية الجسدية ، فيكلّفون بتنفيــذ أوامر الامام او نائبــه ، وفق ما تقتضيه المصلحــة العامة .

ثالثاً : المستجيبون ، وهم الذين يقضون فــترة التدريب والتعليم ، في مدارس خاصة بهم على أيدي كبار المقدمين ، وفي اكثر الأحيان يسهر على تدريبهم وإعدادهم الامـــام نفسه ، أو نائبه الشيخ .

وقد عمل بموجب هذا النظام في جميع القـــلاع السورية التي كانت خاضعة للنفوذ الاسماعيلي النزاري .

أما الفرع الاسماعيلي الآخر – المستعلية – فقـــد لقّبوا بالبهرة ، وانقسموا بدورهم الى فرقتين : البهرة السليمانيـة ، والبهرة الداوودية . ومع مرور الزمن تبدّلت التنظيمات القديمة التي كانت معروفة في السابق وأصبح لهم في كل بلد من البلدان التي فيها جماعـــة منهم ، رجل من رجال الدين الذين تلقّوا علومهم في (الجامعة السيفية) بمدينة سورت في الهند ، يسمونه (العامل) وهو المكلّف بالاشراف على كافة الشؤون الدينية للاتباع .

أما الاسماعيلية النزارية الآغاخانية فقد اعتمـدت في عصرنا الحاضر على أحدث النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحيـــة المعروفة اليوم ، فأوجدت لها المنظمات والهيئات وخصص الامام (الآغا خان) الأموال اللازمة للانفاق على تنمية هذه المؤسسات . ولقد كان لهذه التنظيمات أثرهـــا الفعال في نهضـة الاسماعيلية الآغا خانيـة في مختلف المجالات ، وفي بعض الأقطار بلغت الذروة .

وقبل أن نأتي على نهاية هذا الفصل نرى لزاماً علينا ان نستعرض أسماء بعض الفرق التي انشقّت عن الحركة الاسماعيلية الأم تنويراً للأذهان ولتكون الفائدة أعم وأشمل .

ذكرنا أن الحركة الاسماعيلية كانت في نشأتها الأولى تدعو الى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق . وبعد ان أعلنت وفاة اسماعيل رسمياً كما يُستدل من التـاريخ الاسماعيلي ، ساقوا الامامة في عقبـه أي في ولده محمد الذي كان يتنقل في فارس والعراق وبلاد الشام ، وبعده ساقوها في الأئمة المستورين من ولده . وفي هذه الفترة أي فترة دور الستر الأول ظهرت الحركة الاسماعيلية بمظهرها التنظيمي الرائع الذي خطط له الدعاة

في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي .

وظلت الحركة تعمل بالستر والكتمان الشديدين حتى تمّ ظهور الامام عبيد الله المهدي في المغرب . وبعد ان شيّد دعائم ملكه على أساس متين تسلم الامامة المنصور ثم المعز لدين الله الذي فتح الله على يديه مصر سنة ٣٥٩ هـ . ومن ثم تولاها العزيز ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر ، ثم المستنصر بالله . وبعد ان أعلنت وفاة الامام المستنصر وقع الخلاف بين ولديه نزار وأخيه المستعلي الذي تمكن من استلام الخلافة والامامة بالقوة بمساعدة خاله الافضل الجمالي قائد جيوش الدولة الفاطمية ، وبذلك انقسمت الاسماعيلية الى فرقتين : « مستعلية » ، و « نزارية » .

فأما المستعلية فقد استمر أئمتها بادارة شؤون الخلافة في البلاد المصرية . وبعد المستعلي جاء الآمر ، ومن ثم الطيب بن الآمر الذي يدّعون أنه دخل كهف الستر والغيبة . وفي هذه الفترة استلم أربعة وكلاء شؤون الخلافة وهم : الحافظ والظافر والفائز والعاضد . وفي عهد العاضد استولى صلاح الدين الأيوبي على الملك ، فتفرّق شمل الدولة الفاطمية والدعوة الاسماعيلية بفرقتيها النزارية والمستعلية . ومنذ ذلك الوقت ُعرفت المستعلية بالدعوة (الطيبة) أو البهرة كما يسمونها اليوم بشقيها الداؤدية والسليمانية .

أما النزارية فقد انتقلت إلى فارس حيث جعلت عاصمتها في قلعة (آلموت) وانضم اليها الاسماعيليون الذين كانوا يقيمون في بلاد الشام وفارس والهند والسند ، وقد تسلسل منها أئمة عديدون ، حتى عهد إمامة شمس الدين محمد حيث انقسمت الى فرقتين : الأولى نادت بإمامة ولده الأكبر قاسم شاه تنفيذاً للنص الإمامي الصحيح وساقت الامامة في ولده حتى

الامام الحالي كريم شاه الحسيني المعروف (بآغا خان الرابع) وسميت (بالآغا خانية) .

أما الثانية فساقت الامامة في مؤمن شاه الابن الاصغر لشمس الدين محمد واصبح لها بعض الاتباع في بلاد الشام ولكنها انقرضت بانقراض أئمتها كما تؤكد المصادر التاريخية عام ٩٥٠ هجرية إثر وفاة طاهر شاه الثالث الشهير (بالدكني) .

والغريب في الأمر أننا عثرنا مؤخراً على بعض الكتب السرية لدى بعض الاسماعيلية في مصياف يُستدل منها على انهم كانوا على اتصال مع عدة أئمة من سلالة مؤمن شاه ، آخرهم محمد بن حيدر ولقبه الأمير محمد الباقر .

ولما كانت جميع المصادر التاريخية ، وخاصة الهندية والفارسية منها تؤكد باصرار على ان طاهر شاه الثالث الدكني انقطع عرقه ولم يعقب ؛ رأينا ان نرجع الى شجرة النسب المحفوظة في مركز الدعوة الآغا خانية في الهند وباكستان وإلى بعض الوثائق التاريخية فوجدنا ان أحد أئمة فرع الآغا خانية وهو خليل الله علي المتوفي عام ١٨٤٠ ميلادية كان له ولد يسمى (سردار محمد باقر خان) مما جعلنا نعتقد جازمين بأن إخواننا في مصياف والقدموس قد خلطوا بين أئمة الفرقتين وذلك لانقطاعهم عن الاتصال الرسمي بهم لبعد المسافة ولعدم توفر وسائل النقل في تلك الأيام .

وذلك ما يظهر واضحاً في بعض القصائد الدينية التي نظمت في مطلع هذا القرن والتي نلاحظ ان ناظميها بعد ان يذكروا الأئمة من عهد الامام علي بن أبي طالب (ع) حتى طاهر شاه الثالث يبدأون بذكر

بعض أئمة الفرع الثاني ثم يذكرون أسماء غريبة وغير معروفة . لذلك نرى ان الاعتماد على مثل هذه المنظومات كنصوص تاريخية صحيحة بعيد عن الواقع والحقيقة .

ولو ان الاستـاذ عارف تامر اعتمد عليها فاستخلص منهـا شجرة نسب ، وذكر التواريخ محدداً الولادة والوفاة بطريقة الاستنتاج الوهمي .

ومهما يكن الامر فأتباع هذه الفرقة لا يُعدون على أصابع اليـد الواحدة ، وهم في شك من أمرهم لا يعرفون الى أي فرع يتوجهون .

ألهمنا الله وإياهم سبل الهداية والرشاد إلى الطريق القويم .

الفصل الخامس

الحركة القرمطية

نشأتها، تنظيماتها، تعاليمها، علاقتها بالحركة الاسماعيلية

لا يستطيع الباحث المنقّب وهو يستعرض تاريخ الحركات الباطنية في الاسلام إلا أن يلتفت الى الحركة القرمطية الثورية الاشتراكية ، التي هزّت العالم الاسلامي هزات عنيفة ، ليلقي نظرة خاطفة على نشأتها وتنظيماتها وتعاليمها وعلاقتها بالحركات الباطنية الاسماعيلية والدور الرئيسي الذي لعبته هذه الحركة ، وذلك لأن هذه الحركات ذات الأصل الواحد والفروع المتعددة ، تستقي أفكارها وعقائدها المذهبية من معين واحد ، وتستظل بظل واحد ، وتسير بمخطط عقائدي واحد من حيث الأصل ، ومتفرع من حيث الفروع ، اذ ان تعاليم هذه الحركات ومبادئها تتطوّر وتتكيّف بحسب الأوضاع الداخلية ، والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي تترعرع فيها وتعمل بها ، لذلك كانت متشابهة متماثلة من حيث الاطار الخارجي والتكوين العقائدي المشترك ، أما من جهة السياسة فتختلف مواقفها باختلاف الظروف التي تعيش فيها .

ولكي نعطي القارىء فكرة صحيحة عن الحركة القرمطية بفروعها نستعرض وإياه الشواهد التاريخية ، والنصوص الخطية لنتلمس خيط الحقيقة الدقيق الذي يسرح خلال سطور هذه النصوص والمراجع .

تدل النصوص التاريخية التي اكتُشفت في السنوات الأخيرة على أن الحركة القرمطية استمدّت عقائدها ومبادئها وفلسفتها وتنظيماتها السرية

من الحركة الاسماعيلية . فالحركة القرمطية إذن تنطلق من الاسماعيلية ، وتذوب معها في انطلاقة واحدة ، وغاية مشتركة .

صحيح ان الدراسة الحديثة التي اعتمدت على تلك النصوص قـــد وصلت الى تحديد بعض ملامح الحركة القرمطية وعلاقتها بالحركة الاسماعيلية الام ، ولكن لا تزال ترتسم حول معظم النقاط الاساسية فيها علامات استفهام كبيرة تتـأرجح بين الشك واليقين ، بالاضافـة إلى بعض الآراء المتناقضة والأســاطير الوهمية التي دبجتهـا الأقلام وجـادت بها قرائح الكتّاب المعاصرين .

ونحن ، وقد أدركنا جسامة المهمة في توضيح العلاقة بين الحركتين ، اعتمدنا الروية المطلقة في البحث والتنقيب حتى تتكلّل مهمتنا بقسط وافر من الدقة ، وتأتي أقرب ما تكون من الحقيقة التي تكتنف هـذا الموضوع الشائك الذي لا يزال بين أخذ ورد ، ومد وجزر .

مهما كانت الفوارق السطحية ، والخلافات الفرعية ، التي قد تبدو مقنعة للبعض نرى من المفيد جـــداً ، ونحن في معرض الحديث عن القرامطة ، أن نعود قليلاً إلى الوراء لنلقي نظرة خاطفة على المصـــادر التاريخية التي تبحث في أصل التسمية القرمطية فنقول :

في صفحات المراجع التاريخية تفسيرات ، واستنتاجات عديدة لأصل هذه الكلمة . فيحدثنا المقريزي في كتابه : اتعاظ الحنفا ، ان الداعي الاسماعيلي حمدان بن الاشعث هو أول من لُقّب بهذا اللقب لأنه كان قصير القامة يقرمط في سيره إذا مشى ، وكانت خطواته متقاربة .

وقيل ايضاً : إنه كان في القرية التي وُجد فيها حمدان بن الاشعث رجل أحمر العينين يحمل على اثوار له يسمونه (كرميته) لحمرة عينيه

– ومعناه بالنبطية أحمر العين – فسُمي حمدان بن الأشعث بهذا الاسم لانه كان يسكن في بيت هذا الرجل ، ثم خفف اللفظ فصار قرمط .

وقيل معنى قرمط في الآرامية – المعلم السري – وقيل ان حمدان ابن الاشعث لقب بهذا اللقب لأنه كان أحمر البشرة تشبيهاً له بالقرميد وهو الطوب الاحمر – الآجر . وهناك من يزعم ان أصل هذا اللفظ مشتق من (**Ketamidi**) وهي كلمة يونانية .

ويرى ايفانوف ان كلمة قرمطة كانت مستعملة في جنوب العراق ، ومعناه الفلاح أو القروي ، فعربت الى قرامطة . ويرى البعض أن كلمة قرمط مأخوذة من (أقرمط) أي غضب وعبس ، وقيل ايضاً : إن أصل هذه اللفظة نبطي مشتق من (قرمطونا) ومعناها المدلس أو الخبيث ، أو المكار ، أو المحتال ؛ الى آخر ما هنالك من تفسيرات واستنتاجات نستطيع أن نعتبرها من الاساطير والخرافات التي نسجت حول الحركة الاسماعيلية

وباعتقادي ان هذا اللقب لم يتخذه اي داعٍ من دعاة الاسماعيلية الاول لنفسه ، او أن اتباعه من الاسماعيلية اتخذوه لانفسهم . بل نقولها ونحن مطمئنون ، بأن أعداءهم هم الذين اطلقوا عليهم هذه التسمية في العهود المبكرة من انتشار دعوتهم ، بالنظر لما ظهر من إقدامهم وشجاعتهم الخارقة ، واندفاعهم المستميت في سبيل تفجير طاقات الشعب الكامنة ، ولما قاموا به من نشاط علمي ، ومغامرات جريئة في العالم الاسلامي تهدف في كافة مراحلها إلى قلب نظام المجتمع السائد ، وتبديل الاوضاع السياسية الراهنة التي مجّها الشعب ، وإيجاد نظام اشتراكي مثالي ينهد الى المساواة والمحبة والإخاء بين كافة الطبقات ، معتمدين في بادىء الامر على الوسائل السلمية والدعاية الدينية عن طريق

الحجة والاقناع حتى اضطرهم خصومهم للخروج عليهم بالسلاح .

نحن لا نشك مطلقاً بأن القرامطة فرقة من الفرق الكثيرة التي خلفتها الحركة الاسماعيلية لا أثر للجدل في صحة نسبها الاسماعيلي ، ولا مجال للايهام في انها أسست على أسس من التعاليم والافكار والتنظيمات الاسماعيلية الدينية المحضة ، الغاية منها أن تكون قاعدة ينطلق منها دعاة الاسماعيليين الى مختلف أصقاع الدنيا .

وإذا عدنا الى قبل نصف قرن من ظهور القرامطة في البحرين نرى أن الامام الاسماعيلي المستور محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) هو صاحب اللبنة الاولى في بناء صرح الحركة الاسماعيلية السرية بصورة عامة ، والحركة القرمطية بصورة خاصة .

ففي منتصف القرن الثاني الهجري كانت حركة التأويل والتفسير ناشطة في جميع أرجاء العالم الاسلامي ، وكانت الاضطرابات الاقتصادية والتفكك الاجتماعي من أهم الاسباب التي دفعت سواد الشعب المسلم ومفكريه الى الانعطاف على التعاليم الاسلامية ، علهم يجدون فيها حلولاً جذرية سريعة تنقذهم من حمى الفوضى ، ومصائب البلبلة التي احدثها انحراف المسؤولين ، واتباعهم أهواءهم الشخصية وانقساماتهم حسب آرائهم وافكارهم الخاصة ، فتعددت بذلك الدعوات ، وكثرت المتناقضات ، وتشعبت الآراء ، فضاعت بذلك صرخة الحق ، وخبت شعلة الهدى ، وادعى أتباع كل دعوة انهم أصحاب الحق ، وأن سواهم هم الضالون .

في هذه الحالة العارمة بالفوضى ، سير الامام الاسماعيلي محمد بن اسماعيل وحجته عبد الله بن ميمون القداح – وهما في الاهواز – إلى

سواد الكوفة في العراق الداعي الحسين الاهوازي ، فبلغ سواد الكوفة واستطاع بما اوتيه من حجة بالغة في الاقنـاع ، وتفقه عميق لاصول التعاليم الاسلامية ان يضم اليه لفيفاً من المؤيدين لدعوته ، وكان أبرزهم حمدان بن الاشعث المعروف بقرمط الذي خلف معلمـه الاهوازي في إتمام رسالته والنهوض بأعباء الدعوة الاسماعيلية ، وبالفعل وفق بعد حين فاستطاع أن يضم اليه جميع منطقـة سواد الكوفة ، وأمر اتباعـه سنة ٢٧٦ هجريـة ، بشراء الاسلحة ، وأنشـاء اول دار للهجرة في السنة التالية .

ويحدّثنا النويري في كتابه نهاية الارب فيقول :

« ثم ان الدعاة اجتمعوا واتفقوا على أن يجعلوا لهم موضعاً ، يكون وطناً ودار هجرة يهاجرون اليها ويجتمعون بها ، فاختاروا من سـواد الكوفة .. قرية .. فحازوا اليها صخراً عظيمـاً ، وبنوا حولها سوراً منيعاً ، عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خنـدق عظيم ، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت ، وبنوا فيها البناء العظيم ، وانتقل اليها الرجال والنسـاء من كل مكان . وسميت دار الهجرة ، وذلك سنة سبع وسبعين ومائتين . فلم يبقَ حينئذٍ أحد إلا خافهم ، ولا بقي أحد يخافونه ، لقوتهم وتمكنهم في البلاد . . »

ومن استقراء التاريخ يتبين ان الدعوة الاسماعيليـة لاقت على يد حمدان بن الاشعث رواجاً عظيماً بين القبائل العربية ، وان حمدان سن نظاماً مالياً متقناً ، ونادى بالاشتراكية ، وأخذ (بالالفة) وأمر أن تجمع الاموال في موضع واحد ، وان يكون الجميع في اسرة واحدة ، لا يفضل احد صاحبه ولا اخاه في ملك يملكه ، وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال قريته ، من بقر وغنم

وحلي ومتاع وغيره .

وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع فقيراً بينهم ، ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ، وأخذ كل رجل منهم بالاجتهاد في صناعته والمكسب من جهده ، فيكون له الفضل في رتبته ، وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبي اجرة نظارته للطير ، واتوه بها ، فلم يتملك احد منهم إلا سيفه وسلاحه . وكان عبدان صهر حمدان بن الاشعث من أكبر مساعديه ودعاته ، وكان مشهوراً بعلمه وتمعّقه في أصول المذهب الاسماعيلي ، وقد أخذ عنه كبار دعاة الاسماعيلية والقرامطة كافة العلوم ، وحتى ان ابا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي مؤسس دولة القرامطة في البحرين ، وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال ، أي شمال غربي العراق وبادية السماوة وبعض بلاد الشام ، قد أخذوا الدعوة عنه .

وبهذه الاشتراكية التطبيقية استطاعوا ان يضموا كثيراً من الناس إلى صفوفهم ، وان يكونوا جماعة متحمسة لا فقير فيها ولا غني ، كما استطاعوا ان يعدوا العدة لنضال عنيف مع العباسيين ، بعد ان أشبعوا أوضاع دولتهم درساً وتمحيصاً على ضوء واقعها السياسي والاجتماعي والديني ، حيث رأوا انه لا بد للقضاء على نظمها الفاسدة من بث الدعوة الاشتراكية التي خططوا لها ، ونشروها بين جميع الامم والطبقات والاديان المؤلفة منها الدولة العباسية ، كما انه لا بد من توحيد الصفوف ، وجمع الكلمة ، وإثارة الاحقاد الدفينة في نفوس الفرق الشيعية ، اتباع آل البيت ، الذين تعرّضوا لعسف وتنكيل العباسيين .

ومهما يكن من امر ، فقد تمكّن حمدان بن الاشعث ودعاته

الافذاذ ، من ان يبثوا روح التمرد والرجولة ، في سواد الكوفة وبين القبائل المجاورة للاعلان ، عما يتفاعل في أعماقهم من أفكار وبرامج ثورية .

ذكرنا ان زكرويه بن مهرويه كان من اكبر دعاة حمدان بن الاشعث ، وقد نشأ وترعرع في إحدى قرى سواد الكوفة حيث أخذ يدعو الى إمامة محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) . وبانقضاض حمدان وعبدان عن رئاسة الحركة الاسماعيلية في سلمية انضم زكرويه الى دعاة الاسماعيلية وساعدهم على التخلص من حمدان وقتل عبدان .

ذلك ما تؤكده المصادر والنصوص الاسماعيلية السرية السورية .

فأخذ قرامطة السواد والعباسيون يضيقون عليه الخناق ، فاختفى عن الانظار ، وبدأ يوجه دعوته في الخفاء ، فبعث ابناءه لنشر الدعوة الاسماعيلية في بني كلب على مقربة من الرقة ، وبالفعل نجح ابنه يحيى بن زكرويه في جذب طائفة من هؤلاء العرب اليه . وامتد نشاط هذا الفرع في شمال العراق الغربي ، وبادية السماوة ، وبعض مدن الشام ، واطلق على هذه الحركة : (حركة الجزيرة العراقية والشام) .

ويذكر الطبري بأن زكرويه قد أرسل اولاده الى الكلبيين فبايعوهم وخالطوهم ، وانتموا إلى علي بن أبي طالب (ع) ، وإلى محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وذكروا انهم خائفون من السلطان ، وانهم ملجؤون اليهم ، فقبلوهم على ذلك ، ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأي القرامطة . فلم يقبل ذلك أحد منهم ، أعني من الكلبيين ، إلا الفخذ المعروف ببني (العليص بن ضمضم بن عدي بن جانب) ومواليهم خاصة ، فبايعوا

آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ابن زكرويه المسمّى بيحيى ، والمكنى أبا القاسم ، ولقّبوه الشيخ ، على امر احتـال فيهم ولقب به نفسه . وزعم لهم انه ابو عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) .. وانحازت اليه جماعة من بني الأصبغ وأخلصوا له وتسموا بالفاطميين ، ودانوا بدينه .

ولم تلبث دعوة يحيى بن زكرويه الى الثورة ، في سبيل تحقيق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، حتى لاقت الاستجابة لدى كافة الذين اعتنقوا الأفكار الاسماعيلية في القرى والمدن والدساكر ، وخاصة بني كلاب وقشير وبني عقيل وبني العجلان وبني العليص ومواليهم ، وبعض سكان مدن شمال سورية فبايعوه وساروا في ركابه لفتح بلاد الشام ، وإعلان الثورة على الظلم والاستبداد والفساد . أما قبائل بني النضار وبني مالك وبني معرض وبني الصجين وبني البلوى وبني خداش وبني هذيل وبني زياد وبني عليم فقد ظلوا على إخلاصهم لقيادة الدعوة الاسماعيلية في سلمية ، ورفضوا دعم آل زكرويه في ثورتهم لاعتقادهم بأن الامام في سلمية غير راضٍ عن هذه الثورة .

ولما شعرت الخلافة العباسية بهذه الحركات والحشود القرمطية أمرت عاملها في سوريا شبل الديلمي فألف جيشاً جراراً سنة ٢٨٩ هـ . وهاجم الحشود القرمطية في موقع غربي الفرات ، ولكن القرامطة دحروا هذه القوة بعد أن قتلوا عدداً كبيراً منها .

ولقد دفع هذا الانتصار يحيى بن زكرويه الى التوجه نحو الشام يقتل كل من يعترض طريقه ويفتح القرى والبلدان حتى وصل الى أطراف دمشق ، وكان عليها « طغج بن جف » والياً من قبل « هرون بن

خمارويه بن أحمد بن طولون ، فخرج اليهم وحـــاول ردهم ولكنهم هزموه وقتلوا العـديد من أصحابه ، وعنـدئذٍ التجأ إلى قلعـة دمشق فحاصروه وشددوا عليه الحصار مدة سبعة أشهر ، حتى وصلت النجدات الطولونية بقيادة بدر الكبير ، الذي أرسله هارون بن خمارويه فتمكن طغج في هذه الأثناء من الخروج وأصحابه وجنوده ، فانضم الى بــدر حيث شنوا هجوماً ساحقاً على القرامطة فقتل يحيى على أبواب دمشق وتفرّق شمل أتباعه بعد هزيمة منكرة .

ولكن هذه الهزيمة لم تثنِ القرامطة عن عزمهم في تحقيق مخططاتهم السرية ، فلم تمضِ فترة وجيزة حتى لمّوا صفوفهم المبعـثرة ، ونظّموا جيشهم من جديد في مناطق العشائر السورية على ضفتي الفرات وسلموا زعامتهم الى « الحسن بن زكرويه » وقيل إنه ادّعى كأخيـــه يحيى الانتساب الى محمـد بن اسماعيل (ع) وسمّى نفسه أحمـد ، وتكنّى بأبي العباس ، وعُرف بأبي مهزول .

ودعا الناس فأجابه أهـــل البوادي من تنوخ ، وبكر ، وتغلب ، وقضاعة ، والقبائل التي كانت تنزل ديار ربيعة ومضر ، واستنجد من بالبحرين من عقيل وتغلب ، وعبد القيس ، ممن كان استجلبهم أبو سعيد الجنابي الى الدعوة ، فخفوا لنجدته حتى تجمّع لديه خلق كثير ، فأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية ، وأطلق على نفسه اسم صاحب الشامة ، وسار بهذا الجمع الضخم والحشود الكبيرة الى المدن السورية حيث فتح الرقة وحلب وحماة وحمص . وفي الرقة خرجت اليهم جيوش مولى المكتفي العباسي سنة ٢٨٩ هـ . فواقعهم ، ولكنهم تجمعوا وتمكنوا من الاحاطة به وإفنائه واستباحته ، ومن هناك سار الى دمشق محاصراً وأمعن في أهلها تقتيلاً ، وفي أرضها تبشيراً ، حتى دخل في دعوتـــه أكثر من هم حول دمشق من سكان الغوطة ، وسيّر الدعاة الى منطقة

وادي التيم والبقاع في لبنان ، وخرج عليهم غلام طفج ، وظل يقاتلهم حتى قتل ، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه اليه . وتظاهر أهـــل حمص بما يبطنون ، وكتبوا الى أبي مهزول صاحب الشامة ، الحسين بن زكرويه ليأتي اليهم ، وقوبل بالحفاوة فيها ، وخطب له منابرها ، وضرب نقوداً ولقب بأمير المؤمنين .

وتذكر النصوص التاريخية ان الخليفة العباسي المكتفي لما علم بذلك أرسل أبا الأغر السلمي في عشرة آلاف محارب ، فسار حتى وصل إلى حلب ، وهناك التحم مع جيش القرامطة في موقع « وادي البطنان » ، فانهزم أبو الأغر ، ولكن القرامطة تبعوه وظلوا يقتلون من جيشه حتى جاءوا على عامته ، أما هو فاعتصم بقلعة حلب مع ألف من رجاله ، ولم يتمكن منه القرامطة في ذلك الوقت .

وبعد هذه المعارك الطاحنة التي خاض غمـــارها القرامطة ، وحققوا الانتصارات ، عاد الحسين بن زكرويه الى المعرة وحماة فخطب له على منابرها ، وأيده أهلوها ، ومنها توجّه إلى حمص ثانية ثم إلى بعلبك ، ثم عاد إلى سلمية فوقفت في وجهه وحمـــل أهلها السلاح بايعـــاز من العباسيين . فقتل أهلها وشردهم في العراء ولم يُبقِ على أحد من الأسر العباسية التي كانت تقطن سلمية لا كبيراً ولا صغـــيراً ، كما ان بعض أتباعه هاجموا مركز الامامة الاسماعيلية وقصر الامام عبيد الله المهدي بالذات وقتلوا كل من كان فيه من الجواري والعبيد ، لأن الامام كان قد غادر سلمية سراً قبل وصولهم متوجهاً إلى المغرب .

وحول هذه النقطة تتضارب أقوال الكتاب والمؤرّخين ، فمنهم من يزعم ان عملية مهاجمة قصر الامام عبيد الله المهدي والتظاهر بقتل كل من كان فيه لم تكن إلا تغطية لما فعلوه بالعباسيين ، وحتى يقال في

الاوساط انهم قتلوا الأسرتين الحاكمتين ، ولم يستثنوا احداً منهم .

ولكن المصادر الاسماعيلية السرية تؤكد بأن الامام عبيد الله المهدي عندما كان مقيماً في سلمية وردت اليه أخبار تحركات القرامطة بواسطة الحمام الزاجل ، فغادر سلمية قبل وصول القرامطة دون أن يترك في قصره أحداً إلا خادمه « حسن بن معاذ » ، وأخاه « أبا محمد » لمرضه ، وقد مات عشية وصول القرامطة الى سلمية ، أما أفراد اسرته فقد اصطحبهم معه إلى المغرب ، وكانوا يسيرون في عدة قوافل متباعدة ، وقيل ان الامام بعد ان وصل إلى المغرب بسلام ، أوفد حاجبه جعفر إلى سلمية لاخراج الأموال والجوهرات التي كانت مدفونة في حديقة القصر .

وتذهب النصوص الاسماعيلية الى ان الحسين بن زكرويه عندما وصل الى سلمية ولم يجد الامام عبيد الله المهدي ، أرسل أخاه علي الى الرملة ليقنع الامام بالرجوع إلى سلمية لاعلان الدولة الاسماعيلية المنشودة على أساس المبادىء والمخططات الاسماعيلية القديمة .

واعتماداً على هذه المصادر الاسماعيلية التي اكتشفت حديثاً نستطيع أن ننفي كل ما قيل بأن القرامطة قد بطشوا بكل من وجدوه في قصر الامام من أعمامه واقربائه وأفراد اسرته ، ولطخوا بدمائهم جدران القصر . ونعتبرها من جملة الخرافات التي رواها التاريخ عن القرامطة .

وليس معنى هذا ان القرامطة يتورعون عن سفك الدماء ، وبعثرة الأشلاء ، بل بالعكس لم يكن من أهدافهم القضاء على الأسرة التي زرعت فيهم المبادىء التي يناضلون من أجلها ، ويصارعون من أجل إيصال عميد هذه الاسرة إلى سدة الخلافة ، ليرعى لهم الدولة

الاشتراكية وينفّذ مخططاتها الاصلاحية .

وعلى العموم لا تزال العوامل والأسبـــاب التي دفعت القرامطة إلى مهاجمة قصر القيادة الاسماعيلية تعيش في طي الخفاء ، والتي نعتـبرها من الألغاز الصعبة الحل ، حتى تتوفر لنا وثائق ونصوص واضحة جلية تلقي شعاعاً من نور على هذه الناحية .

ولو فرضنا ان القرامطة بالفعل هدفوا الى استئصال عائلة الامام الذي يناضلون من اجل إيصاله الى حقوقه الشرعية ، فلماذا يفاوضونه للرجوع من أجل تأسيس الدولة المنشودة ؟

ولو فرضنا أن الوفد المفاوض تمكن من إقناع الامام عبيد الله المهدي بالعودة ، وعاد بالفعل ليجد أشلاء اسرته مبعثرة في كل مكان ، فماذا يكون موقفه من القتلة ؟

ومن المستبعد جداً أن يقوم القرامطة بحركاتهم وثوراتهم هذه بدون معرفة أو علم مركز قيادة الحركة الاسماعيلية في سلمية الذي كان يخطط لهم ويزودهم بالتعليمات والارشادات ، وباستطاعتنا أن نجزم بأن الحركات القرمطية التي قامت ما بين (٢٨٩ – ٢٩٤ هـ .) وما سبقها من سني الاستعداد والتهيوء إنما هي جزء من المخططات الاسماعيليـــة السرية التي كانت تعمل في سبيل الامام الاسماعيلي المستور .

ذلك ما توضحه الخطبة التي ألقاها يحيى بن زكرويه في حمص بعد أن احتلها سنة ٢٩٠ هـ . والتي يقول فيها :

« اللهم أهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت امـــير المؤمنين المهدي . اللهم املأ الأرض به عـدلاً وقسطاً ودمر أعداءه – اللهم دمر اعداءه » .

وباعتقادي ان الحركات القرمطية بمجموعها كانت منـذ بدايتها حتى نهايتها على اتصال وثيق بالأئمة المستورين في سلمية يتلقون منهم التعليمات والارشادات التي تهدف الى إقامة الدعوة باسم الامام الاسماعيلي المستور المنحدر من عقب محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) .

واستمرت حركة الحسين بن زكرويه مصدراً للقلق والانزعاج في بلاد الشام ، حتى أمر المكتفي العباسي بتأليف جيش كبير جاء إلى الرقـة ومنها إلى حلب وحمص وحماة ، وكان على رأسه « محمد بن سليمان » ، فالتقى بالقرامطة سنة ٢٩١ هـ . عند حماة ، واقتتلا قتالاً شديداً ، وفي نهاية النهار اندحر جيش القرامطـــة ، وتفرّق في كل مكان ، وهرب الحسين بن زكرويه مع عيسى ابن اخت مهرويه وغـــلام رومي آخر يرشدهم الى الطريق الذي يوصلهم إلى سواد الكوفة بعيداً عن المدن والقرى . ولما وصلوا إلى جهات الرحبة موقع « الدالية » نزل الحسين بالقرب منها ، وأرسل الغلام ليأتي له بالطعام ، ولكن اهالي المحلة ارتابوا بأمره فقبضوا عليه وساقوه الى الوالي ، حيث اعترف بوجـود الحسين ابن زكرويه في المحلة ، فأرسل الوالي جماعة مسلحة ، فأخذوهم وشهروهم ثم حملوهم الى المكتفي ببغداد حيث سجنهم مع من ارسلهم « محمد بن سليمان » من الأسرى . واخيراً قتلهم وكان عددهم ثلاثمائة وستين رجلاً بعد تعذيب مستمر ، وقد حملت رؤوسهم وصلبت في الساحات العامة ، أما جسد الحسين بن زكرويه فظلّ مصلوباً لمدة عام .

وبذلك تحوّل مركز نشاط قرامطة الشمال نحو الكوفة نفسها . وخرج زكرويه من مخبئه وأرسل أحد دعـــاته واسمه « محمد بن عبد الله بن سعيد » ويُكنى بأبي غانم الى بني كلاب يدعوهم الى إعلان الثورة المسلحة ، فاستجاب له خلق كثير ومنهم بنو الاصبغ وبنو العليص ، وغيرهم ، فسار بهم نحو الشام ، مستغـلاً فرصة غياب عامل المكتفي

« أحمد بن كيغلغ » واحتل بصرى وازرعـات في حوران ثم عاد إلى دمشق ، حيث خرج لقتاله صالح بن الفضل نائب أحمد بن كيغلغ ، ولكن زكرويه تمكن من القضاء على عسكره وأخـذه أسيراً وحاكمه ثم قتله .

ولما لم يتمكن من دخول دمشق لمقاومة اهلها سار الى طبريا . وفي هذه الفترة كان الخليفة العباسي قد أرسل في طلبه الحسين بن حمدان ، ولكنه لم يعثر عليه لأنه سلك طريق السماوة التي كان القرامطة قد غوروا وردموا كافة الآبار الموجودة في تلك الطريق . فعاد الحسين بن حمدان لعدم وجود الماء في طريقه ، ومال نحو رحبة مالك بن طوق . اما القرامطة فقد توجهوا باتجاه « هيت » فهاجموهـا سنة ٢٩٣ هـ . ونهبوا السفن التي كانت في الفرات وقتلوا خلقاً كثيراً ، فأرسل المكتفي العباسي « محمد بن اسحق بن كنداج » الى « هيت » بجيش آخر ، وأتبعه بمؤنس . ولكن القرامطة كانوا قد غوروا المـاء في القرى التي مرّوا فيها ، مما اضطر المكتفي الى إرسال المياه بالزوارق من بغداد ، وكتب الى ابن حمدان أن يفاجأهم من ناحية الرحبة .

وفي صفحات التاريخ آراء متضاربة متناقضة حول انكسار القرامطة ، فمنهم من يردّ الأسباب إلى الانشقاق الذي حصل بين صفوف زعمـاء القرامطة ، ومنهم من يزعم بأن الرشوة لعبت دوراً فعالاً في تفكيك وحدة القرامطة ، ومع ذلك فقد استطاع زكرويه بمساندة بني كلاب أن يوحّد الصفوف ويتوجه إلى الكوفة فدخلتهـا قواته ، ولكن الناس قذفوهم بالحجارة ، وقاوموهم بالسلاح . ومن ثم خرج اليهم اسحق بن عمران بجيش جرار فاقتتلوا قتالاً شديداً ، انصرف بعده باتجاه السواد ، ولكن المكتفي أرسل اليهم جيشاً آخر اوفر عدداً ، فتمكن القرامطة من القضاء عليه ، وأخذوا عدّته غنائم ، وبعد ذلك سـاروا الى

الحجيج يهددونهم ويغزونهم ، وتوجه جيش آخر إلى سوريا ، فأنفـذ المكتفي جيشاً كبيراً بقيادة « ابن حوار تكين » فأدرك القرامطة في ظاهر حمص ، حيث نشبت معركة طاحنة تمكن بعدها حوار تكين من السيطرة على الموقف ، فطرحت النار في قبة زكرويه ، ولكنه خرج من ظهرها قبل ان تدركه النار ، فأدركه احد الرجـال فضربه حتى سقط الى الأرض ، حيث تكاثرت عليه الجموع فكبّلوه بالحديد وساقوه الى بغداد فوصلها ميتاً سنة ٢٩٤ هـ . ولكن الخليفة أمر بتحنيط جثته والتشهير بها مدة طويلة .

ونتيجة هذه الضربة القاصمة التي ألمّت بقرامطة السواد ، اضمحـل نفوذهم ، وخفت صوتهم ، حتى حاول رجل منهم بعد فترة وجيزة ، جمع الأتباع وتنظيمهم والانطلاق بهم لمؤازرة بقية الفروع ، ويدعى « أبا حاتم الزطي » ولكنه قُتل . فقام رجل آخر من بني عجيـل يدعى « محمد بن قطبة » فشحذ سيوف اتباعه وسـار الى واسط ، ولكن المسؤول العباسي في تلك الناحية فرّق صفوفهم .

ومن الثابت تاريخياً ان قرامطة السواد بعد هذه الانكسارات المتوالية قد خفّت وطأتهم ، واضمحـل نفوذهم . ولكنهم بالرغم من كل هذا فقد تجاوبوا مع ثورة قرامطة البحرين بزعامة « الحريث بن مسعـود » الذي استطـاع ان يجمع حوله بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل . هذا بالاضافة الى الجموع القرمطية الأخرى بعين التمر ونواحيها بقيادة « عيسى بن موسى » الذي تمكن من مهاجمة الكوفة واحتـلال قسم من سورهـا ، بينما احتـلّ الحريث بن مسعود « الموفقيـة » ، وجعلهـا مركزاً لحركته ، وقاعـدة لانطلاق أتباعـه . ولما ازداد خطرهم سيّر المقتدر العباسي جيوشه ، فضربتهم ضربات قاضية قضت عليهم نهائياً .

وكذلك انتشرت الدعوة الاسماعيلية القرمطية في القطيف على يد الحسين بن بهرام الجنابي ، ويُكنى أبا سعيد الجنابي ، وقيل إنه فارسي الأصل أرسل من الأهواز لمؤازرة الدعاة الاسماعيلية الذين تسربوا من اليمن الى تلك الجهات .

وتذكر بعض المصادر والنصوص الاسماعيلية أنه ارسل من سلمية الى سواد الكوفة ، حيث تلقّى التدريبات النهائية على يد حمدان وعبدان ، وقيل أنه تزوج من عائلة في السواد تسمى « آل القصار » وكانت ممن استجاب الى الدعوة الاسماعيلية ، وكان اول من استجاب له وانضم الى صفوفه « آل سنبر » ، وهي من الأسر العربية العريقة في منطقة السواد .

ولا بدّ لنا هنا من الوقوف قليلاً لنستعرض آراء بعض المؤرخين الذين كتبوا عن قرامطة البحرين واعتبروهم حركة مستقلة عن الدعوة الاسماعيلية ؛ وبين يدينا استنتاجات وافتراضات وروايات متناقضة منها ما ذكره ابن حوقل فقال [1] :

« أنفذ حمدان قرمط أبا سعيد إلى البحرين وأمره بالدعوة بعد أن وقف على إخلاصه وحسن سياسته . فكان موحد الحركة هناك . وكانت هذه الحركة نفس حركة زكرويه في العراق التي أوكلها اليه عبدان صهر حمدان قرمط وصاحبه الأقرب . »

ويقول ابن الأثير [2] : « كان أول داعٍ في البحرين يحيى بن

---

(١) المسالك والممالك : طبعة دي خويه ليون ١٨٧٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٧ ص ٣٤٠ .

المهدي رسول الامـام ، وكان أبو سعيد من أهـل البحرين ، أحد من صبا اليه . »

ويذكر ابن رزام أن ابا سعيد أرسل داعياً الى البحرين ، وقد سبقه اليها رجل يدعى أبا زكريا الصهامي ، أنفذه اليها عبدان فقتله أبو سعيد [١] .

ويقول عبد الجبار [٢] : « أرسل الامام الى البحرين داعيـــاً فاتبعه قوم من أهلها منهم أبو سعيد ، فاضطر أبو سعيد ان يفرّ هو وصاحب له يدعى يحيى بن علي ، ولكنهما حشدا قوة كبيرة وعادا منتصرين . وكان ممن انضم إلى ابي سعيد حمدان وعبـدان ، وكان معه في البحرين الداعي يحيى الطهامي وقد قتله أخيراً وتولى الزعامة بنفسه وادعى انه ممثل الامام المهدي الذي وعد بظهوره عـام ٣١٠ هـ . وهو الامام محمد ابن عبد الله بن محمد بن الحنفية . »

ويذكر النوبختي ان القرامطة فرقة انفصلت عن المباركية [٣] . ونلاحظ أن الذين بحثوا في أمر قرامطة البحرين من المحدثين قد اعتمدوا على المصادر التي ذكرنا قسماً منها أعلاه فناقشوها وحللوها ، ومن ثم طلعوا علينـا بافتراضاتهم واستنتاجاتهم :

---

(١) Desacy, S. I. Intro. p. 214

(٢) كتاب تثبيت نبوة محمد (ص) ، مخطوط في اسطنبـول برقم ١٥٧٥ صفحة ١٤٤ .

(٣) فرق الشيعة صفحة ٥١ .

قال ايفانوف [١] : ظل اسم عبد الله واسم أبيــه ميمون القداح مقترنين بالقرامطة زمنــاً طويلاً . وافترض أنه إذا تأكدت العلاقة بين هذين الرجلـين وبين الاسماعيلية قـام الدليل على وحدة الحركتـين . وقد قبل الافتراض الأول ، وهو ان الرجلين من القرامطة ، ورفض وحدة الحركتين .

أما المستشرق البريطاني برنارد لويس فيــلاحظ أن ميمون القداح وابنه كانا — على العكس — من الرؤســاء البارزين للدعوة الاسماعيليـة الرئيسية ، ولم يبقَ ما يحتاج الى برهان إلا علاقتهما بقرامطة البحرين ، لأن جميع من أرّخ للقرامطة من قدماء المؤرخين ، عدا ابن رزام ، لا يذكرون اسميهما أبداً [٢] . اذن فالمسألة يجب ان تُطرح على وجه آخر وان نبحث على ضوء افتراضات جديدة ، اذ ليس لنا ان نبحث كما فعل دي خويه وماسنيون وايفانوف عن علاقة ميمون القداح بالاسماعيليــة ، لأن هذه العلاقة واضحة باعتبار أنه كان أحد مؤسسي الاسماعيلية ، بل يجب أن نبحث عن علاقة القرامطة بالحركة الاسماعيلية التي كان ميمون القداح أحد أقطابها . لذلك يجب أن نبدأ في بحث اصول القرامطة ، وكيف ابتدأت دعوتهم في البحرين ؟ ومن موجدها ؟ وعلى أي العقائد قامت ؟ وبعد ان يستعرض عدة روايات ويناقشها يستخلص الى القول :

« إن تناقض البيّنات يعود فيخلق مشكلة اخرى لا نجد لها حـلاً صحيحاً ، وان الكتب الاسماعيلية لا تعيننا في هذا الشـأن إلا قليلاً . ففي كتاب افتتاح الدعوة ، للقاضي النعمان ، عبارة موجزة تذكر بأن منصور

---

(١) A Guide to Ismaili Literature p. 12

(٢) B. Lewis : The Origines of Ismailism p. 168

اليمن وجه داعياً من صنعاء الى البحرين ، ثم لا يزيد عليها . ومما يجدر ذكره أن قرامطة البحرين لم يتخلوا زمناً مـــا عن الأئمة العلويين او الاسماعيليين .. علينا ان نتمهل برهة ونحن غير واثقين من أصل قرامطة البحرين أإسماعيلي هو أم حنفي ؟.. لدينا أسس قوية تدعو للاعتقاد بأن القرامطة قد دخلوا في القضية الفاطمية في عهد ما ، قــد يكون حوالي بداية القرن الرابع الهجري [1] .. »

كل هذه الروايات والمناقشات لم تعطِ الدليـــل الواضح للاثبات على أن الحركة القرمطية ذات أصل غير اسماعيلي ، وبنفس الوقت لا تنفي أصل القرامطة الاسماعيلي ، ذلك ما يجعلنا نعتقد بأن النصوص التاريخية لم تدرس الدراسة الكافية ، وخاصة الوثائق الاسماعيليــــة التي ظهرت حديثـــاً ، ولو ان هؤلاء الكتـــاب والمؤرخين درسوا بعمق وروية مـــا رواه المؤرخ ابن الأثير بقوله [2] :

« وفي سنة ٢٨١ هـ . سار الى القطيف رجل من كبار دعاة الاسماعيلية يدعى يحيى بن المهدي ، وادعى انه رسول المهدي من بيت علي بن أبي طالب (ع) . فأجاب دعوته أهل هذه المدينة وسائر بلاد البحرين ، ولم يلبث يحيى هـــذا أن غاب عن الناس مدة ، عاد يحمـــل كتاباً من الامام المهدي الى اتباعه يأمرهم بأن يدفع كل منهم الى يحيى خمس أموالهم ففعلوا . » لتبين لهم بوضوح أن أهالي القطيف وبلاد البحرين قد استجابوا

---

(١) The Origines of Ismailism by : B. Lewis p. 172

(٢) ابن الاثير الكامل : جـ ٧ ص ١٧٥ .

للدعوة الاسماعيلية منذ وقت مبكر ، فلو لم يكن ذلك لما أوفد الامام الاسماعيلي المهدي وهو في سلمية أحد كبار دعاته « يحيى بن المهدي » الى القطيف لدراسة احوال الاتباع وللاتصال بآل الجنابي ، وبعد أن توضّحت له الأمور عاد الى مركز الدعوة الرئيسي ، حيث قدّم تقريره ، ولما وثق الامام المهدي بأن الدعوة بلغت الحد الذي يخوله مطالبة الاتباع بوجوب تأدية الخمس ، الذي يعتبر فرضاً واجباً على كل اسماعيلي تأدينه للامام ، كتب كتابه المنوّه عنه في رواية ابن الاثير ، وارسله مع يحيى المذكور .

فهل بعد هذه البيّنة تريدون بيّنة اخرى تثبت مدى علاقة قرامطة البحرين بالاسماعيلية ؟ اليكم اذن هذا النص السري ، الذي عثرنا عليه مؤخراً :

« كان مولانا عليه السلام ، قبل أن يقرر ترك سلمية عقد اجتماعاً لكبار حججه وحدوده وأبوابه ، وأمرهم أن يختاروا عدداً من النقباء النجباء المعروفين بالاخلاص التام ، والمشهود لهم بقوة الحجة والاحتمال ، ليرسلهم لتفقد أحوال الجماعات في اليمن ، ومصر ، والبحرين ، وسجلماسة ، وتلك البلاد البعيدة ، فوقع الاختيار على ثلاثة من الدعاة الكبار ، المشهود لهم بالاستبصار : سيدنا وسندنا يحيى بن علي ، الى بلاد الشرق ؛ وسيدنا فيروز بن حسن ، الى بلاد مصر واليمن ؛ وسيدنا عبد الله بن محمد ، الى بلاد الغرب . وبعد سفرتهم الميمونة وصلت الأخبار ، ان الأحوال على ما يرام ، والدعوة لمولانا ماشية بانتظام ، فارتاحت الافكار ، واستبشرنا بزوال حكم الكفار ، وإخوانهم من الشياطين والأشرار ، والويل ثم الويل لمن خالف مولانا

القهار ، لذكره السجود ، وعلى جدّه الصلاة والسلام [1] .. »

فيا أيها الباحثون والمنقبون مـاذا تقولون بهذا النص ؟ هل لديكم استنتاجات جديدة ؟ وافتراضات اسطورية ، بعد كل هـذا ؟ إننا لمنتظرون .

ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع الجنابي أن ينشر دعوته بقسوة واندفاع ، فالتف حوله جماعة من الأعراب والنبطيين الذين تفانوا في شدّ إزره ومعاضدته ، فاستفحل أمره وقويت شوكته ، فهابه الناس وأجابه الكثير منهم ، وفرّ منه خلق كثـير إلى بلدان شتى ، وأغار أبو سعيد على مدينة هجر التي كانت عاصمة البحرين ، ومركز التجار والأغنياء ، فنازلها شهوراً عديدة يقاتل أهلها ، وبعد أن عجز عن فتحها وقهرها ، تحوّل منها الى الاحساء ، فاقتحمها ، واتخذها عاصمة لدولته الجديدة ، ومنها أخذ يوجه ضرباته الصاعقـة الى خصومه ، فاستطاع في فترة وجيزة ان يبسط نفوذه في الجزيرة العربية ، مما جعل القبائل البدوية تتسابق الى كسب وده ، والانخراط في تعداد جيشه ، فجندهم لغزو بني عقيل ، فظفر بهم وادخلهم تحت طاعته ، كما انـه وجه ضربة قاضية إلى « بني ضبّه » فظفر بهم وأخذ منهم خلقاً كثيراً . ولما تحقق له هذا النصر الكبير جمع أتباعه وجيشه وصنع الدبابات على البقر والجمال ، وتوجّه لاحتلال هجر التي كانت محاصرة فلم يتمكن من اختراق اسوارها ، ولم تدخل المدينة في طاعته حتى قطع عنهـا الماء ، فخرج سكانها الى استقباله ، وفرّ آخرون منهم بالبحر ، وقتل

---

(١) الازهار مخطوط اسماعيلي سوري ورقة ١٧ — ١٨ .

منهم خلقاً كثيراً ، ومن هجر انطلق الى عمان ، ففتحها وأدخلهـــا تحت طاعته .

ولقد اتخذ الاحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي استطاعت ان تبسط نفوذها في الجزيرة العربية ، وتقيم حكومة ملكية وراثية في بيت الجنابي يعاونها مجلس شورى من ١٢ عضواً ، وضع لها القوانين والأنظمة ، وأوجد لها نظاماً حربياً وجيشاً قوياً ، ممـــا أثار مخاوف الخليفة العباسي المعتضد ، فأرسل العباس بن عمر سنة ٢٨٩ هـ . في ألفي رجل وولاه البحرين ، فالتقى بالجنابي ، وبعد معركة ضارية وقع العباس في الأسر مع سبعمائة من رجاله ، فقتلهم الجنابي حرقاً ، واخذ العباس وباقي القواد الى الصحراء ، فتركهم فيها . وقيل ان أكثرهم مـــات عطشاً ، وورد بعضهم البصرة فارتاع الناس وبدأ اهل البصرة يرحلون عنها خوفاً وهلعاً ، وكان الحسين قد أخذ من عسكر العباس خادمـــاً جعله على طعامه وشرابه ، فدخل عليه في أحد الأيام ، وهو في الحمام وخنقه ، وقيل : وُجد الجنابي مذبوحـــاً في الحمام بيد احد خدمه سنة ٣٠١ هجرية .

ولما تولى ابنه سعيد (٣٠١ – ٣٠٥ هـ .) الملك ، سار على سياسة جديدة تنطوي على التقرب من العباسيين والتباعد عن الفاطميين ، لذا قرر الخليفة الفاطمي في المغرب خلعه وتولية اخيه أبي طاهر سنة ٣٠٥ هـ . الذي أخذ على عاتقه تنفيذ سياسة الفاطميين التي ترمي إلى القضاء على العباسيين . لذا نرى أبا طاهر يوجه حملاته الارهابية إلى العباسيين في الوقت الذي كانت تغزو فيه جيوش الفاطميين مصر

ولقد حاول سنة ٣٠٧ هـ . الاتصال بجيوش الفاطميين في مصر ، بزعامة قائده أبي القاسم بن عبد الله المهدي ، ولكن مؤنس الخادم قائد

الخليفة العباسي المقتدر حال دون تحقيق ذلك الاتصال ، فعمد القرامطة الى شن غاراتهم البحرية على جنوب غربي بلاد فارس ، في نفس اللحظة التي كانت تتوجه فيها الجيوش الفاطمية لغزو مصر سنة ٣٢١ هـ . وذلك بقصد إشغال الجيوش العباسية ليتيحوا الفرصة للفاطميين للاستيلاء على مصر .

وفي سنة ٣١٧ هـ . هاجم القرامطة مكة ، ونهبوا الكعبة ، واقتلعوا الحجر الأسود ، ولما بلغ ذلك الامام الاسماعيلي والخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي كتب الى أبي طاهر ينكر ذلك عليه ويلومه ويقول : « حققت على شيعتنا ، ودعاة دولتنا ، اسم الكفر ، والالحاد ، بما فعلت » . وأمره أن يعيد الحجر الأسود الى موضعه ، فأعاده .

من الملاحظ أن أبا طاهر كان حائزاً على ثقة الفاطميين ومتمتعاً برضاهم ، لأنه كان يتلقّى أوامرهم وإرشاداتهم فينفذها بدقة متناهية ، وظلّ على إخلاصه لهم حتى وفاته سنة ٣٣١ هـ .

ولما توفي أبو طاهر - سليمان بن الحسين الجنابي - وكان أولاده صغاراً لا يصلحون للحكم أقرّ الخليفة الفاطمي القائم أخاه أحمد في رئاسة الدعوة والدولة ، وولى ابن اخيه سابور العهد من بعده . ولكن أحمد لم يكن راضياً عن هذا التعيين لأنه كان يؤثر ابنه الحسن الأعصم على ابن أخيه سابور لذلك دب النزاع بين عائلة أبي طاهر ، وعائلة أخيه أحمد ، وانتهى الأمر بقتل سابور سنة ٣٥٨ هـ . وتولية الحسن الأعصم عهد ابيه أحمد ، ونفي انصار سابور الى جزيرة أوال .

يستدل من مجريات الحوادث ان قتل سابور ونفي مؤيديه وأتباعه قد أغضب الامام الاسماعيلي ، الذي كان قد عيّنه ولياً للعهد بعد

عمه أحمد ، واعتبر قتله خروجاً على طاعته ، مما أدّى بالتالي إلى انقسام القرامطة الى فريقين : فريق ظـل على إخلاصه للفاطميين ويتزعمه بيت أبي طاهر ، ومعهم كبار القرامطة ويسمون « العقدانية » أي أصحاب العقيدة ، والفريق الآخر بزعامة بيت أحمـد بن أبي سعيد وعلى رأسهم الحسن الأعصم ، خرج على الفاطميين وأعلن تأييده للعباسيين . وخطة هؤلاء الاستقلال التام ، والتمهيد لقيام دولة مستقـلة على أساس ثوري اشتراكي .

ولقد استغلت الدولة العباسية هذا الانقسام فقامت بدورها الكامل في سبيل التخلص من جميع القرامطـة على السواء ، فشدّوا ازر بيت أحمد وانتصروا له على العقدانية ، فاندلعت بينهما نيران الحروب الداخلية التي استمرت فترة طويلة ، وكانت من الأسبـاب الرئيسية التي عجلت بنهاية الحركة الثورية القرمطية .

والجدير بالذكر أن الحسن الأعصم اتخذ من استيـلاء الفاطميين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨ هـ . ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة من قبل ، ومقدارها ثلثمائة الف دينار كل سنة ، فرصة للانتقام من الفاطميين ، فسار الى بلاد الشام ، بقصد الاستيلاء عليها ، وإجبار الفاطميين على دفع الجزية بالقوة .

وحاول الحسن الأعصم أن يعقد حلفاً مع الخليفة العباسي المطيع ، ولكن الخليفة رفض هذا وقال : « كلهم قرامطـة وعلى دين واحد : فأما المصريون ، فأماتوا السنن ، وقتلوا العلماء ؛ وأما هؤلاء فقتـلوا الحاج ، وقلعوا الحجر الأسود » .

فعمد الحسن الأعصم إلى التقرّب من البويهيين ، الذين مدّوا له يد

المساعدة بالأموال والرجال والعتاد ، فسار إلى الشـــام ، واشتبك مع جعفر بن فلاح في ناحية الدكا على نهر يزيد بمقربة من دمشق ، فقتـــل جعفر بن فلاح في ٦ ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ . واستولى الحسن الأعصم على دمشق ، ومنها زحف باتجاه الرملة ، وكان عليها « سعادة بن حيان » القائد الفاطمي ، ففر الى يافا ، ولكن الأعصم تتبعه وحاصره ، وترك عليها أبا المنجاء وظالم بن موهوب العقيلي ، ثم تابع زحفه باتجاه مصر . فاستولى على الفرما في محرم سنة ٣٦١ هـ ، وأمعن السير داخل البلاد ، حتى وصل إلى عين شمس حيث عسكر بجنـــده ، وأخذ يهدد مدينة القاهرة .

ولكن جوهر الصقلي ، القائد الفاطمي ، لم يقف منه مكتوف اليدين بل عمد إلى تحصين المدينة فحفر خندقاً كبيراً حول القاهرة وأعدّ العدة للحيلولة دون وصوله .

ومن ثم التحم مع القرامطة على باب القاهرة ، في معركة طاحنـــة دامت أربعة أيام ، أسفرت عن اندحار القرامطة ، فولى الحسن الاعصم الادبار تحت جنح الظلام عن طريق القلزم .

وبعد أن استرد جوهر مدينة الفرما ، وتنيس في شمالي الدلتا وعفا عن أهلها الذين كانوا قد انضموا الى القرامطة ، زحف باتجاه فلسطين حيث استطاع أن يفك الحصار عن يافـــا ويرغم القرامطة على الفرار باتجاه دمشق .

وبعد هذه الهزيمة المنكرة التي حلّت بالقرامطة عاد الحسن الاعصم الى دمشق وأخذ يعدّ العدة لغزو مصر من جديد ، ولكنه اضطر إلى العودة الى الاحساد لاخماد ثورة أنصار أبي طاهر .

وبعد أن تمّ له ذلك جهز حملة ثانية للهجوم على مصر ، قوامهـــا الأعراب ورجال القبائــل ، الذين استطـــاع استمالتهم الى جانبه بالمال والسلاح وزحف باتجاه مصر .

وفي أواخر سنة ٣٦٢ هـ . وصــل الامام المعز الخليفة الفاطمي إلى مصر ، واتخذ القاهرة عاصمة له . ولما علم بما ينويه الحسن الأعصم ، كتب له كتابـاً طويلاً يهدّده فيه ويتوعــده ، ويعرض عليــه في نهاية الكتاب أن يختار لنفسه احدى ثلاث خصال ، وإلا اصبح الحـكم بينهما للسيف وحده :

« ونحن عارضون ثلاث خصال ، والرابعـة أردى وأشقى لبالك . وما احسبك تحصل إلا عليها ، فاختر : امـا قدمت نفسك بجعفر بن فلاح واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان ، ورد جميـع ما كان لهم من رجال وكراع ومتـاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير وهي اسهل ما يرد عليك ، واما ان تردهم احياء في صورهم واعيانهم واموالهم واحوالهم ، ولا سبيل الى ذلك ولا اقتدار . واما سرت بمن معك بغير ذمام ولا امان ، فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، واجريكم على إحدى ثلاث : اما قصاص ، وإمامنا بعد ، وإما فداء ، فعسى ان يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك ، وإن ابيت الا فعل اللامين ، فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين .. »

وكان رد الحسين الأعصم ، ان ظهر ثانية في عين شمس ، في ربيع الثاني سنة ٣٦٣ هـ . فاستمرت الحرب بين الفريقين ، وبعد قتال مرير انفرط عقد القرامطة فولوا الادبار نحو دمشق ، ولكن الجيوش الفاطمية المنتصرة سدت عليهم الطرق والمسالك ، فاضطروا إلى الهرب

عائدين إلى البحرين .

وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز عاد الحسن الاعصم الى دمشق ، وتحالف مع افتكين ، وتوجها بجيوشها الى الرمـــلة حيث تقابلا مع جيوش العزيز الفاطمي ، التي كان يقودهـــا بنفسه في موقعة (نهر الطواحين) ، واسفرت تلك المعركة عن هزيمة شنعاء ، حلّت بالقرامطة وافتكين .

ومن الملاحظ ان تلك الحروب احدثت في صفوف القرامطة التفكك والفرقة ، فثار آل طاهر على آل الحسن الاعصم واضطروهم الى الهجرة ، بينما أعلنت البقية الباقيـــة من القرامطة الولاء والعودة الى الحركة الاسماعيلية ، ومحاربة العباسيين .

وتدل الوقائع التاريخية على ان القرامطة فيما بعد استمروا على ولائهم للاسماعيلية الى ان زالت دولتهم من جزيرة اوال سنة ٤٥٩ هـ . ومن البحرين سنة ٤٧٠ هـ .

يتبين مما تقدّم ان القرامطة هم اسماعيليون في بدء حركتهم قلباً وقالباً ، ولكن الأحداث المضطربة التي اجتاحت ارجاء الدولة الاسلامية في ذلك الحين احدثت بعض العوامل الجذرية التي تسببت بوجود بعض الشقاق والانكماش لدى القرامطة ، الذين تمنتوا حول تنفيـــذ بعض النظريات الاسماعيليـــة التي كانوا قد رضعوا لبانها عن كبار دعاتهم الاوّل ، ورفضوا ان يقتنعوا بأن تلك النظريات والمعتقدات تتطور مع تطور العصر ، وتظهر بمظهر جديد لا يؤثر على جوهرها ، بل يبقى هذا الجوهر سليماً خالياً من الشوائب .

فمن الطبيعي ان يختط الامام الاسماعيلي ومجـــالس دعاته العليا ،

سياسة عليا للدعوة الاسماعيلية ، ويضع منهاجاً مفصلاً للترتيبـات التي تكفل قيام المجتمع الاسماعيلي الكامل ، الذي تتوفر فيه جميع التشريعات الاسلامية الحقة ، التي تتلاءم مع جوهر الدين وصلب العقيدة .

ولم يكن للقرامطة سبيل إلى الاطلاع على هذه السياسة العليـا ، والوقوف على مجمل اهداف الحركة الاسماعيلية وغايتها ، لأن الأئمة الاسماعيليين في ذلك الوقت ، كانوا يعتمدون على الكتمان الشديد ، والسرية التامة ، والتقية المطلقة ، خوفاً من بطش العباسيين وتنكيلهم ، وحرصاً على سلامة اتباعهم

وباعتقادي ان المعضلة الرئيسية التي حملت في طيّاتها بذور الفرقة بين الاسماعيليين والقرامطة هي مرحلة التستر عينها ، التي حالت دون استمرار التماس بين الفئتين ، واطلاعها على الأهداف العليا ، والتخطيط المرحلي العام .

فالامام الاسماعيلي ، كما يُستدَل من الوثائق والنصوص السرية ، كان مُحاطاً بأسوار كثيفة من التقية التامة ، يعيش بمعزل الا عن المقربيـن المخلصين له ، وكبار الدعاة والحجج والأبواب ، الذين اعتمدهم واسطة العقد بينه وبين اتباعه . لهذا لم يتسنّ لجميع الأتبـاع ان يقفوا على اخبار إمامهم ، ولا على محل اقامته بالضبط ، حرصاً على سلامته ، فاتخذوا من الدعاة قـدوة ، واعتبروا تعاليمهم صحيحة ، لا تغيير فيها ، طالما تحظى بتأييـد الإمام الذي تروج باسمه الدعوة وإقراره .

ولكن الإمام الاسماعيلي عبيد الله المهدي يعلن بصراحة ووضوح ان دور الستر والتقية قد انتهى ، بعد ان بلغت الحركة مرحلة النضج ،

وانطلقت تفعل وتبني وتؤسس الدولة الاسماعيلية المنشودة التي بشر بها الدعاة طوال هذه المدة ، اي مــــدة دور الستر بكامله ، الذي بدأ باسماعيل بن جعفر الصادق (ع) ، وانتهى بظهور عبيد الله المهدي في المغرب .

وما ان تناهى للقرامطة ان إمامهم هو عبيــــد الله المهدي ، حتى التبس على بعض كبار دعاتهم الأمر ، لأنهم كانوا لا يزالون يدينون بالولاء والطاعة للامام محمد بن اسماعيل (ع) الذي بذر بذور الدعوة بينهم واعتبروه المهدي المنتظر ، يدون ان يدور في خلدهم بأن من اصول العقيدة الاسماعيلية ان يتعرّض جسد الامام لما تتعرّض اليه بقية الاجساد البشرية من موت وفناء .

ولم تفلح الحجج والبراهين التي اعتمدها الدعاة في اقناعهم بأن الإمام عبيد الله المهدي هو الامام الشرعي بموجب النص الذي اودعه الامام محمــد بن اسماعيل في عقبــه ، وسار هــذا النص في الأعقــاب حتى وصل اليه .

ويرجع هذا التعنت من بعض دعاة القرامطة لانقطاعهم في البادية ، ولعدم احتكاكهم الدائم مع مركز الدعوة الاسماعيلية في سلمية وتتبعهم تطورات هذه الدعوة ، فاعتبروا ان هذه التطورات خارجة عن مفهوم التعاليم الأولية التي لقنوها . فأحدث هذا الأمر لديهم شيئاً من الاضطراب العقائدي ، وبلبلة في الأفكار تجاه شرعية الامام عبيد الله المهدي ، حتى انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فاعتبروه مغتصباً للامامة من اصحاب الحق الشرعيين .

وثمة معضلة اخرى كانــ لها الأثر البارز في انحراف القرامطة عن

سير الحركة الاسماعيلية ، وهي انهم كانوا تواقين بعنف الى إمام مهدي مُنتظر يسارع الى انقاذهم من الفوضى الاقتصادية التي عصفت بهم ، ومن القلق النفسي الذي يسيطر على مشاعرهم ، فأصروا على الامام عبيد الله المهدي أن يباشر فوراً في إعلان دولة اسماعيلية في بلاد الشام ، يطبق فيها النظام الاشتراكي الذي تعلموه من دعاتهم الأوائل ، وكانوا قد أعدّوا أنفسهم لتقبله ، حيث شرع الجميع بوضع ممتلكاتهم في بيت للمال واحد ، وسنّوا بعضاً من التشريعات تحدد صلاحية الفرد ، وتبين حقوقه الاشتراكية ضمن المجموع ، وضمنوا حياة العاجز ، والعاطل ، والعامل ، والصانع ، والفلاح .

كما وان القرامطة باعتقادي قد أنكروا على الامام الاسماعيلي المرونة وسياسة الملاينة التي اعتمدها في كسب ود العناصر غير الاسماعيلية ، وتمسكوا في ان تكون الدولة الاسماعيلية قائمة بكافة اجهزتها ودعاماتها على الاسماعيليين دون سواهم ، وان تبقى وقفاً عليهم وحدهم .

كل هذه الأمور الجوهرية والسطحية بالاضافة الى بعض العوامل الشخصية ، احدثت شقة ولو صغيرة بين القرامطة والاسماعيلية ، وكانت من اسباب انعطاف القرامطة في منحى جديد ، ونهج آخر مغاير لروح التعاليم الاسماعيلية .

لكن التاريخ ، بالرغم من كل هذا ، لم يسجل اي عداء عقائدي صريح ، او خروج مكشوف عن الاصول والأحكام الروحية ، بل استمر القرامطة على ولائهم التقليدي العقائدي للامام الاسماعيلي ، وليس ادل على ذلك من مسارعتهم للحاق بالامام عبيد الله المهدي حتى الرملة في فلسطين محاولين اقناعه بالعدول عن الذهاب الى المغرب ، وتأسيس الدولة الاسماعيلية المنشودة في بلاد الشام بدلاً من المغرب .

كما يمكننا الاعتماد على استخدام الامام الفاطمي فيما بعد سلطته الروحية لدى القرامطة عندما أمرهم باعادة الحجر الأسود الى الكعبة الشريفة ، سبباً وجيهاً يوضح مدى تأثير الامام فيهم ، وعظيم مرتبته عندهم .

ومما لا جدال فيه ان الامام الاسماعيلي كان يشرف بنفسه على تعيين امراء القرامطة ورؤسائهم .

ونؤكد ايضاً ان الاختلافات والمنازعات كانت الوسيلة التي يمكن اعتمادها لاقامة المجتمع الاشتراكي الاسماعيلي الصحيح . كما انه يجدر بنا من خلال تتبعنا سير قادة القرامطة وزعمائهم ، أن لا نغفل المطامح الشخصية ، وحب الاستئثار بالسلطة لدى البعض منهم ، وتمردهم بعض الأحيان على أوامر الامام وعدم تنفيذ وصاياه بخصوص تعيينهم .

ونستطيع ان نعلل أسباب عدم ذوبان القرامطة في الدولة الاسماعيلية الفاطمية ، والوقوف كلياً بجانبها الى أن أجهزة الدولة الفاطمية اعتمدت مرونة سياسية في تصريف شؤون الدولة ، وجعلت نصب أعينها في المرحلة الأولى تثبيت اركان الدولة ، وكسب المناوئين لها الى صفوفها بالترغيب والليونة ، مما دفع الغلاة من الدعاة الى اعتبار سياسة اللين هذه انحرافاً عن النظرة الاسماعيلية العميقة ، ومخالفة صريحة للتعاليم الأولى التي تلقنها القرامطة ، والتي تحتم ان يكون الاسماعيليون كل الدولة ، وعليهم وحدهم تقع مهمة النهوض باعبائها ، وان الدولة الاسماعيلية يجب أن تصهر جميع أفرادها في بوتقة إسماعيلية خالصة .

وكان برأي القرامطة ان تستمر الحركة الاسماعيلية في كفاحها ونضالها ضد الخلافة العباسية دونما هوادة واستكانة ، حتى تستأصل

شأفة الفساد والفوضى ، وتقيم المجتمع الاشتراكي السليم الخالي من الشوائب والأدران .

وخلاصة القول ان القرامطة اسماعيليون ، بكل ما في الكلمة من معنى ، آمنوا بالعقيدة الاسماعيليـــة طريقاً للخلاص الى مجتمع مثالي صحيح ، عن طريق الثورة الجذرية العارمة ، غير أن أحداثاً عديدة متشابكة تجمعت كلها فأحدثت صدعاً في بنيان القرامطة ، وساقتهم الى التمسك بمواقف تتغاير مع السياسة العليا التي اعتمدها الخلفاء الفاطميون فزادوا في انحرافهم وتطرفوا في تصرفاتهم ، حتى ناصبوا أئمتهم العداء ووقفوا على النقيض من اصـــول منبتهم . ومن ثم تكشفت لهم سبل الهداية ، فتبينوا الأخطاء التي ارتكبها بعض القادة فيهم ، فانتظموا في سلك الدعوة الاسماعيلية من جديد ، واستمرّوا في نشاطهم وولائهم حتى زوال دولتهم .

ويجدر بنا قبل نهاية المطاف أن نعطي العـذر للقرامطة في نظرتهم هذه ، لقلة تمرسهم في أصول السياسة ، ولما لاقوه من ظلم واضطهاد ، ولما أصابهم من تفكك اقتصادي ، واجتماعي ، وديني ، إبان الخلافة العباسية .

وأما ما يعزون اليهم من الأقوال والأفعال ، مما لا يتفق مع الواقع والحقيقة بشيء ، فهم بالفعل براء مما نسب اليهم ، خذ مثالاً على ذلك ما ورد على لسان بعض المؤرخين قولهم :

« القرامطة ملحدون دهريون إباحيون يستحلون المحرّمات ، ويرتكبون اكبر الجرائم ، ويسوغون استعمال جميع الوسائل ان هي أدّت الى الغاية المنشودة » .

وذكروا أيضاً في معرض الحديث عنهم ، انهم أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات ، وحللوا شرب الخمر وجميع اللذات والموبقات .
ويؤكدون بان الغلام الذي ظهر منهم ، في البحرين والاحساء ، قد سنّ لاتباعه اللواط ، وأوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به .

فلو أضفنا هذه التهم الخطيرة ، والأقوال الفاجرة ، الى ما كانوا يعزونه الى الحركة الاسماعيلية من الترهات والسفاسف ، لوجدنا ان كل ما قيل ويُقال ، لا يتفق مع الواقع والحقيقة خصوصاً ما ذُكر حول آدابهم وأخلاقهم .

فالوقائع التاريخية تدل دلالة واضحة على انهم كانوا في طليعة المحافظين على سمعتهم الخلقية ، ومناقبهم الوجدانية ، الى درجة التعصب ، وذلك ما يتنافى مع العدمية الأدبية التي ألصقت بهم ، ومثل هذا يُقال في معتقداتهم وتعاليمهم الاجتماعية والسياسية .

وانني لاجزم مؤكداً بانه لا يمكن الفصل بين الحركة الاسماعيلية وبين الحركة القرمطية لأنهما انطلقتا من نقطة انطلاق واحدة .

الاشتراكية التطبيقية الاسماعيلية :

من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الأفكار الاسماعيلية بين الطبقات الفقيرة الكادحة ، كانت دينية بالدرجة الأولى ، ثم ذلك النظام الاشتراكي التطبيقي الذي خطط له ونفّذه دعاة الاسماعيلية الأولون عن عقيدة وإيمان ، في سواد الكوفة والبحرين . وقد بذلوا ما

بوسعهم للاستفادة من جميع طاقات المجتمع ، وصهرها في بوتقة الحركة الاسماعيلية .

بالفعل يُعتبر الاسماعيليون من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية ، وأخذوا عنها الأفكار والنظريات الاشتراكية وطبقوها في مجتمعهم على اسس فلسفية عميقة الجذور ، ذات أهداف مدروسة استمدت زخمها من واقع البيئة والمجتمع ، ومن تعاليم الأئمة المستمدّة مما جاء به القرآن الكريم ، ومما أخذوه عن جدهم رسول الله الهادي الأمين ﷺ .

يدلنا على ذلك النظام الاشتراكي التطبيقي الذي استورده دعاة سواد الكوفة والبحرين من قاعدة انطلاق الحركة الاسماعيلية في سلمية ، التي كانت تمور بالايمان المطلق ، وتصطخب بالمخططات الضخمة الهادفة إلى الحرية وسعادة الانسانية .

أجل كان كبار دعاة الاسماعيلية يناضلون بكل ما في أعماقهم من قوة وايمان ، بالرسالة الاشتراكية التي نذروا لها أنفسهم ، مخلصين مطمئنين من اللحظة الأولى التي آمنوا فيها بهذه الأفكار الخلاقة ، التي استقرّت في عقولهم فراحوا يبشرون بها ، ويشقون في سبيل تطبيقها ، بغية استصلاح الناس وخيرهم ، وفي سبيل المنفعة العامة ، ولمصلحة المجتمع العليا .

ان تلك الأفكار الحرّة التي بشّر بها الدعاة أثبتت للملأ وجود تضارب حاد بين مصالح الأفراد ، بين الغني والفقير ، وبين القوي بظلمه والضعيف بحرمانه ، وبين الغني واستغلاله وجشعه في جمع المال من عرق الكادح ومن دمه ، وكنزه لتبذيره في سبيل الشهوات ، واستبداد

الحكام بالضعفاء والفقراء معاً ، وظلم ذوي السلطان من خلفاء وامراء للمستضعفين من عباد الله ، وعبودية هؤلاء الأمراء والخلفاء للشهوات والأهواء ، واعتبارهم أموال الدولة - بيت مال المسلمين - ملكاً خاصاً لهم يسرفون في انفاقه وتبذيره على القصور وعلى اللذات ، بينما الجهل والجوع والعري والمرض يفتك بقسوة بالجماعات . فراحوا يطالبون بانصاف الفقراء والضعفاء من المقتدرين والأغنياء ، ويدعمون مطالبهم بالبراهين الدامغة ، والحجج المنطقية القوية التي تثبت بأن الطبقة المالكة ، احتفاظاً بثروتها وحرصاً على مصالحها ، قد لجأت الى قوتها الاقتصادية تنافح فيها عن وجودها ومكانتها ، ومن ثم اصبحت الملكية الشخصية أساساً للسلطة السياسية ، فاستأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع ، وحشدت قواتها المسلحة لفرض ارادتها على المجتمع ، وإنشاء نظام اجتماعي لصالح الطبقة الحاكمة ، وغدت الدولة سلاحاً في يدها تدعم فيه سيادتها ، وتفرض ارادتها على الطبقات المحكومة المستعبدة المسترقة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الملكية في تلك العهود التي عاشها الاسماعيليون قد لبثت ومن خلفها الارستوقراطية وملاك الأرض تستخدم الدولة ، وتجعلها أداة طيعة في يدها لتأييد سيادتها ونظمها الهادفة الى ارهاق القوى المنتجة ، واخضاعها لمشيئتها ، وأخذت طبقة أصحاب الأموال تنمو مع مرور الزمن ، وتناوىء الملكية والارستوقراطية ، وتنتزع زمام القوى الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، فلما اشتد ساعدها مالت على الملكية المضمحلة ، فقوّضت دعائمها ، وأبادت نظم الاقطاع ، واستولت على مقاليد الأمور ، واستأثرت كسابقتها بالسلطان السياسي والسيادة الاقتصادية ، واستخدمت قوى الدولة لفرض إرادتها على الطبقات العاملة .

لذلك كان النظام الاسماعيلي يرى بالنظام الرأسمالي القائم في المجتمع

نظام ايثار واستئثار ، وتحكم طبقة قليلة باغلبية محرومة ، فعاهدوا الله وانفسهم على محاربة هذا النظام وإفنائه بشتى الوسـائل ، ليشيدوا على أنقاضه نظامهم الاشتراكي التطبيقي .

ولم يكن هدف الحركة الاسماعيليـة مقاومة النظم الاسلاميـة ، ولا مقاومة العرب كأمة قائمة بذاتها ، بل محاربة النظـام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كانت ترزح تحته الطبقات السفـلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئـذ الدولة العباسيـة . ذلك النظـام المستند على اصحاب الأمـلاك ، ورؤساء الدين ، والجيوش المسخرة المأجورة ، وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ، ولا صراع مستمر بينها ، ولا ظالم ومظلوم ، ولا غني وفقير ، ولا سيد وعبد ، ولا كبير وصغير . بنظام مبني على العدل والمساواة والاخاء الحقيقي بين جميع المواطنين .

ومن مبادئهم التي نادوا بها نزع ملكية الأراضي الواسعة من أربابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين أو الدولة ، ليصار توزيعها مجاناً على الفلاحين المحتاجين اليها . ويدخل في ذلك الأبنية العامة والمصـانع ووسائل الانتاج باعتبار أن الاستبداد السياسي والأخلاقي والفكري الذي ساد الشعـوب في العصر الأخير للدولة العباسيـة أساسه نظام الملكية الفردية ؛ ومنح الحق لكل انسـان بلا تمييز في القومية او الجنس ، ان يستخدم كل وسائل الانتاج علمية كانت أم فنية ، وان ينتفع بجميع الأنظمة الاجتماعية ، وان يشارك في جميـع أعمال المجتمع .

ونضيف الى ذلك من مبادئهم ايضاً : المســاواة الفعلية بالحقوق والواجبات الاشتراكية في الممتلكات ، وتقليل التفاوت في الثروات ،

فمن كان منهم فقيراً أسعفوه ، ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان جائعاً أطعموه .

ولقد أخذت هذه الأفكار الثورية تنتشر كانتشار النار في الهشيم بين مختلف الأوساط ، مما أهاب بالخصوم الى تأويل هذه المطالب العادلة تأويلات لا تتفق مع غرض الاسماعيلية ، فراحوا يطلقون الاشاعات ، ويلفقون القصص والحكايات الخيالية ، ويختلقون الروايات لاثارة الرأي العام عليهم ، وأهل التعصب الديني والقومي .

فاذا قابلنا تلك الاتهامات بما جاء في الانظمة الاسماعيلية الاشتراكية وجدنا أن كثيراً بما نسبه اليهم الخصوم في الأعصر السالفة لا يتفق مع الحقيقة ، بل قد يكون عكس ما نسب اليهم هو الصحيح .

ولا بد لنا ونحن في هذا الصدد من تقديم بعض الأمثلة التي تعطينا الدليل الواضح على صحة ما نقول :

لقد فهم الخصوم معنى الحرية التي كان يطلبها الاسماعيلية للمرأة ومساواتها بالرجل في كافة الحقوق والواجبات فهماً عكسياً ، فخيّل اليهم أنهم يقولون بإباحة النساء ، باعتبار ان اعطاء المرأة كامل حقوقها ، يخالف لنظرتهم الى الامرأة في أعصر الجهل والانحطاط الأدبي ، كأنهم تناسوا ان الاسماعيلية يدينون بدين الاسلام ، وينفذون تعاليم وإرشادات إمامهم المنحدر من صلب الرسول ﷺ ، اولئك الأئمة الذين لم ينسب اليهم مطلقاً الفسق والخلاعة والتهتك .

ومن تلك الخرافات التي صنفوها قولهم بأن الاسماعيلية قالوا بشيوعية النساء وطبقوها ، ولهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، ويختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فاذا أطفئت الأنوار ، وقفت زوجة

رئيسهم على مرتبة عالية وهي عارية ، وقـد كشفت عن فرجها ، فيأخذ الرجـال يمرون أمامها ، وكل منهم يقبل فرجها وينتزع منـه شعرة وهو يقول مخاطباً الفرج : « يا حج مسعود منك خلقنا واليك نعود » ، ثم تختلط النسـاء بالرجال باعتبار ان النساء مشاعة بـين الناس ، أي أن المرأة الواحـدة تخص الآخر ، وامرأة هـذا الآخر تخص من يحب أن يأخذها ، وأطلقوا على هذه الليلة اسم (ليلة الامام – أو عيد البقبيشة » .

وقيل أيضاً أن أحد الدعاة قال :

« وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدّعي العقل ثم يكون له أخت او بنت حسناء ، وليست له زوجة في حسنها ، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي ، ولو عقل الجاهل لعلم انه احق بأخته وبنته من الأجنبي .. » .

هذه كانت أساليب الخصوم في الطعن بمبادىء الحركة الاسماعيليـة الأدبية ، فهل يمكن للعقـل البشري أن يصدّق او يتصوّر مثل هذه القصص الملفّقة الهادفة الى تجريدهم من المناقب الخلقية والمثل الأدبية ، فيأتون المنكرات والمحرمات ؟

فهذا ما لا نصدّقه ولا نعيره أي اهتمام ، لأن مـا تظهره أعمالهم وكتبهم وسلوكهم الاجتماعي والمناقبي ، وما نعرفه من تعاليمهم الدينيـة التي أخذوها عن أئمتهم ودعاتهم وحججهم ، وبنوا عليها آراءهم الاجتماعية تناقض وتنفي ما نُسج حولهم من أباطيل .

فهم في سلوكهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم من البشر ، أقرب الى النزهاة والنساك منهم الى الاباحية والخلاعة والمجون ، وإباحة نـكاح

البنات والأخوات ، وليس ما نادوا به عبارة عن إباحة الجماع . بل قصد به ان للمرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية ، فلها أن تختار من الرجال من أحبّت ، لا من أحب ساداتها أو اقاربها ، ولها ان تتصرف فيما تملك كما يوحيه اليها قلبها وعقلها ومصلحتها الشخصية متشحة بوشاح من الأخلاق والمناقب ضمن نطاق الاسرة الإسلامية . علماً بأن الأئمة كانوا يميلون الى التزوج بامرأة واحدة ، وانهم كانوا يدعون أتباعهم الى اتخاذ هذا النظام ، والدليل على ذلك ما قاله الامام المعز الفاطمي : حينما دعا رؤساء قبائل افريقيا الشمالية الى الزواج الفردي فقال :

« لأن بذلك تزيد سعادة الحياة ويحفظ نشاط الروح ، ولأننا في حاجة الى كل قواكم وعقولكم .. » .

وليست الأفكار التي بذر بذورها الاسماعيلية بين المسلمين وغير المسلمين سوى نتيجة حتمية لنظامهم الأساسي عن الدين ومكانه في تعاليمهم الفلسفية ، وما الدين الحقيقي في نظرهم إلا في إنماء القوى العقلية ، ثم السيرة الحسنة ، والحياة الأدبية الموافقة لمطالب العقل السليم .

أما مبادىء الاسماعيلية السياسية والاجتماعية فهي مرتبطة ارتباطاً متيناً بآرائهم الفلسفية والأدبية ، ونتيجة منطقية لها ، تقوم عليها وتسلط معها .

ومما لا شك فيه أن مبادئهم السياسية والمسائل الاجتماعية كانت تتكيّف وتتطوّر وفقاً لمتطلبات العصر وظروفه ، ولتطور قادة الحركة الاسماعيلية العقلي والأدبي ، فكانت تنمو مع الوقت الى أن أخذت صورة نهائية هي الصورة التي نعرفها اليوم .

من المعلوم والمفهوم أن مطالب الشيعة السياسية ، بصورة عامة ، والحركة الاسماعيلية بصورة خاصة ، كانت تهدف بالدرجة الأولى الى نزع الخلافة أو السلطة الزمنية من أيدي المغتصبين من أمويين وعباسيين وتسليمها الى آل البيت المتمثلين بالامام المعصوم ، أو المهدي المنتظر الذي ينشر العدل بين الناس ، ويشفي الأرض من أمراضها الاجتماعية ، ويحقق كثيراً من المبادىء والأفكار التي كان يبشر بها الدعاة والحجج .

أما المبادىء الاجتماعية فيمكن تلخيصها بما يلي :

١ – المساواة بين جميع طبقات المجتمع على أسس مستمدة من التعاليم الاسلامية ، والمبادىء الفلسفية العلمية .

٢ – مقاومة العصبية القومية والدفاع عن نظرية الإخاء الحقيقي بين جميع الناس على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم وأديانهم ، أي الاخاء المبني على مطالب العقل السليم .

٣ – إبطال ملكية الأراضي وتوزيعها على المحتاجين اليها مجاناً .

٤ – المساواة بين الجنسين في الحقوق والواجبات .

وقد رتبوا لهذه المبادىء نظاماً يتكفل لهم تحقيقها ، ويكون دستوراً يرجعون اليه عند الحاجة ، فكان من شروط هذا النظام في حالة تطبيقه الفعلي أن يؤدي كل إسماعيلي ضريبة عن ممتلكاته في مناسبات حددها هذا النظام تدفع عن طيبة خاطر ، حتى إذا عجز أحدهم عن تأديتها أداها عنه غيره .

وكانت هذه الأموال تجمع من قبل الدعاة وترسل إلى قاعدة الدعوة في سلمية ، حيث يشرف على انفاقها لجان عينها الامام لهذه الغاية من

كبار الدعاة المعروفين بالأمانة والنزاهة والاخلاص على المحتاجين ، حتى لا يبقى بينهم فقير .

أما حياة القرامطة الاجتماعية والفردية فكانت مبنية على نفس هذه الأسس الاشتراكية ، والمبادىء الفلسفية التي تلقّنوها عن كبار دعاتهم ، الذين استوردوها بدورهم من مقر الامامة الاسماعيلية في سلمية . وقد كان الامام يصرّ بالحاح على تطبيقها ، ليتسنى لهم خلق المجتمع المثالي المنشود ، القائم على دعائم اشتراكية ، ثورية ، صحيحة .

ويدلنا على ذلك النظرية الاشتراكية التطبيقية ، التي نفذها الداعي الاسماعيلي حمدان بن الأشعث في سواد الكوفة بين أتباعه ، وتقضي هذه النظرية باتباع نظام للضرائب المختلفة المندرجة التي تنتهي بوضع مالية جماعية بين يديه وتوزيعها توزيعاً عادلاً على جميع الافراد دون استثناء ، وبهذه السياسة الاشتراكية استطاع حمدان أن يكون جماعة متحمسة مستميتة ، ليس بينها فقير واحد .

كما تمكّن بفضل نظامه المالي الخاص ، أن يعدّ العدة لنضال طويل مع العباسيين ، فاشترى السلاح الكثير بالمال الذي جمعه من الانتاج ، وبنى داراً للهجرة ، أو عاصمة لدولته ، كانت تضاهي المدن الكبرى ، وأقام من الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع عنده أموال قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره ، وكان يكسو عاريهم ، وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، ولا يدع معوزاً بينهم ولا محتاجاً ولا ضعيفاً ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش والمكسب جهده ، فيكون له الفضل في رتبته . وجمعت المرأة كسبها من مغزلها ، والصبي اجرة نظارته للبساتين وللأغلال ، ولم يكن أحد منهم يملك إلا سيفه وسلاحه .

وبذلك توصل هـذا الداعي إلى تكوين جماعة متحدة في الشعور والآمال ، لا همّ لأحد منها إلا ان يحمل سلاحه للذود عن حياض جماعته ، وللدفاع عن نظامه الاشتراكي ، وحركته الاصلاحيـة التي التي ترمي إلى إيجاد عصر إصلاحي ، ورخاء شامل عام بالنسبة للمجتمع في العصر العباسي .

ولقد صادفت هذه الأفكار وخاصة بين الجماعات الفقيرة من النبطيين وبين فقراء السواد والأعراب نجاحاً منقطع النظير .

وفي دولة البحرين القرمطية الاسماعيلية كانت التدابير الاقتصـادية تخضع لنزعة إشتراكية متطرفة تهدف الى اصلاح البلاد وسعادة أهلها .

وكانت الخطوة الاولى التي خطوها في هذا المجال أن ألغـوا نظام الضرائب الـتي على الأرض ، ثم خفضـوا الرسوم المترتبة على العامـل والمزارع ، وأسـسوا مصرفاً زراعياً لتسليف الفلاحين واصحاب الحرف من عمال وصناع لتشجيعهم في أعمالهم ، ومنعت الدولة الربا حماية للناس من جشع المرابين ، واحتكرت التجارة الخارجية ، وفتحت سوقاً لها بالخارج ، ونظمت شؤون التصدير والاستيراد لمصلحة الشعب ، وضربت نقوداً من الرصاص لا تصرف خارج الدولة ، وذلك حتى لا تتسرّب الثروة العامة الى الخارج .

وبحثت الدولة القرمطية عن موارد تقوم باحتياجات الدولة بدون أن يشعر بها الشعب ، فوضعوا ضريبـة على المراكب التي كانت تمخر الخليج العربي ، ثم ضريبة على مقاطعة عُمان ، وعلى الحجاج ، وضريبة على صيادي اللؤلؤ في مياه البحرين والخليج العربي ، بالاضافـة إلى الغرامة التي كانت تدفعها مدن وقرى العراق والكوفة وبلاد الشام .

واستفادت الدولة القرمطية من الضريبة الدينية التي كان يدفعها كل فرد اسماعيلي عن طيب خاطر ، وهي خمس منتوجات أرضـه ، أو ارباح تجارته ، وهناك ضريبة دينية اخرى تعرف (بالفطرة) ، وهي درهم كان يؤديه كل بالغ وبالغة ، فاذا عجز أحدهم عن تأديتها أداها عنه غيره راضياً مسروراً . ومن ثم ضريبة (البلغة) التي كان يؤديها كل من يأكل من (غذاء اهل الجنة) الذي كان يوزع على مختلف المناطق من دار الدعوة في سلمية .

وللتدليل على مبلغ تحمس القرامطة لنظامهم هذا ان (دندان) تبرع بمليون دينار للدولة القرمطية ، وكان رجلا ثرياً عاش بجهات اصفهان واجتذبته الحركة الاسماعيلية الى صفوفها .

أما ابو سعيد الجنابي ، الزعيم القرمطي الكبير والداعي الثاني في البحرين ، فكان مثلاً أعلى لتنفيذ النظام الاشتراكي الاسماعيلي وتطبيقه في المجتمع القرمطي ، حيث وضع نظام مالية جماعيـة بين يديـه ، يقوم بتوزيعها على أتباعه ، بحيث لا يأخذ أحدهم إلا ما يعيّنـه له ، فقبض على ثمار البلد والمال والحنطة والشعير ، وأصلح الزراعة ، وأحدث الانشاءات ، وأنفق على الرعايا ، وسخّرهم لخدمـة الأمة ، وعيّن لهم نوع العمـل الذي يزاوله كل منهم ، وأصلح المزارع ، ونصب الامناء على الحقول ، وأقام العرفاء ، حتى أن الشـاة كانت تُذبح ويُسلّم اللحم الى العرفاء ليفرّقوه على من يُرسم لهم ، ويدفع الرأس والاكارع والبطن إلى العبيد والاماء ، ويجز الصوف والشعر من الغنم والماعز ويفرقه على من يغزله ، ثم يدفع إلى من ينسجه عبياً وأكسيـة وغرائر وجوالقات ، ثم تُفتل منه الحبال ويُسـلّم الجلد الى الدباغ ، فاذا خرج من الدباغ سُلّم الى خرازي القرب والروايا . وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفافاً عُمل منه ، ثم يُجمع كله الى خزائن الدولة

فكان ذلك دأبه لا يغفل عنه .

ومن يدرس تاريخ الحركة الاسماعيلية – القرمطية ، بدقة وتجرد ونزاهة ، يجد بأن كبار رجالات هذه الحركة ساروا مع التطور الفكري في تقدمه وارتقائه ، وبحثوا عن نظام عادل فعّال ينهض بالمجتمعات الاسلامية التي كانت ترزح تحت نير الظلم والاستبداد والفوضى الاجتماعية والخلقية ، فحشدوا جميع إمكاناتهم الدعاوية ، وفجّروا طاقاتهم الفكرية في سبيل تركيز دعائم الدولة والمجتمع المثالي السليم ، الخالي من الشوائب ، عن ايمان ويقين سرمديين .

ولقد نهج الحسين بن بهرام الجنابي القرمطي ، الذي كان مسؤولاً عن اقليم البحرين وما جاورها ، نهج من تقدّمه من الدعاة ، فعمل على تطبيق برامج ومخططات اشتراكية كبرى ، فقام بتوزيع الأرض على من يُحسن استثمارها بنفسه ، ومنع استخدام العبيد والاماء ، وشيّد المدارس لتعليم الأطفال ركوب الخيل ، والفروسية ، والقراءة ، والكتابة ؛ وكان يقبض بكلتا يديه على جميع الأموال ، ومنتوجات البلاد ، ليوزّعها بالتساوي على المواطنين ؛ واستولى على المواشي والحيوانات ، فعين لها رعاة على حساب الدولة ، ووزّع ألبانها وصوفها ، ولحمها على السكان بالتساوي ؛ وبذلك لم يبقَ غني ، ولا مُحتكر ، ولا فقير ، ولا عاطل ؛ وابتعد الفرد عن كل ما يربط روحه بالمادة .

وبذلك طبّق أسمى معنى من معاني الحياة ، واجمل قيمة من قيم البقاء ، وأكرم قدر تصبو اليه الانسانية ، لأن الاشتراكية الصحيحة التطبيقية تكفل للمواطن حياة شاملة ، وتهيىء للأقلية ما تهيئه للأكثرية وتسوي بين المجموع والأفراد ، وبين مختلف الألوان والأديان في

الحقوق والواجبات .

ومن هذا المنطلق وجدت أفكارهم الاساسية ، وتعاليمهم القائلة بأن الله وهب الناس جميع وسائل الحياة بسخاء ، لكي يقتسموها بالقسط حتى لا يكون لاحد أكثر من غيره ، لأن عدم المساواة هو نتيجة الاغتصاب ، وما الاغتصاب إلا محاولة بعض الناس إرضاء شهواتهم على حساب غيرهم ، مع ان الطبيعة والعدل يقتضيان ان لا يكون لأحد اراض او عقارات اكثر مما لغيره .

وعلى ذلك يجب عند اختلال هذه القاعدة ان يؤخذ من الغني المغتصب ما يزيد على صاحبه ، ويعطى المحتاجين ليعود الناس الى المساواة الأصلية .

والجدير بالملاحظة ان الامام الاسماعيلي كان يحرّم على الأتباع في جميع البلدان التي كانوا يقطنونها العداوة والبغض وإثارة الطبقات ، ويدعوهم الى المساواة معتبراً ان اصل البغض والاختلاف بين الناس هو التفاوت في الدرجات الاجتماعية .

والاسماعيلية ترى ان الاشتراكية الصحيحة لا تقفز الى المجتمع بمجرد أن ينادى عليها ، وإنما تأتي اليه على مهل ، وفي تؤدة ، لأنها حريصة على نفسها من الاندفاع نحو قوم اغراب عنها ، وغريبة عنهم ، مما قد يدفعهم ، ولو عن غير قصد ، إلى الاخلال بشروطها ، والعبث بأسسها وتحويل جمالها قبحاً ، وحسنها دمامة ، فتقعد ملومة محسورة على ما فعلته .

وتعتبر الاشتراكية الصحيحة اسلوباً تدريجياً ، ونهجاً تطورياً يقوى على مر الأيام ، وينمو ويترعرع بين الأمم والشعوب التي تمارسه ، حتى

يصير ذاتاً لهم يحفظونها بأعينهم ، ويفتدونها بأرواحهم

والاشتراكية بنظرهم لا تقوم ابداً على البطون الخاوية ، حيث يخضع المجتمع للاحتكار ، او في امة تنخر في مجتمعها البطالة وتكون عرضة للكوارث والأزمات .

فالنظام الاشتراكي الصحيح يحتاج الى نظام اقتصادي ينسجم معه ويؤيده ، ويوفر الأسباب التي تجعل منه قوة فعالة ، تحلّ الأزمات الاقتصادية ، وتنظم علاقات الافراد ببعضهم وبالدولة ، وتضع الحلول الناجمة للبطالة ، وتكفل الحريات والتأمينات الاجتماعية .

وليست الاشتراكية شيئاً جديداً بمعنى الاستحداث ، وإنما هي تعديل لنظم موجودة اصلاً بشكل يساير تطور الأزمان والمشاكل ، وتكفل للمجتمع السعادة ، والتحرر ، والنهوض في ظل العدالة ، والمساواة .

واخيراً لا بد من الاشارة بايجاز الى الأنظمة الاسماعيلية المعمول بها في عصرنا الحاضر ، باعتبارها استمراراً للنظام الديني والاجتماعي السابقين ، مع وجود التعديلات الجذرية التي فرضها التطور العلمي والاجتماعي العالمي ، ومن الطبيعي ان تنعكس آثار التقدم والتطور العلمي والاقتصادي والاجتماعي على المجتمع الاسماعيلي ، فتسير فيه في طريق التقدم والرقي والانسجام والتآلف .

وقد شذّب الامام الاسماعيلي (الآغا خان) جميع الظاهرات الاجتماعية السابقة ، حتى جاءت مسايرة لتقدم البلاد وتطورها نحو مجتمع سليم متآخٍ ، ووجه اهتمامه الكلي لتنظيم شؤون اتباعه ، وايجاد انجع السبل لتقوية مداركهم الثقافية والاقتصادية والعلمية ، فشرع في

تأسيس المجالس التعليمية والصحية والاجتماعية ، لأنه رأى بثاقب نظره أن لا فائدة من النظريات والآراء اذا لم تُدعم بالعمل والانتاج ، وان لا حياة لأمة اذا لم تعب من منهل الحضارة العذب ، وتسير مع عجلة الزمن بسرعة نحو التطور والرقي .

وكانت الناحية الهامة بنظره هي تنشئة الجيل الجديد ، وتدريبه على حمل المسؤوليات ، والشعور بالواجب ؛ فشجّع الفرق الرياضية والكشفية ، وروابط الطلبة ، وجمعيات رعاية الطفولة ؛ وأوجد أندية خاصة للصغار يتمرّنون فيها على سلوك انجع الطرق الكفيلة بنجاحهم واسعادهم ، ووجّههم توجيهاً علمياً صحيحاً ، ودعاهم لتعاطي أساليب التجارة الحديثة ، وطرق أبواب الاقتصاديات بأنواعها ، وأسس البنوك والمصارف الصناعية والزراعية والتجارية ، وخصص لها المبالغ الطائلة . ووضع دستوراً خاصاً للاسماعيلية ، وتنظيمات جديدة مستقاة من أحدث التنظيمات العالمية .

وقد كان لإرشاداته الحكيمة ، وآرائه القيّمة ، الفضل في بعث الاسماعيلية قوية متماسكة الأطراف ، مليمة الأوصال ، فاحتل في نفوسهم مكاناً بارزاً .

وقد حرص الإمام الاسماعيلي - الآغا خان - على ان يكون لكل فرد من أتباعه منزل خاص به .

وعلى العموم فقد بلغت الاسماعيلية اليوم درجة من الثراء والثقافة والتقدّم الاجتماعي ما جعلت العالم كله يتحدّث عنها .

ولربما تساءل القارىء عن مصدر هذه الأموال ، وكيف يتسنّى جمعها من الاسماعيليين وهم موزّعون بشتى انحاء المعمورة ؟ وليست لهم

حكومة أو دولة تقوم بهذه المهمة .

ونحن نجيب على ذلك فنقول : ان ميزانية الاسماعيليـــة تجمع من الاتباع بموجب أنظمة اشتراكية تطبيقية عن طيب خاطر وبكل سرور بدون حاجة الى استعمال أية وسيلة من وسائل الجباية المعروفة في العـالم اليوم وعلى الوجه التالي :

١ – أموال العشر : وهي ١٠ ٪ ممـــا يكسب التاجر والموظف والفلاح والعامل ، كل فرد منهم يحاسب نفسه في كل شهر او يوم او سنة ، ويرسل ما يترتب عليه الى صندوق الامام .

٢ – أموال النجوى : مبلغ رمزي زهيد يدفعه كل فرد اسماعيلي يرتاد بيوت العبادة لتأدية الصلاة .

٣ – أموال المجالس العامة والخاصة ، وتقام هذه المجالس في مناسبات الأعياد والحفلات .

٤ – أموال تركة الأموات : من متاع ولباس وممتلكات خاصـــة منقولة وغير منقولة ، وتباع كل هذه الأشياء في المساجد عن طريق المزاد العلني .

٥ – أموال ثمن ما يتبرّع به كل اسماعيلي مما تنتجه أرضه ومطبخه الخاص أو حيواناته ودواجنه .

٦ – الأموال التي يتبرّع بها أثرياء الاسماعيلية لتغطية حفلات الوزن التي تجري للامام في مناسبات غير محدودة .

هذه هي الاشتراكية التطبيقية المعروفة اليوم لدى الاسماعيليـــة الآغا خانية ، وهذه هي الأساليب التي تجمع بها الأموال التي تتـألف

منها ميزانيتهم ؛ علماً بأن هذه الأموال تنفق بمعرفة لجان ومجالس خاصة لمنفعة الاسماعيلية ولخدمة مجتمعهم ، ولتأمين الرفاهية والسعادة للجميع بدون استثناء .

وهذا ما يتسع له المجال من هذا البحث الكثير الشعب .

ولا غرو فان الامامة الاسماعيلية ، والاختلاف في تسلسلها يكاد يكون منشأ الخلاف بين الاسماعيلية في سائر ما اختلفوا فيه من أصول وفروع .

الفصل السادس

الحركة الدرزية

أصولها، تاريخها، عقائدها

الملاحظ ، في السنوات الأخيرة ، أن بعض المؤرخين والكتاب المهتمين بالدراسات الاسلامية ، حاولوا رفع الستار عن السر الكامن وراء الحركة الدرزية ، بقصد استجلاء كنهها ، والتوصل إلى توضيح معالمها باعتبارها من الحركات الباطنية الغامضة التي لم يستوعبها التاريخ ، والتي لا تزال تعيش منذ حقبة طويلة في كهوف الستر والتقية .

فمن الطبيعي أن لا نجد كاتباً أو مؤرخاً يخرج من هذا الموضوع الخطير الشائك بالحقيقة التاريخية المنشودة ، وذلك بسبب الستر الشديد الذي فرض حول آثار هذه الحركة التاريخية والعلمية عملاً بمبدأ « التقية » وخوفاً من بطش الخصوم .

وباعتقادي أن كل ما كتب حول هذا الموضوع الشاق العسير ، في عصرنا الحاضر ، لا يعتمد عليه ولا يوثق به وثوقاً علمياً صحيحاً . إذ كثيراً ما يطالعنا بعض الباحثين بين حين وآخر بمعلومات جديدة ، واكتشافات حديثة ، يظهرون في بعضها ان « الدروز » هم من ذوي الكسل والتواني ، وانهم لا ذمة لهم ، ولا ذمام ، وهم من بقايا الاسرائيليين الذين لم يتمكنوا ان يلحقوا بموسى لدى خروجه من مصر ، وان الحركة الدرزية دعوة إلحادية تقوم في جوهرها على الزعم بألوهية الحاكم بأمر الله ، وان مذهب الدروز مستمد في الواقع من دعوة حمزة بن علي وتعاليمه ، وان مذهبهم ينسخ جميع الأديان والشرائع ،

وانه أحـدث عند ظهوره ثغرة خطـيرة في صرح الاسلام ومبادئـه الحقيقية . وان الدروز ينكرون الرسل والأنبياء جميعاً ، وينكرون اصول الاسلام والنصرانية واليهودية ؛ وان الألوهيـــة البشرية ، لب مذهبهم . ويعتقدون في تنـــاسخ الأرواح ، وانتقالها الى الأحياء في صورة الانســان والحيوان . ويقولون في القرآن الكريم إنـه من صنع سلمان الفارسي . وان الدروز ملاحـدة ، اباحيون ، زنادقة ، عبـاد عجول .

بينما يعتبرهم البعض الآخر فاطميين ، افترقوا عن الاسماعيليـــة ، والاسماعيليون مغرقون بالفلسفة ، وهم عرب أقحاح ، تحدّروا من سلالات عربية عريقة :

يشي الدم العربي في أعراقهم صرفاً صراحاً والدليل المنطق

وان دياناتهم فلسفية متأثرة بالفلسفة اليونانية ، وخصوصاً الأفلاطونية . أما وسمهم بالكسل فأحرى أن يكون ذلك مدحاً لهم ، فانه ناشيء عن القناعة والنزاهة والزهد .

والدروز هم فرع من الشجرة الاسلاميــة ، وغصن من الأرومـة العربية . دعوا أنفسهم موحدين ، لاعتقادهم ان الله واحد احد لم يلد ولم يولد ، ليس له بداية تعرف ولا نهاية توصف . يقرّون بالشهادتين ، وعصمة القرآن ، ويحرمون كل مـــا حرمه ، ويؤمنون بالمسيح نبياً فقط ، ليس مصلوباً ، وشعائرهم في الختان والصلاة على الجنائز كبقية المسلمين .

إن الصدق والمروءة ، والغيرة والنجدة والشهامــــة ، والمحافظة على الجار وردع المظالم .. صفات عربيـــة إسلامية ، مستقرة بالموحّدين ،

جارية في أجيالهم مجرى الدم ، منذ بايع أجدادهم رسول الله ﷺ تحت الشجرة .

ونحن تجاه هذه الآراء المتناقضة ، المتضاربة ، لا يسعنا إلا أن نردد مع الشاعر الخيّام :

حار قوم بين شـك ويقين يا صديق
وأطـال الفكر في المذهب والدين فريـق
أنا أخشى أن ينادى ذات يوم : أن أفيقوا
أيها الجهال لا هـذا ولا ذاك الطريق !

ونقول : بانها تدل دلالة واضحة على عدم حرص الكتاب والمؤرخين على التأكد من الحقيقـة ، وتسرّعهم في الحكم على الأمور بغير ثبت ، وأخذ المصادر والنصوص على علاتها وعواهنها ، بدون ان يكلّفوا أنفسهم التحري عن الحقيقة التي ينهد اليها كل عالم متجرّد ، او ان يدرسوا العلل والأسباب ، او يحاولوا فك الرموز والاشارات والتعابير الفلسفية التي زخرت بها النصوص الدرزية . إذ ان من المفروض على من يرغب في دراسة الحركات الباطنية ، أن يكون ملماً الالمام التام بمدلول المصطلحات والرموز التأويلية الباطنية ، بصورة عامة ، باعتبارهـا المفتـاح الذي يقود الى باب الكنز العقـائدي المغلق ، لأنه من العنت والمغالطـة ، تطبيق نظريـات الاستنتاج والتخمـين ، على العقـائد الباطنية .

وربما نرجع جهل هؤلاء الباحثـين عنهم الى ان التستر الشديد الذي فرضته أنظمة الحركة الاسماعيلية عامة ، والحركة الدرزية بصورة خاصة ، وقوانينهـا على آرائها وعلومها وأهدافها ، خوفـاً من البطش والتنكيل

والاضطهاد ، ولسلامة النفس والعرض والمال .

وباعتقادي ان ذلك مطلوب شرعاً وعقـــلاً ، او الى اعتمادهم على فتاوى الفقهاء بجمودهم ، وضيق تفكيرهم ، الذين لا يجدون أقل من الزندقة يتهمون بها كل من يتصدّى لهم . هذا فضلاً عن تمسّكهم بما جاء في التاريخ الإسلامي ، الذي دُوّن ونُشِر في عصر طغت فيـه العصبية العمياء على الحقيقة ، وراج فيه سوق الدس والافتراء والتحامل والتشهير . مما أدّى بالتالي الى فتح الباب على مصراعيه أمام الخصوم للدس والطعن وتصنيف الروايات ، واطلاق الاستنتاجات والظنون والتخرصات التي توحيها اليهم مخيلتهم المريضة بقصد النيـل من سمعة كل من يحاول نشر الافكار الحرّة الخلاقـة المبدعة ، التي حمل لواءهـا علماء أجلاء ، ودعاة أفذاذ استطاعوا ان ينشروها في أكثر أنحاء العالم الإسلامي ، لتقويض دعائم الأنظمة الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية البالية الفاسدة .

ولئن اتسع المجال لبعض الكتاب المحدثين ان يستوفوا أخبـــار الدروز وحروبهم وإماراتهم وبعض نظمهم الاجتماعية ، فلم يتسع مثل هذا المجال للباحثين عن معتقداتهم ، ولهم فيها تخمينات وآراء مضطربة متناقضة ، من الصعب أن يقف منها الباحث على الحقيقة ، لأن مـــا كتبوه مستوحى من وحي عصبية القرون البائدة ، التي قلما يتحرى فيها جانب الحق والصدق .

ولا مشاحة بأن أكثر الذين كتبوا عن الدروز لم يتعودوا الرجوع الى النصوص العقائدية المخطوطة ، لذلك اتسم عملهم بمختلف السمات .

وكان من نتائج ذلك ان حامت حول عقائدهم الظنون والافتراءات والشبهات ، فتصدّى لهم كثيرون من المتأخرين من المؤرخين ، فسلكوا الدروب نفسها – بدون ان يلتفتوا الى الأساليب التي اوجدها العسلم الحديث – وفسروا بعض ما ورد في كتبهم المقدسة من رموز واصطلاحات واشارات باطنية تأويلية بالمعاني المتداولة ، ولم يفكروا بوجوب الرجوع الى المصطلحات الاسماعيلية ، ونظرية الظاهر والباطن والمثل والممثول المعروفة لديهم ، باعتبارها الأصل الذي تفرّعت عنه العقائد الدرزية .

لذلك نستطيع ان نؤكد بأن هؤلاء لم يتوصلوا الى نتيجة صحيحة تميط اللثام عن حقائق كثيرة طمستها الأجيال ، وكنوز نادرة دفنت في بطون التاريخ .

وليس هذا بجديد على الذين باعوا أقلامهم ، ووجدانهم العلمي – ان كان لديهم وجدان – في أسواق مادية لإرضاء رغبات ذوي الأغراض والحاجات واصحاب السلطة والسلطان .

لذا نرى من واجبنا العلمي ، ونحن في صدد الكشف عن خفايا واسرار ورموز واشارات الحركات الباطنية في الاسلام ، التحدث عن « الدروز » على ضوء الضمير النقي ، والواقع العقلي ، والتجرد العلمي ، متبعين الأصول الحديثة للدراسات العقائدية ، ومعتمدين على ما بين أيدينا من وثائق ونصوص ، ومفاتيح للمصطلحات الرمزية ، والإشارات التأويلية الباطنية .

فعسى أن تمهّد هذه الدراسة الطريق لالقاء مرساة الحقيقة على الشاطىء المضطرب المتناقض ، وتعطي فكرة واضحة جلية عن هذا

الموضوع الشائك الخطير ، الذي نعتبره جزءاً من الحركة الاسماعيلية — القرمطية ، التي غمرتها « التقية » بأمواجها الصاخبة المعربدة ، حتى التبس أمرها على النـاس ، فذهبوا فيها مـذاهب شتى لا تتفق مع الحقيقة والواقع .

وسنحاول ان نجعل مصدرنا الأول آثار الحركة الدرزية ، وكتبها السرية المقدسة ، التي لم تُطبع ولم تتداولها الأيدي حتى الآن ، لأنها السـبيل الوحيد الذي ينير السبيل أمامنا للوصول الى الحقيقة الناصعة التي ينشدها كل متجرد منصف .

ونرى لزاماً علينا ، قبل الدخول الى صميم العقائد الدرزية لدراستها ، ان نتطلع الى شخصية الامام الحاكم بأمر الله الفـاطمي الذي راجت باسمه الدعوة الدرزية ، لدراستها وللوقوف على مجمل أعمالها وواقعها ، ولنستعرض الظروف والملابسات التي أحاطت بأعمال ومكرمات هـذا الامـام الخارقة المتفوقـة ، التي استحقت الخـلود في ضمير التـاريخ الانساني ، لما قدّمت من خدمات عادت بالنفع على البشرية جمعـاء ، ولمـا ابتكرت من سنن وقوانين ، وأوجـدت من النظم والاحكام الاجتماعية .

لذلك لا نستغرب اذا وجدنا الناس فيه مختلفين اختلافاً شديداً ، فقد رفعه « الدروز » الى المكان الأول ، والمقـام الروحي السامي المقدس في كتبهم السرية ، ودان له بالإمامـة السرمدية المطلقة ، « الاسماعيلية » باعتباره سليل النبي الهادي الأمين ، وخليفة رب العالمين .

بينما تقدمه الينا الروايات السنية في صورة طاغية مستبد ، شـاذ

الطباع ، مضطرم الاهواء والنزعات ، سيء الاعتقاد ، ميال الى البطش وسفك الدماء وقتل العلماء والأتقياء .

وفي الحقيقة لا تزال شخصية الامـــام الحاكم بأمر الله بحاجة الى المزيد من الدراسة والتحليل باقلام حرة منصفـة ، يتفجّر في شرايين وجودها التجرّد والنزاهة ، لاستجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتهـا ، وسبر أغوارها ، باعتبارها من الشخصيات الخارقة المبدعة الخلاقـة التي تكوكب فيها المستوى الرفيع ، فارتقت وسمت عن المستوى المحدود المطلق للبشرية جمعاء ، بتفكيرها وأعمالهـا وواقعها ، وبما فجّرته من طاقات اجتماعية فعّالة منتجة ، أفاضت عليها من خفائها وروعتهـا الاتزان والرشـد والجود والتقشّف ، والزهـد في كثير من متـاع عالم الكون والفساد .

ولا بد لنا والواجب العلمي الحق يحتم علينا ان نولي هذه الشخصية ذات المستوى الرفيع ، التي تحيط بها حجب كثيفة من الظلمات الصعبة الاختراق جانباً من البحث للوقوف على دخائلها والوصول الى كنهها ، واجتلاء أسرارها الغامضـة التي سمت بعظمتها ومثاليتهـا عن وصف الواصفين ، ونعت الناعتين .

الحاكم بأمر الله :

ثارت حول شخصية الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي السـادس ، والامام الاسماعيلي السادس عشر ، و « اللاهوت المعبود » عند الدروز الذي يتربّع على عرش إمبراطورية عظيمة واسعـــة امتدّت من المحيط الأطلسي الى جبـال طوروس ، وشمـلت فيا شمـلت جزيرة صقليـة

وجنوب ايطاليا ، والجزيرة العربية ، عاصفة من النقاش التاريخي شغلت فراغاً عظيماً في الكتب التاريخية والمذهبية .

ومن الملاحظ أن المؤرخين المحدثين قد وقفوا من هذه العاصفة نفس موقف القدماء الحائر المتناقض ، الذي لا يتعدّى التخمين والاستنتاج ، والافتراض غير المدعوم بالحجج المقنعة ، والبراهين الصادقة الدامغة ، وخاصة ما ذهبوا اليه حول سلوكه وتصرفاته وأعماله ، بصرف النظر عما ذكروه حول مرتبته الدينية السامية التي لا تُدرك بالحواس ولا بالأوهام ، ولا تعرف بالرأي ولا بالقياس .

يذكر البعض ان الحاكم بأمر الله كان مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأي والتصرفات ، شرساً جموحاً ، ميالاً الى الشر ، خؤوناً وافر الغدر ، لا يستقرّ على ثقة او صداقة ، ولا يخبو ظمأه إلى الدماء ، مريضاً بالعقل ، يتصرّف تصرّفات اعتباطية لا تصدر إلا عن إنسان مصاب بالجنون ، سيء الاعتقاد ، كثير التنقل من حال إلى حال ، يأمر بالشيء ويبالغ فيه ، ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه ، لا يملك نفسه عند الغضب ، أفنى أمماً واجيالاً ، وأقام هيبة عظيمة وناموساً ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقت اموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها .

بينما نرى البعض الآخر يدحض هذه الآراء والأقوال ، وينفي تلك الفرضيات ، فيؤكد ان الحاكم بأمر الله كان على عكس ما قيل فيه تماماً ، فعهده عرف بالعدل المتناهي ، والجود العظيم ، والصلات الواسعة ، شجع العلم ، وحافظ على المجتمع من الفساد ، والانحلال ، والفسق والفجور .

ويذكر ابن الجوزي بأن خلافة الحاكم بأمر الله كانت متضادة بين

شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الاصلاح ، وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط .

ويذهب ابن خلكان الى ان الحاكم بأمر الله كان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ، ماكراً ، رديء الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل كبراء دولته .

ويقول ابن خلدون بأن حاله كان مضطرباً في الجور والعدل ، والاخافة والأمن ، والنسك والبدعة .

ويذهب الأنطاكي الى ان الحاكم بأمر الله أظهر من العدل ما لم يسمع به ، وكان له جود عظيم ، وعطايا جزيلة ، وصلات واسعة ، وكان نصيراً للعلوم والآداب .

ويتحدّث عبد الله عنان عن زهد الحاكم وتواضعه فيقول بأنه كان يحتقر الألقاب ، كما يحتقر متاع هذه الدنيا ، اشتهر بالزهد والورع والتقوى ، أدهش الناس بتصوفه الفلسفي ، واقتصر طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع .

ونحن الذين آلينا على أنفسنا ان نطلق كلمة الحق عالية مجلجلة ، لا يسعنا إلا ان نقول : ان كل ما أحيط بشخصية الامام الحاكم بأمر الله لم يكن إلا من قبيل الدس والتحامل ، والعصبية الدينية المذهبية ، والخيال الخصب ، الذي لعب دوراً كبيراً فعالاً عند بعض المؤرخين الذين حكموا على الامور قبل التشبّع من دراستها ، وبيان عللها وأسبابها .

ولد أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله بالقصر الملكي

في القاهرة المعزية ليلة الخميس في الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة ٣٧٥ هجرية ، في الساعة التاسعة والطالع عن برج السرطان سبع وعشرين درجة ، وأصبح ولياً للعهد في شعبان سنة ٣٨٣ هجرية . وتولى الخلافة والامامة الاسماعيلية بعد وفاة أبيه وسلم عليه في مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء في العشرين من رمضان سنة ٣٨٦ هـ . وسار الى القاهرة يوم الاربعاء بسائر أهل الدولة ، وبويع بالامامة ولقّب بـ (الحاكم بأمر الله) وكان عمره يومئذ ١١ سنة وخمسة أشهر وستة ايام .

ومن استقراء التاريخ يتبين ان الحاكم بأمر الله كان الولد الوحيد لابيه ، لأن العزيز بالله لم يُنجب ولداً سواه ، وفتاة اخرى من امرأة ثانية تكبره في السن . لذلك فقد وهب العزيز حبه وحنانه كله للحاكم .

ويذكر المؤرخون ان العزيز لما علم بدنو اجله ، وهو في مدينة بلبيس ، امر بإحضار ولده الوحيد ، وولي عهده المنصور ، ليكون بجانبه في مرضه .

ويروي المؤرخ ابن خلكان عن المؤرخ المعاصر المسبّحي ، مؤرخ الدولة الفاطمية ، ووزير الحاكم وصديقه فيما بعد ، نقلاً عن الحاكم نفسه ، قال :

« قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار استدعاني والدي قبل موته ، وعليه الحرق والضماد ، فاستدناني اليه وقبلني وضمني اليه وقال : وا غمي عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عيناه . ثم قال : فبادر برجوان ، وأنا في أعلى جميزة كانت في الدار ، فقال : إنزل ويحك الله ، الله فينا وفيك . قال : فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على

رأسي وقبل لي الارض ، وقال : السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال : واخرجني حينئذٍ الى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لي الارض وسلموا عليّ بالخلافة . »

يتبيّن من هذه الرواية ان العزيز بالله كان يؤثر ابنه ووحيده بالحب والعطف ، وانه لحق بالملأ الأعلى ، وابنه لا يزال في الحادية عشرة من عمره لم تصقله التجارب .

وفي صباح اليوم التالي توجه الخليفـــة الجديد الى عاصمة ملكه في موكب فخم ، وأمامه جسد أبيه الطاهر ، وقد وضع في عمارية برزت منها قدماه ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبي ، وبين يديه البنود والرايات ، وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح .

فدخل القاهرة عند مغيب الشمس في هـــذا الموكب الضخم ؛ وفي الحال أخذ في تجهيز جسد أبيه ، فتولى غسله قاضي القضـــاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء إلى جوار أبيه المعز في حجرة القصر .

وفي صباح اليوم التالي ، بكّر سائر رجـال الدولة الى القصر ، وقد نصب للخليفة في الإيوان الكبير ، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهّبـة ؛ وخرج من القصر إلى الايوان راكباً ، وعلى رأسه معممـة الجوهر ، والناس وقوف في صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ، ومشـوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالامامة ، وباللقب الذي اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » .

ونودي في القاهرة والبلدان ، ان الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤونة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس او المال .

وكان أول سجل صدر عقب التولية ، سجل باقرار تعيين محمد بن النعمان في القضاء ، وان يوكل اليه أمر الدعوة ، والصلاة بالناس نيابة عن أمير المؤمنين .

ثم تلاه سجل آخر قرأه القاضي محمد بن النعمان بالجامع يتضمن وراثة الحاكم الملك عن أبيه ، ويعد الرعية بحسن النظر اليهم ، ويعلن فيه إسقاط بعض المكوس والضرائب ، فكان لذلك في الناس أطيب وقع .

وتذهب بعض النصوص التاريخية إلى القول بأن الامام العزيز لما شعر بدنو أجله رأى بثاقب نظره أن يختار من بين رجال دولته الأوفياء ثلاثة أوصياء يعهد اليهم بأمر الاشراف على ولده حتى يبلغ أشده .

ومن الواضح أنه عهد بابنه الى ثلاثة من كبار رجال دولته الذين وثق بهم وهم : أبو الفتوح برجوان الصقلي خادمه وكبير خزائنه ، والحسن بن عمار الكلبي الكتامي زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، وقاضي القضاة محمد بن النعمان بن محمد بن حيون المغربي .

هؤلاء هم الأوصياء الثلاثة الذين يذكر التاريخ أن العزيز قد أودع امر ابنه وأمر البلاد أمانة في أعناقهم .

والظاهر ان هؤلاء كانوا على أهواء متباينة ، حيث نهج كل واحد منهم نهجاً سياسياً يختلف عن الآخر . فالقاضي محمد بن النعمان كان رجل دين قبل كل شيء ، فلم يعر النواحي السياسية أي اهتمام وترك ذلك لزميليه ، مفضلاً القيام بواجباته الدينية الروحية . ولكن ابن عمار الذي كان قوي الشكيمة ، وافر العصبة ، انتهز هذه المناسبة

لاستعادة نفوذ قبيلته في الدولة وبناء مجده الشخصي ، ودفعه غروره الى ان يتشبه بالملوك فأمر ان يترجّل له جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، وحجب نفسه إلا عن نفر قليل من أعوانه وزعماء قبيلته . وقيل انه تجاوز ذلك إلى جواري قصور الخلافة فوزعهن على زعماء كتامة ، كما وزع عليهم الأموال والوظائف ، فترفعوا عن الناس واعتدوا عليهم وكثر ظلمهم وفسادهم ، وضج الناس بالشكوى من سلوكهم ، وابن عمار يصمّ اذنيه ولا يقبل أن يستمع الى شكاوى الناس في احد افراد قبيلته ، واشتد جبروته ، وازداد طغيانه ، واستأثر بالسلطة كلها .

وأدرك برجوان ما يهدده ويهدده من خطر . فكاتب بنجوتكين واستدعاه بقواته من الشام . فاستعد ابن عمار من جانبه ، واذاع ان بنجوتكين ينوي الخروج والثورة ، وجهز لقتاله جيشاً معظمه من كتامة ، أسندت قيادته الى ابي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح .

فلما علم بنجوتكين بخروجه ، سار في قواته جنوباً الى الرملة متأهباً لقتاله ؛ ولقيه سليمان لأول مرة عند رفح وهزمه ؛ فاستنجد بنجوتكين بابن الجراح الطائي ، فانضم اليه بمجموعة من الأعراب ، ولقيهم سليمان بظاهر عسقلان ، فهزم بنجوتكين مرة اخرى ومزقت قواته . ولكن ابن عمار أعلن العفو عنه .

وبعث سليمان أخاه علياً على رأس قوة الى دمشق ، وكتب الى ابن الجراح يطالبه بأن يرسل بنجوتكين إلى القاهرة ، ووعده بأنه لن يلقى سوءاً فأرسله ، ودخل القاهرة ، فأنزل في إحدى الدور مكرماً . ولبث مقيماً بالقاهرة ، محاطاً بعطف ورعاية الحاكم حتى توفي بعد ذلك بعشرة أعوام .

ونتيجة لهذا الانتصار اشتد ساعد كتـامة ، وقبض ابن عمار على السلطة بيد حديدية فعزل أصدقاء ومؤيدي برجوان .

ولكن برجوان لم يستكن فأخذ يعمل بروية وسرية تامة متلمساً الفرص السانحة لاسقاط ابن عمار ، فراح يؤلب عليه زعماء الجند الناقمين .

ولما شعر بأن ساعة الخلاص من ابن عمار قد دنت ، أمر أصحابه بمهاجمة الكتاميين في شعبان سنة ٣٨٧ هـ . وأمعنوا فيهم القتل والجراح ، وهوجمت دار ابن عمار ونهبت ، فتحوّل الى داره بمصر ، وتوارى حيناً عن الانظار ، واخيراً ترك الساح لبرجوان .

فقبض برجوان على السلطة كلها ، وسيطر سيطرة تامة على جميع مرافق البلاد المترامية الاطراف ، واصطنع الاتراك والصقالبة ليتقوّى بهم ، فأغدق عليهم الاموال ، وملّكهم الولايات ، وولاهم وظائف الدولة وسمح لهم بما سمح ابن عمار للكتاميين . فنفرت قلوب الناس منه وضجّوا بالشكوى من سلوك الاتراك والصقالبة ، وكثر عدد خصومه وعملوا على الايقاع به .

وفي هذه الفترة التي كان الصراع فيها بين الاوصياء قد بلغ الاوج ، كان صاحب الحق الشرعي قد بلغ أشده ، وأصبح في الخامسة عشرة من عمره . فشعر بما وصل اليه وصيه برجوان ، فأرسل اليـه بعض الأساتذة يقول له إن الوزغة الصغيرة قد صارت تنيناً كبيراً .

وقد كان ذلك لبرجوان نذير الخطر الداهم . لان الامام الحاكم قد قرر التخلص من ذلك الوصي الطاغية المستبد فقتله في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هجرية وختم على أموال برجوان وصودرت تركته ، وكانت عظيمة

طائلة تحتوي على كثير من نفيس المتاع والثياب والحلى والخيل والغلمان والكتب وغيرها واختفى اصدقاؤه من الميدان .

بدأ الامام الحاكم اعماله بتغيير كبار رجال دولته وولاة الاقاليم ، وصرف كل من كان على صلة بوصيه برجوان الذين ضج من فسادهم الناس ، ثم أوجد الحاكم لنفسه مجلساً ليلياً يجتمع فيه مع كبار رجال الدولة وأعيانها ليتناقشوا أمامه في امور الحكم وشؤون الرعية ، فكان هذا العمل من اعظم ما قام به في أوائل حكمه مما قرب القلوب اليه ، واستبشر الناس خيراً بتوليه السلطة بنفسه .

ويذكر التاريخ ان الامام الحاكم استدعى أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان فخلع عليه خلعاً نفيسة وضاعف ارزاقه وإقطاعاته ، وندبه لقضاء مصر وأعمالها ، وقال له : وقد أرحت عليك ، فلا توجد بي سبيلا اليك بتمرضك الدرهم من أموال المسلمين ، فقد أغنيتك عنها .

وفي الحال اتخذ الحسين إجراءات حازمة للمحافظة على أموال الايتام ، وإيداعها بمكانها في زقاق القناديل ، وألزم ولاة الامر بتقديم الحسابات الدقيقة عنها .

وفي سنة ٣٩٠ هـ . توفي جيش بن الصمصامة واليه على الشام ، وكان قد أوصى قبل وفاته بأن تؤول كافة ممتلكاته لامير المؤمنين الحاكم بأمر الله ولا يستحق أحد من اولاده منه درهماً ، وكان مبلغ ذلك نحو المائتي الف دينار ما بين عين ومتاع ودواب ، فحضر ابنه بجميع تركة والده إلى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصيته وثبت بما خلفه ، وقد أوقف ذلك كله تحت القصر ، فأخذ الامام الحاكم

الدرج ونظره ، ثم اعاده إلى اولاد جيش وخلع عليهم ، وقال لهم بحضرة وجوه الدولة : « قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله . وما وصى به من عين ومتاع فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه . » فانصرفوا بجميع التركة .

ومن خلال هذه الروايات يتبين لنا ان الامام الحاكم بأمر الله كان حريصاً على الاموال الخاصة والعامة ، لا يرنو اليها ولا يطمع في شيء من أموال الرعية أو متاعهم حتى لو قدمت اليه عن طيب خاطر او عن وصية يوصي بها صاحبها .

ومن الواضح ان الامام الحاكم قام بواجبه نحو مملكته وامته وشعبه خير قيام ، ووجه اهتمامه الزائد للناحية العلمية فنشط الحركة الفكرية ، فراجت الثقافة ، وزخر البلاط الفاطمي بالعلماء والشعراء والادباء ، وجعل من المساجد مثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الاسماعيلي الذين كانوا يحاضرون الناس في عقائد المذهب وأصوله .

اشتهر بالسخاء والبذل والمحافظة على اموال الخزينة في آن واحد ، فأنشأ ديوان المنفرد ، وهو الدائرة المختصة باضافة الاموال المصادرة من الاغنياء والخارجين على القانون الى بيت المال .

وأصدر نظاماً خاصاً للبر والعطايا ، توزع بموجبه الاموال على الفقراء والمعوزين والمحتاجين ، فكثرت الانعامات في عهده على جميع المستحقين مما جعل امين الامناء حسين بن طاهر الوزان يتوقف عن صرفها فكتب اليه الامام الحاكم بخطه بعد البسملة يقول :

اصبحت لا ارجو ولا اتقي الا إلهي وله الفضل

المال مال الله عز وجل ، والخلق عباد الله ونحن امناء في الارض ، اطلق ارزاق الناس ولا تقطعها والسلام .

من خلال سطور هذه الرواية وغيرها من الروايات الكثيرة الموزعة في اغلب الكتب التاريخية ، نلاحظ ان الامام الحاكم بأمر الله كان جواداً سخياً ، وبنفس الوقت شديد الحرص عـلى اموال الدولة ، لا يسمح بـأن يلمس قرشاً منها إلا بمـا يعود بالنفع العميم على المصلحـة العامة .

ولم يكن الامام الحاكم عفيفاً عن التصرف بالاموال فحسب ، بل عرف عنه الزهد والتقشف واحتقار اغراض هذه الدنيا الفانية . وقد بلغ من زهده وتقشفه انه لم يكن يلبس الا الخشن من الثياب الصوفية ، ولا يأكل الا النزر اليسير من الطعام .

ويذكر التاريخ ان الامام الحاكم بأمر الله قـد اجرى العديد من الاصلاحات والارشادات الاجتماعية التي كان لها الاثر الكبير في خلق مجتمع قوي صالح مؤمن بالقيم الروحية والانسانية ، وقيل انه بلغ القمـة في مكافحة التجار والمحتكرين الذين يتلاعبون في اقوات الشعب ، فكان يذهب بنفسه اليهم ويضيق الخناق عليهم كلما حاولوا الاحتكار وحجز بضاعتهم عن الناس طمعاً في زيادة الكسب . وفي حال العثور على اي محتكر يكون نصيبه الجلد ومن ثم القتل .

هذا بالاضافـة الى تحريم بيع الخمور وشربها ، كما منع النساء من التبرج والخروج لزيارة القبور ، ودخول الحمامات العامة ومحى صورهن من الحمامات ، ومنع الرجـال من التسكع والوقوف امام الحوانيت ،

وحرم ايضاً تناول بعض الاطعمة كالملوخية ، وأمر بأن لا يقبّل أحد الارض ، ولا يقبل ركابه ويده عند السلام عليــه في الموكب ، ومنع الالقاب ، واكثر من الخروج لوحده ليلاً والجلوس مع المؤمنين الموحدين المخلصين .

هذا من الناحية الاجتماعية ؛ اما من الناحية العلمية فقد امر بانشاء دار الحكمة وجعلها جامعة علمية ، ففتحت ابوابها في ١٠ جمادي الآخرة سنة ٣٩٥ هجرية ، وأوعز بنقل بعض الكتب الثمينة من مكتبة القصر الى دار الحكمة ، وامها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم ، فمنهم من كان يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم . وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والاقلام والورق . وخصص قسماً منها لاجتماع الدعاة والفقهاء لتنظيم الدعــوة الاسماعيلية ولالقاء مجالس الحكمة التأويليــة فدخل كثير من الناس في المذهب الاسماعيلي وازدحمت دار الحكمة بالمستجيبين .

وقيل ان بعض الناس كانوا يموتون من كثرة الازدحام ، وخصص يومين في الاسبوع لحضور تلك المجالس .

وكانت دار الحكمة من اعظم وافخم المؤسسات العلمية وأرقاها في ذلك العصر . انفقت عليها الأموال الطائلة ، وفرشت بأحسن الأثاث ، وزينت بأجمل النقوش . وكان الإمام يشرف بنفسه على اقامة المناظرات بين العلماء والفقهاء ويهبهم العطايا والمنح .

هذا بالاضافة الى دار العلم التي أوجدها في قصره وحضرهـا الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافاتهم ، وكان الداعي يجلس فيها ويجتمع اليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم ، كما خصص مكاناً

لاجتماع داعي الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة ، وانتشرت الترجمة انتشاراً يدعو الى الفخر والاعجاب .

وبلغت النهضة الفكرية أقصى درجات الازدهار مما جذب طلاب العلم الى القاهرة من كافة ارجاء البلاد الاسلامية ، فكان يقدم اليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة .

وفي سنة ٤٠٣ هجرية امر الامام الحاكم باحصاء المساجد التي لا غلة لها فوجدت ٨٣٠ مسجداً فرصد لها النفقات اللازمة

وفي سنة ٤٠٥ هجرية وقف الضياع والأموال على العلماء والفقهاء والمستشفيات ، ووزع أمواله الخاصة على المساجد والفقراء ودور العلم .

ومن الملاحظ ان الامام الحاكم كان يعامل الناس بالتساوي ، فلم يقبل ان تسود طبقة على طبقة ، او طائفة على طائفة ، او مذهب على مذهب ؛ فالكل أمامه سواء ، مع العلم بأنه كان إماماً وقائداً روحياً لمذهب ديني ، فلم يقبل أن يترفع اصحاب هذا المذهب على سواهم من الرعية .

ويحدثنا المؤرخون ان جميع الطوائف والموظفين ارتدعوا وخافوا سطوة الحاكم حتى انهم طلبوا منه الأمان بعد الأمان ، والحاكم يصدر لهم سجلات الأمان ، ولكنه في الوقت نفسه لم يتوانَ عن معاقبة العمال والولاة المذنبين ولم يتسامح في شيء ، حتى قال المؤرخ الأنطاكي بانه اقام له من الهيبة في نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه الى معاقبة المذنب ، وأنه لا يبقي على من صغر ذنبه وقل فضلاً عن عظم جرمه وجل . لذلك لم يستطع احد الخروج عن الحد الذي رسمه له أو ان يعمل شيئاً يسيء به الى غيره او لمجتمعه .

وباعتقادي ان ذلك لم يكن كما يدّعي المدّعون عن شهوة في سفك الدماء ، او حباً في الانتقام الشديد والبطش ، إنما صدرت هذه العقوبات بعد ان رسمت سياستها بدقة ونفذت في عدل ومساواة .

وإذا درسنا حالة المجتمع في عصر الحاكم بأمر الله نلاحظ ان الثروة التي انهالت على مصر في عصر الدولة الفاطمية جعلت المصريين يسرفون في البذخ والملذات ، واصبح الشعب مترفاً ميالاً الى السير في تيار المجون واللهو ، وذلك واضح بيّن فيما تركه الشعراء والكتاب .

هذا بالاضافة الى الجدل الديني الذي كان يأخذ قسطاً كبيراً من اهتمام المجتمع الفاطمي بكامله .

كان هناك اهل السنة والجماعة يقاومون ويصارعون بعزم وقوة تيار دعاة المذهب الاسماعيلي ، بينما نرى هؤلاء الدعاة يحاولون جذب اكبر عدد ممكن الى دعوتهم ، بينما نلاحظ ان النصارى يبذلون المستحيل للمحافظة على أنفسهم ودينهم ، أما اليهود فليس لهم إلا العمل على خلق البلبلة ودس الدسائس بين الناس ، مما ولد الاضطراب الشديد بين كافة المذاهب والطبقات . وأصبح من الضروري بمكان ايجاد يد قوية حاسمة تستطيع ان تستأصل شأفة الفساد بقوة وعزم ، وهذا ما فعله الامام الحاكم بأمر الله .

ومع هذا لم يخل عهده من الثورات والحروب ، وكان يرسل الجيوش لقمعها بالشدة والحزم ، ولقد أرسل جيشاً لقتال الروم في غزة وعسقلان بقيادة خادمه (يمن) فقتل من الروم خمسة آلاف ودخل جيشه مدينة (مرعش) كما قضت جيوش الحاكم على ثورة أبي ركوة الأموي وعسكره بعد ان قتل منهم ستة آلاف وأسر مائة وقبض على

أبي ركوة فأعدمه .

وفي سنة ٤٠٠ هجرية أرسل جيشاً آخر بقيادة علي بن صالح الى بغداد فاجتاحها واستولى على بلاد فارس .

وفي سنة ٤٠٥ هجرية وفد على مصر حمزة بن علي الزوزني ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون الى دار الحكمة واخذ يعمل في الخفاء على نشر مذهبه الجديد ، واجتمع اليه جماعة من غلاة الاسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين .

وفي سنة ٤٠٨ هجرية جهر حمزة بن علي ومريدوه بدعوته الجديدة التي سنتحدث عنها في غير هذا المكان .

اعتاد الامام الحاكم ، كما ذكرنا ، ان يخرج وحيداً لتفقد شؤون مملكته في الليل ، وللنزهة خارج مدينة القاهرة . وفي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هجرية خرج كعادته ولكنه لم يعد فأعلنت غيبته ووفاته في ذلك التاريخ .

وتدور حول وفاته وغيبته قصص وروايات ، لا يزال التاريخ يبحث عن حقيقتها بعد أن حيرت عقول العلماء والمؤرخين الذين لا يزالون حتى وقتنا هذا يتحرون عن اسبابها وعلاتها .

ونحن نؤكد لهم أنها نوع من الغيبة الجسدية ، اما الروح الطاهرة فقد سارت في عقبه وستظل تنتقل من واحد الى آخر حتى نهاية الوجود لأنهم علته .

والحقيقة التي لا غبار عليها ان وفاة الامام الحاكم لم تكن سوى وفاة طبيعية أرادها هو نفسه ان تكون معجزة او لغزاً عويصاً سيظل موضع

نقاش وجدل ، كما كانت شخصية صاحبه الى الابد .

والخلاصة يعتبر عهد هذا الامام سلسلة من الأعمال الخيرية والاصلاحات الاجتماعية المتعددة منذ اللحظة التي بدأ فيها مسؤوليته إماماً للاسماعيلية وخليفة للمسلمين ، وفي عهده تقدمت الثقافة تقدماً عظيماً ، لم يعرف له التاريخ مثيلاً ، كيف لا وقد كان الحاكم نفسه عالماً وأديباً وشاعراً تنسب اليه هذه الأبيات :

دع اللوم عني لست مني بموثق
فلا بدّ لي من صدقة المتحنق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرّق

وقيل انه كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون النشيد . وكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة وشهراً .

وقبل الولوج الى دراسة المعتقدات الدرزية ، لا بدّ لنا من تقديم هذه الوثيقة المخطوطة الهامة التي عثرنا عليها بين مجموعة من المخطوطات الاسماعيلية التي نملكها وهي : « رسالة مباسم البشارات بالامام الحاكم » صنفها حجة العراقين وفيلسوف الدعوة الاسماعيلية الأكبر أحمد حميد الدين الكرماني باعتبارها وثيقة تاريخية هامة ، تتحدث عن اختلاف الدعاة بسبب ظهور الدعوة الجديدة التي نشرها الحمزة بن علي واتباعه ، ما دمنا نتحدّث عن هذه الدعوة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرباب ، ومالك يوم الحساب ، الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً ، وما بينها وبين الأرض بعين الفناء ملحوظاً ، فحكم بأن لا يبقى إلا وجهه الكريم ، جعل الافلاك على اختلافها بجذور سبعة ، والشريف منها مقصوراً على تسعة ، دلالة على الينابيع من أرباب التأييد ، وإشارة بها على الميامين من أركان التوحيد ، الذين عمروا طريق الهداية باقامة الدعاة ، ورعوا عباد الله بالكفاة الرعاة ، وأحمده وأشكره واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، مكوّن الأكوان ومصرم الأزمان ومفنيها ، واشهد ان الأبطحي المدني محمداً عبده ورسوله أضاء عالم الدين بالأنجم الزاهرة ، وأشرق بمطالعه بالأنفس الطاهرة ، فوعظ وبشر وأنذر ، وفارق العالم وقد قضى حق الرسالة باقامة سننها في نصب الامامة ، فصلى الله عليه صلاة تنمو وتزيد ما أحاط عقل بمعقول وانتهت علة الى معلول ، وعلى وصيه وقاضي دينه وهادي امته والصابر على ألم المضض وفاء بعهد الله عز وجل علي بن أبي طالب والأئمة من ذريتهما السلام . وخص الله الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من أطايب سلامه ونوامي تحياته بما يعلي جده في العالمين ويرفع منزلته على الباقين إنه قدير .

أما بعد : فاني لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً ، وللسدة العلوية زائراً ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء

عظيم ، والعهد في الرسوم السالفة قد نقض ، وعن أولياء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض ، والرسم في عقد مجلس الحكمة جرياً منهم بالاحساب قد رفض ، والعالي قد اتضع ، والسافل منهم قد ارتفع ، وشاهدت أولياء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها ، والناشئين في عصمة الامامة وأولى ولائها قد حيرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التي تشيب لها الناصي ، وبهرهم ما تجدد لهم من الأسباب التي لا يهلك بها إلا أولو النفاق والمعاصي ، وهم يومئذ يموج بعضهم في بعض ويرمي كل منهم صاحبه بفسق ونقض ، وتتلاعب بهم الأفكار الردية ، وتتداولهم الوساوس المردية ، ثم لا يعلمون ما أظلهم من الدخان المبين ، ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين ، فصار البعض منهم في الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض في النكص على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه ، والقليل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم وما قبلوه من الدين باختبارهم وارتيادهم ، وهم على شفا انحلال وحؤول واختلال وأعناق اولى الطرفين من الأبالسة الى اختلاسهم ممتدة ، وهمها في اصطيادهم عن اعتقادهم محتدة ، والآحاد منهم قد رضوا من أنفسهم لأنفسهم ، إذ تخلصت نفوسهم مكتفين بقول الله تعالى : « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم [1] » حملني فرط الشفقة في الدين على أن أناجي الاخوان المستضعفين من دون من فسد جوهره بما حدث فيه من المقال ، وانعكس عنصره بما تشرب قلبه ماء المحال فصار كالفضة المحرقة التي لا تعود إلى فضيتها بصناعة ، وإلى حالتها الأولى وإن تعنى بفضل جهد واستطاعة ، بما يكون تقوية لقلوبهم وتثبيتاً لاقدامهم من بيان إمامة الامام الحاكم بأمر الله امير المؤمنين وصدقها ، والبشارات الواردة من الأنبياء

---

(١) سورة ٥ آية ١٠٥ .

عليهم السلام وإشاراتهم بحقها ، وما ينجز الله تعالى له وعده ، ويقرنه به من الأمر في قبله ببعده ، والكلام على الاسباب العارضة وانها ليست إلا لما يريد الله من تصديق قول أنبيائه بقيام ما قالوه مقام الصدق ، وما هو إلا إمارات تقوم مقام النص بأنه ولي الحق ليزدادوا إيماناً بالله تعالى وبوليه عليه السلام إيقاناً ، وان أجمل ذلك في رسالة جامعـــة ففعلت ، وكتبت هذه الرسالة ، وسمتها برسالة مباسم البشارات لكونها بما تجمعه من البشارات والاشارات وحسن المعاني وما توافق به من فصولها للعدد الشريف من السبع المثاني ، ضاحكة المباسم ، شاهرة المواسم ، وهي تشتمل أربعة عشر فصلاً ، وبالله التوفيق ، وبه أستعين في إتمامها ، وبلوغ المراد فيها ، موقي من الذلل إنه قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الفصل الاول

نقول إن إمامة الأئمة عليهم السلام ليست متعلقة باثبات المثبتـــين اياها ، فتبطل اذا لم يثبتوها ، بل امامتهم أثبتها المثبتون ، أو لم يثبتوها فهي ثابتة ، والله سبحانـــه اثبتها لكن للدالين عليها والداعين اليها ، وان كانوا وسائط فيما بين الائمة وبين الامة فضيلة لا تنكر ، ومثوبة عظيمة لا تكفر ، يستحقونها من وجهين اثنين احدهما هو دفع سيئة ، وثانيهما هو ايلاء حسنة ، وكلا الوجهين يكسبـــان الفضيلة والاجر ، فأما الوجه الذي هو دفع السيئة فهو ان جوهر الانسان

أجل الجواهر الطبيعية شرفاً في تهيئته لقبول ما يُفاض عليه من المعارف وأعظمها استعداداً للتصوير مما يلقن ويعلم من المعالم ، وهو في بدء وجوده كالشيء الذي لا صورة له ، أو كالعريان الذي لا لباس له ، مشتاق الى المعارف التي هي الصورة ، محتاج بالقياس احتياج العريان الى اللباس ، وهو في تلك الحالة يستمد صور الاشياء والمبادىء بحسب ما يتفق له من المعلم الهادي ، فان كان موفقاً من الله وله سعادة واتفق ان يكون المعلم موحداً خيّراً أخرج بما يستمليه منه موحداً ، وان كان بالعكس فبحسبه ، ولذلك قال النبي ﷺ كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، دالاً بذلك على أن جوهر الانسان في الاصل انما أخرجه الله تعالى الى الكون ليكون صالحاً موحداً شريفاً فاضلاً ، وانه بعد الولادة صالح ما لم يهود او ينصر أو يمجس ، وذلك ان الانبياء (ص) دعوا الناس بجميع ما جاءوا به من الكتاب المبين ورسوم الدين الى توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته لا الى غيرها ، فجعلوا لذلك طريقة من لزمها لم يلقَ الا خيراً ، وله صراط مستقيم من تعداه لم يكتسب الا كفراً ، فلما تمدوا ما رسموه ، وخالفوا الامر فيما نصبوه ، واختلف الناس بتركهم الطريق والطاعة لله تعالى من حيث أمر ، حدث منهم اليهود والنصارى والمجوس ، فلما حدث من الامم التحزب بالقعود عن طاعة اولياء الله تعالى ، وحدوده في الاعصار الخالية ، وكان دور محمد ﷺ آخر أدوار اصحاب الشرائع بانتهائه الى الكمال الذي لا يحتاج معه الى تغيير بزيادة أو نقصان وجب ان يؤدي لكونه كاملاً صورة ما تقدمه من الامور كما ادى الانسان لما كان النهاية اليه في الخلقة والكمال في ذاته صورة ما تقدمه من الموجودات ، وكان جامعاً له ، ولذلك قال النبي ﷺ : كائن في أمتي ما كان في الامم الخالية ، وقال : كائن في امتي ما

كان في بني اسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى كأنهم لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه .

فافترقت الأمة المسلمة بعد نبيها كما افترقت الأمم الخالية بتركها ما أمر الله به من طاعة من اختاره لهدايتهم ، فصارت كل فرقـــة بما اعتقدته مشابهة لأهل كل نحلة خارجة عن الأسلام من الذميين والكافرين وحدث عن ذلك في الأمة المسلمة واليهود والنصارى بمشابهتهم إياهم في اعتقادهم تصديقاً لقول النبي ﷺ حين قال وأبواه يهودانه وينصرانـــه ويمجسانـه فكان المشابه لليهود من المسلـمين من ضاهاهم في تركة طاعـة حدين عظيمين من حدود الله تعالى مثل طاعة عيسى ﷺ ومحمد ﷺ وإقرارهم موسى ﷺ ، ومن تقدمه من النبيين (ع) وهم النواصب ، الذين تركوا في الاسلام طاعة حدين عظيمين من حدود الله تعالى مثـل طاعة الوصي وإمام كل زمان ، وأقروا بمحمد ﷺ ومن تقدمـــه من النبيين (ع) ومن يولد لهم يهودونه بمعنى يبغضون اليه اعتقاد الولاية للوصي والامام (ع) كاليهود في معنى عيسى ومحمد ﷺ . والمشـــابه للنصارى من المسلمين من ضاهاهم في تركهم طاعة حد عظيم من حدود الله تعالى مثل طاعة محمد ﷺ وإقرارهم بحسدين عظيمين وهما موسى وعيسى (ص) ، وبغيرهما وهم القطعية الاثنا عشرية الذين تركوا في الاسلام طاعة إمام الزمـــان (ع) وأقروا بمحمد ﷺ وولاية عـلي بن أبي طالب أو من تقدمها من الأنبيـــاء والحدود (ع) ومن يولد لهم ينصرونه بمعنى يصورون له ما هم فيه من البغضاء لطاعة إمام الزمان الذي هو تمامية طاعة الله تعالى ، كما يفعـــل النصراني بولده في باب محمد ﷺ . والمشـــابه للمجوس من المسلمين وضاهاهم في كونهم لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين ، هم المعتزلة الذين لا يعبدون الله باعتقاد أهل الظاهر ولا باعتقاد القطعية ولا باعتقاد المطيعين لصاحب

الزمان من المؤمنين كما لا يعتقد المجوس ، لا اعتقاد النصارى ولا اعتقاد المسلمين ومن يولد لهم يصوّرونه بصورهم كما يفعل المجوسي بمن يولد له ، ولما كان جوهر الانسان أشرف الجواهر فكانت السيئـــة التي تطمس ضياءه وتهلك نوره وبهاءه تبعد من الله ومن رسوله اعتقاد إمامة من لم يجعل الله له نوراً وجعله وتابعيه قوماً بوراً ، كان منع الداعي ذلك الجوهر من اجتراح هذه السيئة التي تكسف باله ، وتميد كأرذل الأشياء حاله ، وهي منه كالصدأ في الحديد ، والكسر في الدر ، والقتـــل في النفس ، وصده إياه عن اعتقادها بأن يبين بطلانها وما يكون للأنفس باعتقادها من خذلانها هو دفع السيئة عنه ، وإذا كان ذلك دفع سيئة كان الأجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة ، وأما الوجه الآخر الذي هو إيلاء حسنة هو ان جوهر الانسان لما كان في كونه متهيئاً للقبول على ما ذكرناه ، وكانت الحسنة التي تكسب النفس الشرف والرفعـــة والزلفة وهي منها كالحيـــاة في النفس والصحة في الجسم والجـــلاء في المرآة اعتقاد إمامة من جعل الله فيه شرفها وأعلى درجته بما أولاه من مجدها وجعله وسيلة تنال الخيرات بسببها بكونه سبباً إلى الاتصال بالله تعالى من جهة حدوده كان إفادة الداعي ذلك الجوهر هذه الفضيلة التي يصير بها وباعتقادها موسوماً بوسم الله تعالى ومرقوماً برقم أرباب التأييد من جهة الله تعالى فيكون في أفق العالم النوراني ، الذي هو مقر الأنبياء والأوصياء والأئمة الأبرار والعباد الصالحين الاخيار وأصحاب المعاد مقبولاً مكرماً وأفاضة النعمة عليه بأن يعلمه إياها ليعتقدها هو إيلاء الحسنة . وإذا كان ذلك إيلاء حسنة كان الاجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة فلذلك قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » . والحسنـــة لما كانت على ولاية الأئمة (ع) كانت لمن يعتقدهـــا باباً يؤديه إلى معرفة الحدود العشرة في العالمين نفسانياً وجسمانياً الذين هم ملوك القدس

والتأييد وينابيع الحكمة والتوحيد ، فترتع نفسه في أزهار العلوم وتشرف بها على توحيد الحي القيوم ، وإذا كان الداعي يستحق على فعله ذلك الاجر والمثوبة والدرجة والرفعة ، فبـــالحري ان يصرف من رفع الله ووليه قدرة الفكر إلى ما يحفظ به عقائد المؤمنين من تبصيرهم وتقوية متنهم وتثبيت أقدامهم على طاعة الله تعالى وطاعة وليه محتسباً للأجر من جهـة ولي نعمته يـوم لا ينفع مـال ولا بنـون إلا من أتى الله بقلب سليم جعلنـا الله وجماعة المؤمنين ممن لا خـوف عليهم ولا هم يحزنون .

الفصل الثاني

نقول إننا وان كنا قد دللنا على أمر الامام الحـاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ص) في إمامته ، وكونه صادقاً في سفارته في كتابنـــا المعروف بالمصابيح في الامامة بالواجب ، وذكرنا في الرسالة الكافية رداً على الهاروني الكاذب زيادة على ما أوردناه تقسيمـــاً للأمر في إمامته حتى خلص الى القسمة التي لا يشك فيها بقولنا انه لما كان الامام إمامين : إمام حق وإمام ضلال ، وكان إمام الضلال اما أن يكون منتصباً من تلقاء ذاته ، أو منصوباً من جهة الناس ، وبطل أن يكون الامام (ع) ممن نصبه الناس أو انتصب من تلقاء ذاته ثبت بكون الامام إمامـين إمام حق وإمام ضلال ، وبطلان امام الضلال انه إمام حق يهدي بأمر الله ، وعارضنا على أنفسنا في ذلك وبرأنا ساحتنا من قضية المعارضة بما نطق ببطلانها وأسفر عن افتراض طاعته (ع) معها ، فنريد أن

نستشهد لاخواننا حرسهم الله من الدلائل على أنه من أيام الله تعالى يوم بشر به النبيون واستبشر به الاوليـــاء المخلصون ، وهو يوم الفتح الذي تمنى الكون في زمانه القرون الخالية وتصبح أتباعه معه وهم المغبوطون عند الأمم السالفة وتمسي فيه أعداء الله على وجوههم غبرة ترهقها قترة وذلك بأنهم كفرة فجرة ما يكشف لهم ما أظلم ، ويبين لهم ما استبهم ليزداد به ثقة من عرف ويتقوى به اعتقـــاد من استضعف فبقوة الله وبقوة وليه (ع) نقول ان الاكوان في العالم من شأنها لما كانت لا تكون الا بزمان ان تكون في بداياتها ضعيفة ناقصة فتتحرك بالزمان وبالوسائط الى القوة والتامية التي هي عين الغرض فيها وفي حالها تلك وانتقالها من الضعف الى القوة ، ومن الخسة الى الرفعة ، تنطوي عليها أسباب الضعف والقوة حتى تكون تارة ضعيفة ناقصة وتارة قوية تامة ، ولمـا كانت الشرائع والرسـوم والوضائع من الصنائع النبوية ، وكانت لاستجلاب الخيرات ما وضعت ، ولدفع المضرات ، وكانت مقترنة بالزمان وغير منفكة مذ لزمها ما يلزم غيرها من الضعف والقوة ، ولما لزمها الضعف والقوة ، وكانت لاستجلاب الخيرات ودفع المضرات ما وضعت كان من ذلك الحكم بأنها متى ضعفت قل الخيرات ، ومتى قويت عم البركات ، وان ضعفها لن يكون إلا من جهة أعدائها بضعف أوليائها ، وقوتها لن تكون الا من جهة أوليائها بضعف أعدائها ، ولما كان ذلك كذلك ، وكانت الشرائع والوضائع من ذواتها لا تتقوّى الا بقوة القائمين بها من الأئمة (ع) وضعف أضدادهم ، ولا تضعف الا بضعفهم واستعلاء أعدائهم وكان الأمر في قوتها متعلقاً بهم وبحسب تمكنهم من امضاء امر الله ، وكانت مراتب الأئمـــة (ع) في باب النصرة لراية الحق ، واعلاء كلمة الصدق متفاوتة بحسب المساعد الزمانية ومـــا يأتيهم من بسط القوة بموازاتهم للمبادىء الشريفة على النسبة الأفضل ، وكان منهم

من يتعسر عليه الامر في أكثر أحواله لا لنقصان في مرتبـة إمامته لكن بحسب المناحس الفلكية المتعلقـة بالزمان الموكل بالاكوان مثل ما تعسر على الوصي والائمـة والصور الاول منهم ، وعلى الانبياء (ع) أمورهم ، ومنهم من تيسر له ما يريده واتسع امكانه بحسب مساعدة الزمان اياه مثل المنصور بالله والمعز لدين الله وغيرهما فيطرد الامر بين يديه لمصادفة الامر زمانه الذي به يتعلق كونه فلا يستأخر ، ولذلك قال الله تعالى : « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » وكل منهم قائم في زمانه وقائد لاهله وحجة الله تعالى على خلقـه ، وكان مقدراً أن يكون دور محمد ﷺ أعظم الادوار مدة بكون شريعته من التامية في نهايتها ، وفي غاية لا يحتـاج معها الى تغيير ونسخ وتبديـل الى القيامة ، ومقدراً ان يكون فيه أئمة كثيرون عليهم السلام ، مضعفة لما ثبت من أعداد كل دور ، وان تكون لهم قوة وضعف في الاعصار بحسب الزمان وتنقله الى أن ينتهي الى القيامـة الموعود بها وهو اليوم الآخر ، قلنا إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (ع) في كونه اماماً في وقته وقائماً في زمانه وقائداً لاهله وشفيعاً للمتعلقين بحبله ، وان لم يكن سابعاً من الاسابع فله من القوة والتأييـد الممتد اليه من جهة الله بموازنته ، للأعداد التي من شأنها افادة التامية ومناسبته اياها ما يخدمه باذن الله الفلك بأجرامه ، والزمـان بشهوره وأعوامه ، فينجز الله تعالى به وعده لمحمد جده ﷺ بقوله تعـالى : « يـوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ، أي نطوي ذكر الامام الضـال ودولته كما طوى الغـاصب الظالم ذكر أئمة الحق ، ونعيد الامر في كونه كلياً في بيت محمد ﷺ كما كان بديا فيملك المسلمين بأسرهم كما ملكهم النبي ﷺ في زمانـه ويفتح الله له من الفتوح ما يتعسر به جد إبليس وأهله ويستأصل شأفة

الضلال وأصله ، وان الشهادة بصحة قولنا ذلك من أقاويل الانبياء (ع) ومن رموز النبي ﷺ والدلائل القائمة بما تتضمنه الفصول التالية من الشرح والنص ، وأول ما ينطق بصحة ذلك ، وانه عليه السلام المبشر به المنصوص عليه بالعلامة قول إيشاعيا النبي في التوراة مخاطباً للدعاة بالرمز بشارة لهم حيث يقول : « ككلي ماو ديث صبوت هو ربعي بث بروشديم » ، افرح واشكر رعاة بنات هبوت « ملكخ بوربولوح » صديق بيت المقدس فان ملكك « ويسوع عولى هيني وروخيت على حمور » قد جاءك صادق مطهر من الأدناس وعلى عابر بن الزتون زاهد وراكباً على حمار الوحش والأتن .

فهل الرعاة إلا الدعاة ؟ وهل البنات إلا المؤمنون ؟ وهل بيت المقدس الا الإمام ؟ وهل ما قاله من العلامة إلا بشارة للدعاة بقوله : فان ملكك قد جاءك صادقاً مطهراً من الأدناس ، زاهداً راكباً على الحمار وعلى العير الأتن ، إلا ما عليه حال الإمام (ع) ؟ فأي دلالة أصدق وأوقع للحس من قيام ما قاله فيه من ركوب الحمار وزهده ؟ إن للمعتزلين عن اعتقاد إمامته قلوباً قد طبع عليها فهم لا يفقهون ، عصمنا الله بطاعته ، وتوفانا على اعتقاد إمامته ، بمنه ورحمته .

الفصل الثالث

نقول : قد يقع الظن بأن الذي قاله إيشاعيا (ع) من هذه

البشارة التي ذكرناها هو بشـــارة بعيسى (ع) بكونه راكباً للحمار زاهداً من دون غيره ، والذي يبين ان الاشارة بقوله ذلك في هـــذا الموضع هي بالامام (ع) من دون عيسى (ع) ويؤيد الحكم ويقطعه قول إيشاعيا ثانياً إنه يهلك المفسـدين ويفنيهم بريح شفتيه حيث يقــول مخـبراً عن أفعال الزاهد الى الراكب الحمار الذي بشر به وشوقاطه بصدق : (ولم وهو حيح بميسور لعوى) ويقضي بالصدق والعـــدل للضعفـــاء والفقراء وبريح الخواص المتواضعين (أورص وهكتوا برص سبــط سود بردج شفو تو الأرض) ويضرب الأرض بعصى فمه وبريح شفتيه (يوميت روسوع) بميت المفسدين ، ثم كون عيسى (ع) من هذه الأفعال خالياً من الشهادة العظمى بـأن البشارة ليست به إذ لم يبقَ في قومه فيقال إنه يحكم بالصدق والعدل ولم يقتل احـــداً ولا أمات مفسداً ولا أمر بذلك فيقال إنه قتل وأمات ، وإذا كان ذلك كذلك ، وخلا عيسى من أحكام هذه الأفعال خلصت هذه القضايا التي حكم ايشـاعيا (ع) بها للحـاكم ﷺ بقيام إماراتها فيـه ، إذ هو الزاهد الراكب الذي قد أفنى المفسدين ويفنيهم بحركة شفتيه بقوله : خذوا رأس فلان ، أو اقتلوه بعصانهم وإفســادهم ، ولم تصح إلا فيه ، إن ذلك لشيء عجاب ، ثبتنا الله على طاعته ، ولا حرمنـا فضل شفاعته بمنه .

الفصل الرابع

نقول : ان الكون كونان : كون طبيعي ، وكون نفساني . فالكون النفساني لن يكون الا بالكون الطبيعي ، والكون الطبيعي لن يكون الا بمطارح الأشعة الساطعة من الآجرام السماوية في الأجسام الطبيعية النافذة فيها على حسب الأجسام المشفة على النسبة الأفضل ، ومحاذاة تلك الأجرام بعضها في ممراتها بعضاً على أتم ما يكون من الموافقة والمضادة ، ولما كانت لا تحدث الأكوان إلا بوقوع موافقة بين تلك الأسباب الفاعلة وبين الأشياء المنفعلة بحسب مناسبتها للأعداد الشريفة التي هي المبادىء في الوجود ، ولا ينفك شيء منها مثل الفرد البسيط والفرد المركب ، والزوج البسيط والزوج المركب ، والحادث عن ذلك من الأعداد الشريفة مثل الستة والسبعة وغير ذلك الدالة على السابقات في الوجود والتاليات في التركيب ، وكان شرف الأكوان بحسب ما يناسبه من تلك الأعداد والحادث عنها مثل العدد الشريف القوي الذي هو الزوج المركب لما ناسب موسى (ع) إياه في كونه رابعاً من النطقاء ، تم له ما لم يتم لأحد من النطقاء ، ولما ناسبه الامام محمد الباقر (ع) بكونه رابعاً من الأئمة فعل من بث العلم ما لم يفعل غيره ، ولما ناسبه المهدي بالله بكونه رابعاً من الاسبوع الثاني ظهر بالسيف ، وتم له ما لم يتم لغيره ممن تقدمه ، ومثل الستة التي هي عدد تام شريف لما ناسب محمد ﷺ إياه في كونه السادس من النطقاء ،

كان تاماً شريفاً ، وكان وضعه حاوياً لجميع الشرائع وتاماً ، فلن يغير ولن يبدّل كما تمت الدائرة بالتقاسيم الستة التي هي ميزانها ، ومثل السبعة التي هي عدد كامل شريف متناهي لما كانت في القوة بكونها جامعة للبسيط والمركب تامة ، صارت قوة الأنفس وضعفها لا تظهر من العليل إلا في مثل الأيام التي تناسب هذه العدة ، وهو البحران ، ولا تظهر القوى النفسانية الا فيمن يكون مناسباً لهذه العدة الشريفة مثل الامام المعز لدين الله (م) لما ناسب بكونه سابعاً من الأسابيع ، هذا العدد الشريف تم له من الأمر ما لم يتم لمن تقدمه ، ومثل اليوم الآخر في آخر الزمان وهو القيامة الكبرى ، واليه الدعوة بكونه سابعاً مناسباً لهذه النسبة الشريفة يصير له من القوة والشرف ما لا يدانيه أحد ممن تقدمه ، قلنا ان مناسبة امير المؤمنين الحاكم بأمر الله في كونه سادس عشر الأئمة لحصول الاربعة الشريفة من ضربها في ذاتها الذي هو ستة عشر ، وموازاته للثمانية بكونها ضعفها التي تلقى من جهة أربعة ومن جهة سبعة ومن جهة تسعة ، وكون ذلك مناسبات شريفة عظيمة تدل على أنه يتم له في الاسلام ما لم يتم لأحد ممن تقدمه ، وبمناسبته للاثنين بكونه ثانياً من الاسبوع الثالث يدل على هلاك أمم على يده كما هلك من أصحاب نوح (ع) الذي هو ثاني النطقاء وموافقته ذلك وشهادته بما تقدم مما يكشف الشك ويقوي الامل ، عرفنا الله تعالى بركة أيامه ، ولا حرمنا حسن إنعامه ، وحشرنا معه ومع آله المعصومين من أبنائه بمنه وطوله .

الفصل الخامس

ومن عجيب الدلالة على صحة ما أوردناه من شهادة النبي ﷺ أنه لما علم ان الامر بعده يتداوله كل ناعق وناعر أيد عزائم ذوي الايمان بقوله : « لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم فيخرج من ذريتي من يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً » دالاً بذلك على أن لا بد من انتقال الامر الى الذرية الطيبة ، وان تداولته الامة الغاصبة ليكون بشارة لهم وفرحاً ، ودل ﷺ على من يكون انتقال الامر اليه من ذريته وطاعة الجماعة له من ولي وعدو ، وبرمز خفي ، فقال ﷺ : « اطلبوا ليلة القدر في العشر الثالث من الصوم ، فان فيها تنفتح أبواب السماء ، وتضيء الدنيا ، وتسجد الشجر والمدر والحائط والرابط . » ثم أشار من العشر الثالث الى ليلة الثالث والعشرين من رمضان ، فلما دل ﷺ على ليلة يصير كل شيء فيها ساجداً لله تعالى وكان المعنى انه يخرج من ذريته من الاسبوع الثالث من يطيعه أهل الاسلام ، وليهم وعدوهم ، تأملنا بحثاً عن الوجه الذي ينطق بذلك فجعلنا أيام الشهر لما كانت بثلاثة اقسام عشر أول وعشر ثان وعشر ثالث ، وكل قسم بازاء مرتبة من المراتب الثلاث التي هي النبوة والوصاية والامامة مقسوماً على ثلاثة أسابيع من الائمة (ع) وكانت ليلة الثالث والعشرين المخصوصة المنصوصة عليها بأن يسجد فيها كل شيء على السادس عشر من الائمة ﷺ وكان ذلك دليلاً ناطقاً بانتقال امر الاسلام

والمسلمين الى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وانتظام الامر في ذرية محمد ﷺ بالكلية وطاعة الامة وليها وعدوها له بأسرها ، وموافقة ذلك لما تقدم شهادة صادقة بما قلناه ، ولله الحمد .

الفصل السادس

ثم ان أول الدلائل على ما ذكرناه ظهور آثار ما نص الله تعالى عليه في كتابه بقوله : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » مخاطبة لمحمد ﷺ والمعنى للتابعين له من جهة أساسه وأئمة دوره ، اي انتظروا من الائمة التي هي أيام الله الامام الذي يكون من أفعاله أفعال مظلمة تحير العقول ، وتلك الافعال عذاب وامتحان لاهل الدعوة عظيم ، ففي زمانه عقب الفترة ينجز الله وعده ، وتنكشف الظلمة ويعود الحق بكليته الى بيت النبوة ، وذلك قوله « فارتقب » فأي إمام ظهر من أفعاله ما ظهر من الامام (ع) من الافعال التي حيرت العقول وأظلمت المقاصد في البحث عن الغرض فيها وأي دخان أعظم مما عم المؤمنين ، وهل ذلك الامتحان به يهلك الفاسق ويثبت عليه الصادق ، فوجود ما قيل فيه وقيامه مقام الصدق مع سابق الشواهد وتوافقها من امارات الحق . حرسنا الله وجماعة المؤمنين على الطاعة والتسليم انه رؤوف رحيم .

الفصل السابع

ثم إن الله تعالى قد أشار الى مثل ذلك فيما تقدم ذكره فقال : « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » وقال : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » قالوا في التفسير إن يوم القيامة تصير السماء كهيئة عكر الزيت ، وكالرصاص المذاب ، وان الجبال تصير في هيئة الصوف المصبوغ المندوف ، وقد قلنا فيما تقدم ان كل إمام قائم في زمانه ، وان دور محمد ﷺ يجمع أئمة كثيرين ، ونقول ان كل إمام قد قدر ان يكون على يده أمر من الامور في قوة يظهرها عقيب فترة تقع ويهلك به قوم بتمردهم ، فهو من الايام التي سماها الله في كتابه مثل يوم القيامة ، يوم لا ينفع الصادقين صدقهم ، يوم يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي تأويله ، يوم يحمى عليها في نار جهنم عذاب يوم كبير ، هذا يوم عصيب ، يوم لا بيع فيه ولا خلّة ، يوم يبعثون ، يوم الوقت المعلوم ، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، من مشهد يوم عظيم ، يوم الزينة ، يوم ينفخ في الصور ، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ، يوم الوعيد ، يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ، يوم الجمع ، يوم التغابن ، يوم الفصل ، يوم يقوم الروح ، يوم ترجف الراجفة ، يوم الدين ، يوم التلاق ، يوم يسمعون الصيحة ، يوم التناد ، يوم الفتح ، اليوم الآخر ، وغير ذلك مما هو في القرآن . ولا يجب ان يعتقد اذا ظهرت في أحد هذه الايام

قوة سماوية ومواد إلهية انه صاحب القيامة الكبرى الذي لم يحن وقته ، ولم يجيء زمانه ، اذ ذلك لا يكون الا بعد مضي حدود دور محمد بتمامها وكمالها ، فعلى رأس ذلك الحد الذي هو في آخر الحدود وبه تمامية حدود دور النبي ﷺ تكون القيامة التي حكم النبي ﷺ بامتداد حسبه ونسبه اليها بقوله : « كل حسب ونسب منقطع الا حسبي ونسبي فانهما باقيان الى يوم القيامة » وسيكون للسادس عشر والثامن عشر والحادي والعشرين الى تتمة الحدود شأن من الشأن ، فالسماء على الامام وظاهر الشريعة وأحكامها ومصيره كمكر الزيت استحالته عن نظامه الاول بوقوع فترة وضعف ، والجبال على اركان الدعوة في الجزائر ومصيرها كالعهن انحلال نظامها حتى تتناهى في الاضطراب الى حد لا تبقي على رسومها الاولى فهل كان ذلك الا زماننا الذي صار سماؤنا فيه على الحالة التي نشاهدها في ظاهر أمرها ، وجبالنا التي هي الدعوة وأهلها في الجزائر قد صار في الرخاوة والحلال النظام بكون المؤتمنين عليهـــا عوناً على تخريبها اما بقلة العلم والورع ، او بفرط الشره والطمع في النهاية التي لا بعدها نهاية ، فصارت الجزائر خالية من هادٍ لله تعالى على طريق الديانة وطلب وجه الله . فهذه كلها مواعيـــد قد قامت شواهدها وظهرت إماراتها ، عرفنا الله خير هذه الايام وبركتها وختمها بالسعادة وأعاننا على طاعة وليه بمنه وقدرته .

الفصل الثامن

نقول : إن من المعلوم ان الشيء القائم عليه الدلالة بشيء ما اذا أعطى من ذاته شهادة بما قام عليه من الدليل من خارجه ، وتوافقت الشهادتان فهو حق لا ينكر ، ومما يعطي أمير المؤمنين ﷺ من نفسه شهادة على ما قام من خارجه من الدليل عليه قوله في آخر سجل ورد نواحي فارس على موسى بن داود جواباً عما كان اختاره من اقامة ولديه مكانه توبيخاً له وانكاراً بقوله : « وأما فتياك وما ذكرت انك تورثه لهما فذلك على ما يراه الامام في وقته وحينه ، الايام تعد يا موسى ، والانفاس تحصى ، والرد الى الله تعالى والى وليه أحق وأحرى ، ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهديني ربي لاقرب من هذا رشداً » . وحيث يقول : « وأنت ان بقيت فسوف ترى مع من يرى كيف ينزل النازلون من الباطل فجاجاً ، ويدخل الداخلون في الحق أفواجاً » . وقوله (ع) في سجل الى بختيار بن الحسين الكوفي حيث يقول : « بهذا وصفك الواصفون ، وعرفك المعرفون ، وله رأي أمير المؤمنين أن يقفك مع الذين هم بأماكنهم مستوقفون على ما يخدمون به أئمتهم الى ان يأتيهم من لطائف الله ما تثلج له الصدور وتقر به العيون ، ويعلم العالمون ، ويتيقن الموقنون ان وعد الله لنبيهم في ذريته كان حقاً ان الله لا يخلف الميعاد » . فلو لم يعرف ان ذلك كائن لما

قال وفي قوله ذلك وبثه الحكم على ما أومى اليه أكبر الدلالة على القوة الالهية التي تظهر منه فيترك الباطل ويتبع الحق . ثم نقش خاتمه الذي هو : بنصر العظيم الولي ينتصر الامـــام أبو علي فلو لم يعلم أنه ينتقم من أعداء الله لما نقش ذلك ، ولن يقوم الانتقام الا بالقوة التأييدية والمساعدة السماوية ، وفي فعله الحكم على ما تقدم من الشهادات بالصحة ثم اسمه (ع) الذي هو المنصـــور بألف لام التعريف وحكم الله في كتابه الكريم اشارة اليه وبشارة به وتعريفــاً بقوله : « انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون » أي انه لهو الذي يغلب وينتقم ويهزم وينصر على أعداء الله تعالى وأعدائه ، وقوله ذلك من أكبر الشهادات بما قلنا ، والمراد بالجمع في قوله المنصورون والغالبون واحد اذ من عادة العرب ان تجمع في كلامها فتقول هم والمراد واحد ونحن والمراد واحد ، وتقول إنا كنا فاعلين والفاعل واحد ، ففي موافقة هذه الشهادات وقيام هذه الدلالات ثبت الحكم بصحـــة ما قلنا وان السعيد من كانت إمامته شعاره وحسن التقوى دثاره . جمع الله شملنا معاشر المؤمنين بطاعته ، وجعلنا من اهل شفاعته ، انه مان متطول .

الفصل التاسع

لما كانت الدلائل على ما بيناه ان الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ع) هو الذي ينجز الله وعده به لمحمد ﷺ ، وعلى يده

يعود الامر كلياً الى بيت النبوة ، تأملنا بحثاً عن الوقت والمدة في ذلك ليكون ما يقوم من الشهـــادة بذلك مؤكداً لما سبق من الشهادات والبشارات به ، فوجدنا ما يحقق ما قلنا قول ذي ينال النبي ﷺ في المدة التي أومأ اليها من أيامه التي هي تاريخ الاسكندر بشارة حيث يقول : « اسرى هام حكى ويكيح ليفي ميم أيلد وشلوش ماوب » طوبى لاولئك الموحدين لايام الالف وثلثمائة « وشلو شيم واخشوا » أي طوبى للموحدين في زمن الالف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة من زماني ، وذلك يصدق ما ذكرناه من جهة كوننا من هذا التاريخ في الالف وثلثمائة وسبع وعشرين سنة التي بقي الى الوقت المبشر به تسع سنين واستحكام الأمر ببقاء الامام (ع) الى وقت الشيخوخة وبياض اللحية ، التي تستغرق فيها هذه المدة ، فابشروا ايها الاخوان ثم ابشروا فحقاً ، قال : « وقوموا الله قانتين » ، وعلى ذلك الامتحان صابرين ، فوالله لينال المؤمنون مناهم في دينهم ودنياهم جعلنا الله معاشر الاخوان من اتباع وليه ﷺ على ما ساء وسر ، وأعاننا على خير الامور ثباتاً على طاعته وتسليماً لأمره انه قدير .

الفصل العاشر

ثم ان الذي يؤكد ما اوردناه ويشيد ما اثبتناه ما جعل الله مع فطرته عليه ، فجعل كمال الانسان وقت بلوغه حد الاربعين سنة ، فعندها يتناهى قوى البشر فتشتد ، ثم ان كان له جد صاعد كان

بلوغه هذا الحد الموازي للعدد الشريف الذي هو الأربعة ، سبباً إلى اتساق أسباب التوفيق له في المطالب ، وتسهيل الأمر اليه في المصاعب يصحح ذلك قول الله : « فلما بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة آتيناه حكماً وعلماً » . فتأملنا ووجدنا مولد أمير المؤمنين ﷺ كان في ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة فكان الباقي لتمام المدة التي يستعلي امره فيها من جهة الله تعالى كلياً مقارباً للمدة المبشر بها من كان فيها من جهة ذي نيـــال وتوافق ذلك من أكبر الدلالة على صحة ما قلناه . والله ولي المؤمنين .

الفصل الحادي عشر

ثم ما ينطق بصحة ما أوردناه المشهور من أفعال الأجرام السماوية في عالم الكون والفساد بحركاتها من أمر الله وتقديره وقراناتها التي يتفق لها بسيرها في المثلثات وما توجبه من انتقال الدول بانتقال قراناتها من مثلثة الى مثلثة ، وكوننا في قران يوجب انتهاؤه انتهاء دول المخالفين بانتقال القران من ركن الى ركن ، واستحكام الثقة بأن الحق هو الثابت الذي لا ينتهي ، وأن الباطل هو الذي يبطـــل ويُنتفى ، وموافقة المـــدة في كون القران الموجب لتغييرات الأمور ، وحدوث الأحداث في العالم ، واستعلاء أرباب الحق للمدة المبشر بها من الأنبياء (ع) وهو تسع سنين من الشهادة التي تشيد للقضية السابقة . لنا في ذلك والله ولي الكفاية .

الفصل الثاني عشر

ومما يدل على ما قلناه من انتقال أمر الاسلام الى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ﷺ بانجاز الله له وعده فيكون الأمر كله اليه كما كان الى النبي ﷺ في أيامه أن النبي ﷺ حين علم بما اطلع عليه من غيب الله ان الأمر في سياسة الأمة يخرج من بيته حيث امر الله تعالى بأن يجعلها فيه من ذريته ، ويتداولها الخنازير والعفاريت ، ضرب مثلاً ليعرفه أهل الايمان والتابعون له في طاعة صاحب كل زمان فقال : « إن من أشراط الساعة أن تطلع الشمس من مغربها » . وفي رواية أخرى انه ﷺ قال : « تأتيكم الساعة بغتة فارتقبوا طلوع الشمس من مغربها فعندها تكون » . فكان الناس يصعدون الجبال في الأسحار يرتقبون طلوع الشمس من المغرب . فقال النبي ﷺ تصحيح إيمانكم وتصديق نبيكم دالاً بقوله ذلك على أن الأمر زائل من ذريته بعده كزوال الضياء بغروب الشمس ، وان الظلم يعم كما تعم الظلمة بغيبتها ، وأنه لن يرجع الأمر إلى ما كان عليه في حياة الرسول (ص) من كون الأمر في الاسلام واحداً من جهة الله الا بعد مضي أربعمائة سنة من غيبته ، وذلك أن الشمس بكونها في العالم مضيئة مؤولة على أمر الله تعالى القائم في النبي (ص) وفي من جعله فيهم من الوصي والأئمة الطاهرين القائمين مقامه الذين أضاءوا عالم الشرع والدين ، وغيبتها خروج أمر الله من حيث جعله فيه من ذريته الذي بخروجه عنهم أظلم عالم

الدين والشرع ، وطلوعها من مغربها عود الأمر الى الذرية ، فيضيء عالم الدين والشرع كما تضيء الشمس للعالم بعد أربعمائة سنة من غيبته (ع) وهو ما دلّ عليه حروف شمس بحساب الجمل ، وكوننا من هذه المدة في وقت يبقى الى انتهائها ما يقارب المدة المبشر بها أهل الزمان ، ويوافق قول الأنبياء والأدلة القائمة شهادة صادقة يشتد الأزر بها ،وترتاح النفس معها . قرب الله الفرج بمنه .

الفصل الثالث عشر

ومما يؤيد ما ذكرناه معنى قول الله تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبـون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد » . وذلك أن هذه الآية جامعة لقضيتين وأخبار ، فإحدى القضيتين أن تغلب الروم وثانيها ان تغلب الروم بعد أن غلبت في بضع سنين ، والأخبار أن الأمر الذي لله وبأمره ما كان قبلاً وبعداً من دون ما بين قبل وبعد ، ولما كان علي بن أبي طالب (ص) هو الممثل بعيسى بن مريم بقـول النبي ﷺ لولا اني أتخوّف أن تقول الأمـة فيك ما قالت النصارى في عيسى (ع) لقلت فيك ما أخذوا الفضل من ماء طهورك والتراب من تحت قدمك واستشفوا به ، (كان الروم) المقيم على أتباع عيسى ومثلته مثلاً على الشيعة التابعة له في طاعة الله وطاعـة رسوله وطاعة القائم مقـــامه ، فحكم النبي ﷺ عـما اطلع عليـه من غيب الله وأوصى اليه بأن تغلب شيعتـه على ﷺ بغلبـــة

الأضداد علياً فقال : غلبت الروم . ثم حكم بأن ترجع الشيعة فتغلب الأضداد بغلبة أئمة الحق من ذريته إيام فقال : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » أي في مدة سبع سنين ، ثم قال : « لله الأمر من قبل » أي ان الأمر الذي لله وبأمره في دور محمد (ص) (ما كان في أول الدور) وهو ما كان من ايام الرسول (ص) من كون الأمر كله في طاعة الله من جهة الرسول من غير شركة إبليس معه ثم قال : « ومن بعد » أي ما يكون بعد زوال أمر الأبالسة من الأضداد في الدور وهو ما يكون عند انتقال الأمر بالكلية في الاسلام إلى ذريته الطاهرة ، فيكون الأمر لله من جهة وليه من غير شركة إبليس معه دالاً بذلك على أن ما بين القبل والبعد ، فالأمر لا من جهة الله ولا بأمره بل من جهة الظالمين والغاصبين ، فتأملنا هذه الآية فحصاً عن المدة في غلبة الأضداد إذ لا يجوز أن يعدم بيانها مع قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فوجدنا « الم » التي هي من حروف المعجم شاهدة بذلك وناطقة به ، وذلك أنها تدل بكونها ثلاثة أحرف في هذا الموضع وهو « ا ل م » أن الغالبين لعلي ابن أبي طالب (ص) بالباطل من الظالمين والغاصبين إياه على حقه ثلاثة نفر هم :



وبالانبعاث الاول الواقع من هذه الحروف وهو « ل ف ا م ى م » على الغالبين وللظالمين بعد الثلاثة من بني أمية وهم اكثر نفراً من الثلاثة ، وبالانبعاث الثاني الواقع من الانبعاث الاول وهو : ا م ا ل ف ى م ا ى م على الظالمين بعدهم من آل العباس وهم أكثر ممن تقدمهم

وبموافقة عدد الحروف أجمع أصلاً وانبعاثاً لإعداد أبواب النار وهم تسعة عشر بقوله تعالى : « لواحة للبشر عليها تسعة عشر » إنهم والمستكن في حروفهم من أهل النار وبإعداد هذه الحروف على حساب الجمل بعد إسقاط ما هو مكرر في كل انبعاث وهي ا ل م ل ف ا ، م ى ا م ل ف ي على أن مدة الغضب والظلم وبقاء الأمر في الغاصبين والخارجين ثلثمائة وثلاث وتسعون سنة فصار موافقة الباقي وهو سبع سنين لتتمة الاربعمائة سنة التي بشر المؤمنون بطلوع الشمس من مغربها على تتمتها على ما ذكر من قبل المدة التي حكم بها النبي (ص) من الله تعالى انهم يغلبون فيها وهي سبع سنين شهادة قائمة على صحة ما ذكرناه ، ودلالة باهرة على أن ابتداء الفتوح لولي الله من سنة سبع وأربعمائة إلى تتمة المدة الموعود بها . قرّب الله فرج المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها بانجاز وعده لوليه حتى لا يعبد إلا هو وحده بطاعة انه قدير .

الفصل الرابع عشر

ومن العجائب وباهر الدلالة ان أكبر عدو لولي الله هو المقيم ببغداد واسمه أحمد ، وصاحب الفيل بخراسان واسمه محمود أبادهما الله تعالى ، واسم الامام (ع) إذا اخذ عدد حروفه بالحساب القديم الذي كان يعول عليه في الاعصار الخالية في معرفة الغالب والمغلوب وجمع أعدادها واسقط منها تسعة تسعة على ما ذكرناه في الرسالة المعروفة بالشمري في الخواص كان الباقي منها دون التسعـــة عدداً دالاً على انه يغلب هذين

العددين أبادهما الله وذلك أن باقي اسم ولي الله (ع) بعد اسقـــاط الاتساع منه ثلاثة وباقي كل اسم من محمود واحمد ثمانيـة والثلاثة ابداً تغلب الثمانية فقد قامت الدلالة من جهة هذا الحساب ان الله يسـهل له الصعاب ويذلل له الرقاب ويبسط ملكه ويمهده ويعلي رايته في الآفاق ويؤيده قرب الله ذلك ويسره وأنسأ في اجلنـــا معاشر المؤمنين حتى نعاين قدرة الله تعالى وما يفتحه لوليـه (ع) من النصر والظفر ، إنه قدير .

وبعد ان انتجزت الفصول فنقول ان الأئمة (ع) من جهة اشخاصهم بشر مثلنا من أولاد الطبيعة ، ومن جهة أنفسهم مختصون بالدرجة العالية الرفيعة ، وإمامتهم إذا ثبتت وقامت الدلالة عليها ، فلا تكون أفعالهم ولا اقوالهم إذا لم يعرف وجه الحكمة فيها طعناً في إمامتهم اذا لم يكن وقوع المعرفة بثبوتها لهم من جهـة الافعال فيقع من جهتها الإنكار ، وسواء عرفت الحكمة في افعـالهم ام لم تعرف فإمامتهم ثابتة لا تنحـل معاقدها ولا تنبت قلائدها كنبوّة النبي (ص) التي لما كانت ثابتة لم تكن مخالفته في حكمه بمؤاخذة العم البريء الساحة بالقاتل خطأً لاحكام كتاب الله تعالى بقوله : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » عرف الحكمة ام لم تعرف طعنـــاً في نبوته إذ نبوته ثبتت من جهة اخرى لا من جهة الافعال والاحكام وبالاعتبار بالافعال يهلك الناس في الأئمة فيرونهم بأشخـاصهم ولا يبصرون مراتبهم فيختلف عليهم الاعتقاد بأدنى شبهـة تعرض فيقعون في الشك والارتداد نعوذ بالله ، فيؤديهم ذلك إلى النار والبوار وسوء الدار ولذلك قال تعالى : « وتراهم ينظرون اليك يا محمد وهم لا يبصرون عظيم مرتبتك » وإذا كان ذلك كذلك فبالحري أن يتأمل العاقل لنفسه ولا يعتبر بما ينطوي عليه من افعال الامام (ع) وان كانت في ظاهرها لا تتعلق بحكمة ، إذ ذاك لا ينقض إمامته ،

وفعله لا يخلو من حكمة يقصدها به ، وإن كنا لا نعرفها في الوقت ، ولا يدهشه ما يظهر له من اضطراب الأمور ظاهراً وباطناً ، فالأنبياء والاوصياء والائمة (ص) قد تضطرب عليهم امورهم ولن يكون ذلك طعناً في مراتبهم ، ولولا ان اسرار الائمة (ع) منهى عن افشائها لاتيت بالعلة في العارض في زماننا ، وفي الجملة قلنا اعتبار بالوصي (ع) كيف جعل وراء الباب ستراً على مرتبته بالائمة (ع) ايضاً كيف كانت أحوالهم في الفترات وهذا اعني العارض في زماننا من الفترات في جنب ما جرى على الائمة (ع) هين بحمد الله ومنه وقد تحصل المناحس في بعض امكنتها مسامته للمواضع الشريفة من الولادة والعقود في الولاية ، فيحدث مثل ذلك فتزول بانتقالها وتعود الحال الى افضلها وانا أبث الحكم جملة انه لن ينال خيراً ولا يرتفع في مثل هذه الفترات إلا من لا يستحق من الأذناب ومن اذا تفحص في أمره كان خسيساً في أصله ودينه أو معاً فلا يصعبن عليكم أيها المؤمنون ما يجري فان الرب كريم ، والمولى رؤوف رحيم ، والزمان يأتي بتيسير كما اتى بتعسير ، ثم أقول ان الإمامة رياسة نفسانية ودرجة قدسانية ينالها الأئمة (ع) بتأييد الله تعالى وواسطة مثلهم بسطع نورها في الأنفس المتعلقة بها ديانة سطوع شعاع الشمس في الأجسام الشفافة فتضيئها بكونها مضيئة بالمواد التي تنصب اليها من لطائف الخطرات البعيدة من الزلات ، وبكونها من اليقين بالله تعالى بحيث لا تغلبها عوارض الطبيعيات وإن اعترتها بكونها في عالمها فانها تستدرك الزلة ، ومن ذلك تثبت لها العصمة ، ولذلك قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان » . به يحكم الله آياته وهي اذا تأملنا من طرف كانت الأنفس كالجنس من النوع بكونها مقومة لذات الأنفس

ومثبتة لها ، وحافظة لها بما ينصب اليها من جهتها من العلوم والمعارف الدينية التي بها تتجوهر الأنفس وتؤديها الى دار الثواب والقرار ، ومن طرف كانت لها كالنوع يكون صورتها في وجوب طاعتها من جهة الله تعالى محمولة في ذواتها وبها شرفها .

وقد ذكرنا في رسالتنا الوصية في المعاد كيفية الأمر في ذلك على شرح فطوبى لذات كانت صورتها اليقين بوحدانية الله وصدق مقامات أولياء الله فهي الناجية ، ولتكون في حظيرة القدس بمشابهتها إياها ، هي الراجية اذا كان ذلك مؤديها اياها الى مجاورة رب العالمين ومساكنة الجنان والحور العين ، ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدراهم الجيدة العيار المضروبة بالسكة ، المنقوشة باسم الله وباسم رسول الله واسم أوليائه ، فكان موضوعها ذات النفس ونقشه صورة التوحيد وطاعة أرباب التأييد فلا يشك في كونه مقبولاً عند أصحابه ، مقرباً من أسبابه عزيزاً على أربابه ، وتعساً لنفس تعتقد غير توحيد الله والايمان برسوله والأئمة من إله واحداً بعد واحد ، وتقصر في الأعمال المفروضة التي هي وسم الطاعة في النفس ، فهي الهاوية في نار جهنم ، والغاوية على نفسها بالويل والندم ، ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدراهم الزيف التي ترد ، أو كالبهرج الذي جملة الجيد لا يعد بكونها مغشوشة بغير ما امر الله به فلا تلائم الجواهر الشريفة ، ولا تجاور العناصر النفيسة ، فأي خسران أعظم ، وأي ندامة أكبر من أنفس يجيئها الموت وهي خالية من الخيرات التي تقرب درجتها ، فتحصل في دار مالكها رب العالمين ، وسكانها أصحاب اليمين ، ورؤساؤها أنبياء الله تعالى ذكر ، وقوادها أولياء الله تعالى ، وخيراتها تفيض ، وماء بركاتها لا يغيض ، فلا يكون لها إله تقبل بها الخيرات ، ولا ترد فتستأنف العمل من الصالحات ، هيهات هيهات ، كلا لا سبيل الى اقتناء الفضائل القدسانية

ولا الى نيل هاتيك الدرجات النفسانية الا بآيات تتهيأ لها مما يليق بها بالتزود من دار الدنيا ، ولا سبيل الى ذلك الا بالتمسك بما أمر الله به من الطاعة ، وتهذيب النفس بالأخلاق الرضية ، وتحسينها بالأعمال المرضية ، وتحليتها كما تُحلّى العروس بأصناف الحلي ، وتزيينها كما يُزين الميت عند التجهيز ، فيوشك حينئذ ان يكون له مآب كريم ، ويتصرف به بركة ونعيم ، حشرنا الله مع موالينا الطاهرين اهل الخيرات الالهية ، وجمع بيننا وبينهم في دار القرار ، ونوّر عقولنا بطاعتهم ، ورزقنا خير هذه الأيام ، انه قدير .

وبعد . فإنا في انجاز الوعد في اول الرســالة ، نختمها بالحمد لله مالك الأرواح ومتوفيها ، وبالصلاة على معدن السلامة ومحل النور والكرامة ، محمد وآله الأبرار الطاهرين ، وبالسلام على هادينا المنصور أبي علي الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وعلى ابنــائه الطاهرين ، والأئمة من عقبه المنتظرين .

تمت رسالة مباسم البشارات بالامام الحاكم بامر الله امير المؤمنين (ع) وصلواته وبركاته وسلامه على نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين ، كتبها عبد مولانا وخادمه وآله اجمعين ، الفقير الحقير الأمير حسن العمر من أهالي القدموس ، غفر الله له ولوالديه ، ولكل من حافظ على أسرار هذه الرسالة ، ولم يطلع عليها الا كل من بلغ درجة الاستحقــاق من الاخوان ، عهد وميثاق وايمانات مغلظة بان لا يبوح بما فيها ، والسلام على امام زماننا وعصرنا ، وهادينا الى الصراط القويم ، انه نعم المولى ونعم النصير .

وكان الفراغ من نسخها اليــوم الخامس عشر من شهر شعبان المبارك

سنة ١٢٨٣ من هجرة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين تمت وبالحمد والشكر عمت .

في هذه الرسالة زبدة آراء الاسماعيلية بالامامة وبالامام الحاكم بامر الله بالذات ، وتصديقاً لما ذكرناه سابقاً بان الاسماعيلية يعتبرون الامامة رياسة نفسانية روحانية ، ودرجة قدسانية بنالها الأئمة بتأييد الله تعالى لذلك نجد مؤلف هذه الرسالة شيخ فلاسفة الاسماعيلية وحكيمها الأكبر أحمد حميد الدين الكرماني يصرّ على ان الامام الحاكم بامر الله (ع) ليس الا إماماً في وقته ، وقائداً لأهله ، وقائماً في زمانه ، وشفيعـــاً للمتعلقين بحبله . فهو وان لم يكن سابعاً من الاسابيع فله من القوة والتأييد الممتد من الله بموازنته .

ولقد اعتبر الكرماني ، من وجهة النظر الاسماعيلية ، أن أفعال الحاكم هي أفعال مظلمة حيرت العقول ، واظلمت المقاصد ، لانها عذاب وامتحان لاهل الدعوة عظيم .

وتصديقاً لما ذكرناه آنفاً بان الاسماعيلية حاولوا التوفيق بين كافة الأديان السماوية نرى الكرماني في رسالته هذه يستشهد بنصوص من الكتب السماوية المقدسة : التوراة ، الانجيل ، والقرآن في البشارة بالامام الحاكم بامر الله (ع) .

ومن الملاحظ ان الكرماني قد شعر بما وصلت اليـه الدعوة نتيجة للخلاف الشديد الذي ذر قرنه بين الدعاة ، فانقسموا الى عـدة فرق واضطربت احوالهم بسبب الآراء الجديدة التي تدعو بصراحة الى تأليه الامام الحاكم بأمر الله فعالج هذه الناحية ، وبيّن رأيـه فيها بوضوح

مبيناً خطل هذا الاعتقاد ، ومشيراً الى مواضع الغلو فيه .

وعلى العموم نجد في سطور هذه الرسالة خلاصة آراء الاسماعيلية في شخصية الامام الحاكم بامر الله (ع) ، لذلك نرى من الواجب ، قبل استعراض العقائد الدرزية ، ان نتطلع بدقة وروية الى ما حملته الرسائل والكتب المقدسة الدرزية من آراء ورموز تشير الى شخصية الحاكم بامر الله .

ومما لا شك فيه بان الامام الحاكم بامر الله (ع) هو عند الدروز بشر في الاعين المجردة ، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر ، ولكن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة انسية سماها الناس « الحاكم بامر الله » ، مثل ما يتخذ الانسان ثيابه فيرتديها ، ثم ينزعها ويرتدي غيرها ، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه في شيء ، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التي اتخذها ولا هي شبيهة به ، وهو يظهر في هذه الصورة الناسوتية المتغيرة ، ففي كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الاخرى .

وباعتقادي ان هذه النظرية لا تختلف عن النظرية الاسماعيلية التي تعتبر الامـــام من حيث الظاهر من البشر ، وانه خلق من الطين ، ويتعرض للأمراض والآفات والموت ، مثل غيره من البشر ، ولكن في التأويلات الباطنية يسبغون عليه (وجه الله) ، (ويد الله) ، و (جنب الله) ، وانه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة .

وان القوة التأييدية الموجودة في الامام من الله تعالى تنتقل بعد وفاته عن طريق النص الى الامام المنصوص عليه ، بدون ان يتأثر جوهر تلك القوة بالجسم الذي كانت فيه ؛ وهكذا دواليك حتى نهاية

الادوار والاكوار .

وما دمنا في صدد الحديث عن شخصية الامام الحاكم بامر الله لا بد لنا من التلفت الى الرسائل والكتب الدرزية المقدسة التي صنفها حمزة بن علي مؤسس هذا المذهب لنرى رأيه في الموضوع .

يقول سيدنا حمزة بن علي هادي المستجيبين ، في رسالة كشف الحقائق :

« توكلت على مولانا البار العلام ، من لا يدخل في الخواطر والاوهام ، ولا تحيط به الشهور والاعوام ، المنزّه عن الناطق والاساس والامام ، حاكماً يجل وصفه عن الحكام ، الحمد لمعنى المعاني رب المسمى والاسم ، والشكر للعلي الأعلى خالق الروح والجسم ، مبدع الآحاد والازواج في القدم ، وباعث الارزاق ومظهر القسم ، رب المشرقين والمغربين واله الاصلين والفرعين ، ومن صلى له الى القبلتين وأخذت له الدعوة في العالمين ، ومن أشارت اليه حدود الدعوتين ، وعبدوه جميع الموحدين في الحالتين ، سبحانه تعالى عن تشبيه المخلوقين والمبدين ، علواً كبيراً ... »

ويذهب حمزة بن علي ، في رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد ، الى ان « مولانا جل ذكره وعز اسمه ، وجل سلطانه الحاكم الاحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يتخذ في حقيقة لاهوته صاحبة ولا ولد ... ومولانا سبحانه معلل علة العلل جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه ليس له شبه في الجسمانيين ، ولا ضد في الجرمانيين ، ولا كفؤ في الروحانيين ، ولا نظير في النفسانيين ، ولا مقام له في النورانيين ...

لان الحجاب هو المحجوب ، والمحجوب هو الحجاب ، ذلك هو ، وهو ذلك لا فرق بينهما . »

ومن ثم يقول في مكان آخر من نفس الرسالة :

« مولانا سبحانه مبدع الابداع ، وخالق الانواع ، ومظهر السابق والتالي المطاع ، منزّه عن الصفات والمبدعات ، لا تحيط به الجهات ، ولا تقدر على وصفه اللغات ، سبحانه وتعالى عما يصفون ... على توحيد مولانا جل ذكره ومعرفة ناسوت المقام ، والنور الشعشعاني التمام ، ومعبود جميع الأنام . الصورة المرئية الظاهر لخلقه بالبشرية ، المعروف عند العالم بالحاكم ، وما ادراك ما هي حقيقة الحاكم ، ولم تسمى بالحاكم في هذه الصورة دون سائر الصور ، وعبد من عبيده يحكم على جميع الحكام ... فيجب على الموحدين المستبصرين الكشف عن عن هذا الاسم وحقيقة الحاكم وقوله الحاكم بامر الله » .

ومن ثم يخلص إلى القول في نفس الرسالة :

« لا يغيب اللاهوت عن الناسوت لأنكم لا تستطيعون النظر اليه ، ولا لكم قدرة على إحاطة حقيقته ، وأراد بالحاكم أي يحكم على جميع النطقاء والأسس والأئمة والحجج ويستعبدهم تحت حكمه وسلطانه وهم عبيد دولته ، ومماليك دعوته ، الحاكم بذاته ، والذات هي حقيقة لاهوته سبحانه الذي هو الحكم به لا من قبل من يأمره وينهاه ، ومثله في الصورة لا في الحقيقة ، لأن حقيقته لا تدرك بوهم ، ولا يحيط بعلمه فهم ، ولكن نضرب لكم مثلاً على مقدار طاقتنا ، وتمكن استطاعتنا ، ليقف المستجيبون على بعض قدرة مولانا جل ذكره ، فمثله كمثل شخص ناطق جسماني وله روح لطيف ، متعلقة بذلك الجسد الكثيف ، وله

عقل يدبر الأشياء بذلك العقل ، وهو يعلم أين منتهى عقله ، والناس لا يعلمون بعقله ولا بموضعه ولا حقيقته ، ولا يدركون من عقله إلا بمقدار ما يظهره من عقله ، والعقل هو الروح اللطيف لكن ظهوره من الجسد الكثيف ، ولا يقدر احد ان يقول بان العقل يظهر بلا جسم ، لأن الروح لا تدرك إلا بالجسم . »

هذه هي خلاصة الرموز والاصطلاحات التوحيدية التي وردت في أكثر الرسائل والكتب الدرزية المقدسة ، والتي تذكر أن للامام الحاكم بامر الله حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام .

فالمعبود لديهم كما يستدل من رموزهم وإشاراتهم ومصطلحاتهم التأويلية الباطنية ليس له حد وهو واحد لا يشبه الكائنات في شيء . ولم يتخذ صاحبة ولا ولد ، ولا تنسب اليه حركة ولا راحة ، وهو البداية والنهاية ، فإذا تحدث عنه متحدث ووصفه بصفة فانما يقول ذلك ضرورة وتقر بالعقول والأفهام لعجز المتحدث عن الوصول الى حقيقة المعبود ، فاذا قال مثلاً انه تعالى باريء كل شيء ، ومكوّن كل شيء ، وانه معلل علة العلل القديم الأزل ، فلا يقال ذلك عن حقيقة المعبود ، لأن حقيقة المعبود تعجز عن الوصول اليها . فنرى بانها لا تختلف كثيراً عن الرموز والاشارات التي وردت في أكثر الكتب الاسماعيلية التي تبحث في كنه الله تعالى ، وطريقة توحيده ، ففي كتاب الينابيع مثلاً — وهو كتاب الفه كبير فلاسفة الاسماعيلية السجستاني — نجد ينبوعاً كاملاً في هوية المبدع لاهو هو كهويات المبدعات ، ولا هو لاهو كلاهوية الأيسيات ، بل هويته اظهار نفي الهويات واللاهويات عن المبدع سبحانه ، ولو كانت للمبدع سبحانه هوية مثبتة عند المبدع سوى نفي

الهويات واللاهويات فبأي شيء أثبتها المبدع ؟ بأيسيته التي هي العقل أم بليسيته التي هي الأبداع ؟..

ويخلص السجستاني في ينابيعه الى القول :

« وإنما نفينا الهويات عن المبدع الحق لأن كل هوية تقتضي علة ، كما وجدنا أشرف ذوات الهويات العقل ، فقد اقتضى هويته علة ، وهي امر الله ، جل جلاله ، وهو المبدع الحق غير ذي علة – تعالى عن ذلك – فلم يقتضِ هوية . واذا لم يقتضِ هوية ، لم يقتضِ نفيها – وهو لاهو – اذ ليس وراء اللاهويات اثبات شيء له (هو) وقد عظمناه عن ذلك تعالى ، وتقدس عما اضاف اليه الملحدون . »

وفي مؤلفات حجة العراقين الفيلسوف الأسماعيلي أحمد حميد الدين الكرماني نجد الآراء الكثيرة في التوحيد والتجريد والتنزيه لله سبحانه وتعالى التي تلسجم مع ما يذهب اليه الدروز في حديثهم عن لاهوتية المعبود . وهم في ذلك لا يختلفون عما يقول به جمهور المسلمين من السنة والشيعة .

ونحن نعذر اولئك الذين فسروا المصطلحات والتعابير التأويلية الباطنية التي وردت في بعض الكتب الدرزية المقدسة تفسيراً غرضياً لا ينسجم مع الواقع والحقيقة ، فزعموا بأن هؤلاء يقصدون من وراء هذه المصطلحات الى اطلاق الالوهية على شخصية الحاكم بأمر الله بالذات .

ولقد غاب عن مفهوم هؤلاء بأن الدروز في توحيدهم لمعبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى ، فهم يذهبون الى ان الله الذي لا إله الا هو ، وحده لا شريك له ، جل ذكره ،

وتقدس سره عن وصف الواصفين ، واحد أحد فرد صمد ، منزه عن الأزواج والعدد ، خالق السماوات والأرض ، باري البرايا بقدرته وحده . فهو تعالى لا بجسم ولا في جسم ، ولا يعقل ذاته عقل ، لا ضد له ولا مثل ، ولا يوجد في اللغات ما يمكن الاعراب عنه بما يليق به .

وان اصدق التوحيد لدى الموحدين الذين أطلق عليهم خطأ اسم الدروز ، ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى ، وان الله انطق بالحق والهدى آدم الكلي ، ونوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد . فجاء كل منهم بتعاليمه ودينه متمماً للآخر ، باعتبار ان الأديان لديهم تتعاقب وتتطور ، ويكمل بعضها الآخر ، فيؤيد ما سبقه . وان مرجع هذه الأديان جميعها هو الله الذي خلق النور والظلمة ، وخلق العالم دفعة واحدة ، ثم تجلى ناسوته في كل دور من الأدوار فيضاً من نوره الالهي ، لتكون له على المخلوقات الحجة ، وانبعث هذا النور في أنبيائه ، وفيمن أكملوا الرسالة من الأئمة المعصومين .

ونحن لا نستغرب اذا رأينا دعاة الدروز الموحدين يأخذون بجمل الأصول الاسماعيلية الروحانية ، فيبلورونها ويكيّفونها حسب متطلبات دعوتهم الجديدة التي تنهد باعتقادي الى التوقف في تسلسل الإمامة الاسماعيلية بمفهومها الروحي عند شخصية الامام الحاكم بامر الله . بينما نرى الاسماعيلية يستمرون في هذا التسلسل ، والذي لا يزال معمولاً به حتى الآن لدى الاسماعيلية الآغا خانية .

وفي الصفحات التالية سنحاول استخلاص بعض الأصول المذهبية الاسماعيلية التي جعلت الأساس الذي ارتكزت عليه اصول ودعائم الدعوة الجديدة ، كما واننا سنحاول بقدر الامكان الاتيان على ذكر

مؤسسي هذه الدعوة ، واستعراض الخلاف الذي وقع بين دعاة المذهب الجديد أنفسهم .

ظهور الدعوة الجديدة بسبب اضطراب احوال الدعوة الاسماعيلية :

يُستدل من النصوص والوثائق التاريخية الموجودة لدينا ، بأن الداعي الاسماعيلي حمزة بن علي بن أحمد الزوزني – نسبة الى زوزن في بلاد فارس – وفد على مصر سنة ٤٠٥ هجرية ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون الى دار الحكمة لحضور مجالس الحكمة التأويلية . وما عتم ان اصبح ممثلاً لدعاة الفرس ، وهمزة وصل بينهم وبين الإمام الحاكم بأمر الله ، الذي ضمّه الى حاشيته ، وأسكنه في قصره .

وفي بعض الوثائق الاسماعيلية السرية ما يشير الى انه أصبح من الدعاة الأربعة الحرم ، الذين يكونون دائماً في معية الإمام ، ولا يفارقون مقر قيادته أبداً .

وسرعان ما أصبحت له حظوة عند الامام الحاكم ، بعدما اظهره من اخلاص ، وما بذله من جهد في تقوية أواصر الدعوة وتركيز دعائمها في فارس ، كما انه ساهم مساهمة فعالة في خوض غمار الجدل الديني وفلسفة المذهب الذي يبشر به ، واستطاع بما اوتيه من حنكة ودراية ومقدرة ودهاء وخيال خصب ، ان يجمع حوله بعض الدعاة ويتفقوا سراً للدعوة الى تأليه الامام الحاكم بأمر الله ، معتمداً في دعوته

هذه على اصول واحكام جديدة استنبطها من صميم الأصول والأحكام الاسماعيلية .

والظاهر ان حمزة بن علي ، كما يتضح من رسائله ، قد اتفق مع دعاته على ان لا يجهر أحدهم او يكشف عن مضمون المذهب الجديد إلا بعد تلقّي الأوامر من حمزة نفسه ، ولكن الداعي محمد بن اسماعيل الدرزي ، المعروف بنشتكين ، تسرع في الكشف عن اسرار الدعوة الجديدة مما أثار حفيظة حمزة وغضبه فقال في رسالة الغاية والنصيحة :

« وغطريس هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو الضد الذي سمعتم بانه يظهر من تحت ثوب الامام ، ويدّعي منزلته ويكون له خوارج ، وله بلاد ، ثم تنطفي ناره . وكذلك الدرزي كان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعي ، والسترة التي أمره بها إمامه حمزة ابن علي بن احمد الهادي الى توحيد مولانا جل ذكره . »

ونفهم مما سيأتي من أقوال حمزة بن علي بأن الدرزي لم يكن وحيداً بل كان معه دعاة آخرون ، وان الدرزي كان يرنو الى منصب الإمامة الذي أطلقه حمزة بن علي على نفسه ، وذلك ما يؤكده حمزة نفسه حيث يقول في نفس الرسالة :

« وادّعى منزلته حسداً له واعجاباً بروحه ، وقال قول ابليس ، وكذلك الدرزي سمى نفسه في الأول بسيف الايمان ، فلما أنكرت عليه ذلك وبينت له ان هذا الاسم محال وكذب ، لأن الايمان لا يحتاج الى سيف يعينه بل المؤمنون محتاجون الى قوة السيف وإعزازه ، فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد في عصيانه ، وأظهر فعل الضدية في شأنه ، وتسمى باسم

الشرك وقال : أنا سيد الهادين ، يعني أنا خير من إمـــامي الهادي ، وغيره ما كان يضربه من زغـــل الدنانير والدراهم ، وحسب ان أمر التوحيد مثله يحتمل التدليس ... »

ولم يكتف حمزة باتهامه بالحسد وطلب المناصب ، بل اتهمه بتزوير الدراهم ، ومن ثم يأتي على ذكر أعوان الدرزي فيقول :

« وفرعون البرذعي ، وهامان علي بن الحبال ، لأن فرعون كان داعي وقته ، فلما أبطأ الناطق قال : انا ربكم الاعلى يعني إمامكم الاعظم ، وهامان الذي فتح له باب المعصية . »

ومن ثم يقول حمزة في رسالة الصبحة الكائنة :

« وما منكم أحد إلا وقد نصحته بحسب الهداية الى دعوته فمنكم من استجاب ، ونكث مثل علي بن أحمـــد الحبال الذي كان مأذونا لي وعلى يده استجاب نشتكين الدرزي . »

ويذكر في رسالة الرضا والتسليم :

« وأما البرذعي فأنا أرسلت اليه ودعوته الى توحيد مولانا جـــل ذكره ، فلما ارســل اليه الدرزي رسوله ومعــه ثلاثة دنانير وأوعــده بالمركوب والخلع فمضى الى عنده وفتح له أبواب البلايا والكفر ، أما أصحابه كلهم فمكتوبة عنـدي عليهم وثائق بالشهود العادلة ان لا يرجعوا عما سمعوه مني أبداً . »

ومن خلال هذه الكلمات يتبين لنا ان حمزة عندما عرض على البرذعي أمر الاستجابة الى دعوته شرط عليه أن يأتيه بتوقيع الامام الحاكم ، وهذا يعني ان الامام الحاكم كان يعلم بدعوة حمزة وكان على اتصــال

وثيق به ، فلو لم يكن ذلك لما طلب البرذعي توقيعه ، او بالأحرى كان حمزة يقول للداعي الذي يود ان ينضم اليه بأن الامام الحاكم هو الذي أوعز اليه بان ينادي بتأليهه وتقديســه على الصورة التي بشر بها حمزة ودعاته .

وعلى العموم يشتمّ من رسائل حمزة العديدة بانه قد تمكن سراً من استمالة عدد كبير من الدعاة الى جانبه ، وبعد ان نظم دعوته الجديدة ووضع لها المراتب والحدود اسوة بالدعوة القــديمة التي رضع لبانها أمر الكل بالستر والتقية وبعدم البوح بشيء مما يضمرون ، ولكن الدرزي اختلف مع حمزة على مناصب الدعوة فنازعه الرئاسة والألقاب ، وذلك ما ظهر بجلاء في اقوال حمزة واقوال أغلب المؤرخين الذين تكلموا عن هذا الموضوع فسمى نفسه « سيف الايمان » و « سيد الهادين » وذهب الى انه خير من حمزة وأجدر منه ؛ وان الدرزي كان يلعن مخالفي المذهب بينما يقول حمزة « اللعنة لا تزيد ولا تنقص منه » ولهذا حظر على اتباعه ومريديه سب مخالفيه جرياً على السجل الذي أصدره الإمام الحاكم بمنع سب السلف الصالح ، كما ان حمزة رأى أن يخاطب النــاس جميعاً بالتي هي أحسن : « فاذا فعلت هذا مالت قلوب العالم الينا وارتفعت السنتهم عنا » .

وباعتقادي ان كل هذه الأشياء ليست خلافات عميقة جوهرية تتناول اصول المذهب ، ولكن الخلاف الجوهري كما يتضح من أقوال حمزة انما كان بسبب زعامة المذهب وقيادته ، وتسرع الدرزي في الكشف عن اسرار الحركة الجديدة قبل ان يجهر بها حمزة بسنة واحدة تقريباً .

والتاريخ يذكر بأن هنــاك داعياً آخر كان يشرف على الدعاية للمذهب الجديد ، وهو الحسن بن حيدرة الفرغاني ، المعروف بالأخرم او

الأجدع ، وانه هو الذي كان يبعث بالرقاع الى الناس يدعوهم فيها الى العقيدة الجديدة دون ان يشير الى حمزة ، وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة اجوبة على رقاعه ، وقيل ان نظريته انتشرت بسرعة البرق بين الدعاة والعلماء ، فاستدعاه الحاكم بأمر الله ، وخلع عليه واركبه فرساً مطهماً ، وسيّره في موكبه ، وأولاه عطفه ورعايته ، غير انه لم تمض على ذلك عدة أيام حتى وثب على الفرغاني رجل من متعصبي السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه ، بينما كان يسير معهم بالقاهرة سنة ٤٠٨ هجرية ، فغضب الحاكم بأمر الله وأمر باعدام قاتله ، ودفن الأخرم على نفقة القصر في حفل رسمي .

ذكرنا ان الداعي الأخرم كان يوزع الرقاع على الدعاة والعلماء الاسماعيليين ، ويطلب منهم الرد عليها والظاهر ان الأخرم كتب الى حجة العراقيين أحمد حميد الدين الكرماني يعرض عليه نظريته الجديدة فكتب له الكرماني تحت عنوان « الرسالة الواعظة » يشرح فيها خطل نظريته وخروجها عن خط سير الدعوة الاسماعيلية السليم ، ويعتب عليه كونه لم يتوّج رقعته بالبسملة وبالصلاة على النبي وعلى الأئمة من ذريته فقال :

« ولا تخلو ان تكون في تظاهرك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام إما متبعاً له او غير متبع ، فان كنت متبعاً فبمخالفتك اياه فيما امرك به في السجلات المكرمة من السلام عليه وعلى آبائه الطاهرين في جميع المكاتبات ، وقعودك عن الاقتداء فيما يفعله من تصدير سجلاته وجميع مكاتباته وخطبه ببسم الله الرحمن الرحيم ، والاستفتاح به والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد والتبرك بها ... واسم الأئمة الطاهرين ، وامير المؤمنين سلام الله عليهم ، الذين هدم الله بهم اركان الضلال ، وبين بمكانهم الحرام من الحلال ، ولا يقبل الله اليه عملاً من أعمال

العباد إلا بولايتهم ، ولا صلاة من الصلوات الا بالصلاة عليهم » .

ومن خلال سطور الرسالة الواعظة يمكننا ان نستنتج بان الأخرم قد طرح على الكرماني عدة اسئـلة تتعلق بجوهر الدين واصوله وفروعه ، ومما قاله :

« من عرف منكم إمام زمانه حياً فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي او وصي او إمــام ... وان من عبد الله من جميع المخلوقين فعبـادته لشخص لا روح فيـه ... قد قامت قيـامتكم وانقضى دور ستركم ... »

ومن ثم يسأل الكرماني عن معنى الاسلام وشرائطـه ؟ وعن الذي يتقرب به الى المعبود ؟ وما الذي استعبد الله به الخلق ؟ وهل الشريعة محدثة ام قديمة مع الدهر ؟ وهل الشريعة هي الدين ولا دين غيرها ام هي طريق الدين ؟ وما النفس ؟ وما العقل ؟ وما غاية الابداع الذي فوق الروحانيين والجسمانيين ؟ ولقد أجاب الكرماني على كل هذه السؤالات بروية واتزان ، شارحاً مفصلاً المعـاني الباطنية والفلسفيـة ، والرموز والاشارات ، ومما قاله :

« واذا كان الكلام قــد اسفر عن الامر في ان الله تعالى ليس بجسم ، ولا في جسم ، وهو متقدس عن صفات الجسم على كونه تعالى متقدساً ايضاً عما يدرك بالعقول والأفهام ، فقد ظهر ان العبادة ليست لشخص ، وان المعبود ليس بشخص .. »

ثم يرد على الأخرم تساؤله عن معنى الاسلام وشرائطه فيقول :

« فعلم ذلك شريف مثبت في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ،

بايدي سفرة ، كرام بررة ، وهو عندنا معشر الدعاة وديعة من جهة أربابها : الرسول صلى الله عليه ، والوصي عليه السلام ، والقائم فينا عبد الله ووليه ابن نبيه ، الإمـــام الحاكم بامر الله امير المؤمنين ، وآبائه الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم اجمعين ... علينا ان نؤديها الى من استحق ممن أقر بفضلهم ، ودان الله تعالى بطاعتهم ... وأما قول اصحابك : ان المعبود تعالى هو امير المؤمنين سلام الله عليه ... فما امير المؤمنين عليه السلام ، إلا عبد خاضع له وطائع ، يسجد لوجهه الكريم ، ويعظمه غاية التعظيم ، وباسمه يستفتح ، وعليــه في اموره يتوكل ، وأمره اليه يفوّض ، والله تعالى قد فضله على خلقه ، وجعله من جهة رسوله محمد ﷺ ، خليفة له في أرضه ، ووسيلة لعباده الى جنته ، وأوجب طاعته على عباده ، وهو سلام الله عليه يتبرأ الى الله تعالى ممن يعتقد فيه ذلك ... وهو سلام الله عليه ينفي مـــا تنسبه انت واصحابك اليه عن نفسه ... فلولا اسدل امير المؤمنين عليه السلام ستر الأمن على المؤمن والمنافق ، والمسلم والكافر ، حتى استوت الأقدام فيه ، لكان الجواب عن ذلك التنكيل بك ، ثم قطع الوتين منـك ، وتجريد حد السيف عليك ... وبعد فاني انصحك ، ومن نكال الدنيا والآخرة احذرك ، واياك وهذه المقالات الشنيعة ، فلا تعقبك الا البعد عن الله تعالى ، وعن اوليائهم عليهم السلام ، ولا تكسبك الا العاقبة السوء ، ورد عنك من تبعك على ضلالتك ، رد بالاقرار لهم ببطلان ما ارتكبته ، وفساد ما ابتدعته ، ولا يغرنك الإغفال عنك ، وتب الى الله ، قبل ان تضيق عليك فرصة الامهال . »

هذا موجز ما ورد في الرسالة الواعظة التي انبرى فيها شيخ فلاسفة الدعوة الاسماعيلية في عصر الحاكم بامر الله لنفي ما ورد في رقعـــة الأخرم من رموز واشارات واصطلاحات اعتبرها الكرماني خروجاً عن

الأصول والاحكام الاسماعيلية ، مما يعطينا الدليل الواضح على أن الخلاف كان كبيراً بين دعاة الاسماعيلية وبين انصار الدعوة الجديدة ، ويحدثنا المؤرخ ابن البطريق عن هذا الخلاف فيقول :

« وصار اصحاب الهادي اذا لقوا اصحاب نشتكين داعي الدعاة لعن بعضهم بعضاً ، ويكفر كل فريق منهما بالآخر . »

وعلى العموم فان الدعاة الى المذهب الجديد ظلوا ينشرون دعوتهم في الخفاء ويدعون الناس سراً لمبادئهم وتعاليمهم فاستجاب لهم خلق كثير حتى قام الدرزي واعلن الدعوة سنة ٤٠٧ هجرية مما ادى الى انقسام الدعاة والمؤمنين بالمذهب الجديد الى فريقين : فريق الدرزي وفريق حمزة .

ومن استقراء التاريخ يتبين لنا ان الدرزي قام سنة ٤٠٨ هجرية ، ومعه نحو خمسمائة من أتبـــاعه بزيارة قصر الحاكم بامر الله ، فهاجمهم جموع الناس والجند فقتل منهم نحو أربعين رجلاً وهرب الباقون ، وفي اليوم التالي هاجم الغوغاء مقر حمزة في مسجد ريدان وكان معه اثنـا عشر رجــلاً فقط ، وكادوا يُقتلون لو لم يصــدر امر الحاكم بوقف القتال .

أما الدرزي فالأقوال متضاربة حوله ، فالأنطاكي وابن العميد يذكران أنه قتل في الثورة سنة ٤٠٨ هجرية . أما ابن البطريق فيـذهب إلى أن بعض غلمان الأتراك عمل على قتل الدرزي حيث وثب اليه وهو في موكب الحاكم فقتله ، ونهب داره ، وافتتنت القاهرة ، وأغلقت أبوابها ؛ ولبثت الفتنة ثلاثة أيام وقتل فيها جماعة من الدرزية ، ولكن حمزة بن علي يذكر في رسائله بان اصحاب الدرزي قد اعتُقلوا واودعوا السجن . وقيل ان الدرزي استطاع أن يفلت من قبضة الغوغاء وتوجه الى وادي

التيم وظل يبشر أهل الجبال بمذهبه ، ولذلك عرف أهالي هذه المنطقة الذين اعتنقوا دعوته بالدروز . ويقال ان الامام الحاكم هو الذي أمره بالرحيل إلى هذه المنطقة في الشام ، ورزده بالمال اللازم ، وقيل انه قتل سنة ٤١٠ هجرية .

وبعد اختفاء الدرزي والأخرم صار أمر الدعوة الجديدة كله إلى حمزة بن علي ، فلقب بـ « هادي المستجيبين » و « إمام الزمان » و « المنتقم من المشركين بسيف مولانا » ، الى آخر ما هنالك من القاب يجدها الباحث في رسائله الكثيرة التي أودعها اصول وأحكام دعوته .

ويتبين من رسائل حمزة بن علي انه بعد هذه الحوادث والثورات توارى عن الأنظار وجعل مقره السري خارج القاهرة في مسجد (تبر) ، ولكن خصومه هاجموا مقره وأحرقوا باب المسجد ، ثم وجدوا داخل المسجد باباً من الحجر لا تعمل فيه النار ويصعب نقب جداره . ويقول حمزة :

« ان الباب الحجري القوي هو خوخة ضيقة لا يستطيع أحد أن يدخلها إلا ان كان من اصحابها واربابها . »

وفي رسالة الغاية والنصيحة يذكر هذه الحادثة فيقول :

« وقد اجتمعت عند المسجد سائر الاتراك بالجواشن والزرد والخوذ والتجافيف ، ومن جميع العساكر والرعية زايد عن عشرين الف رجل وقد نصبوا عليّ القتال بالنفط والنار ، ورماة النشاب والحجارة ، ونقب الجدار ، والتسلق الى الحيطان بالسلالم يوم كامل ، وجميع من كان معي في ذلك اليوم اثنا عشر نفساً منهم خمسة شيوخ كبار وصبيان

صغار لم يقاتلوا ، فقتلنا من المشركين ثلاثة أنفس وجرحنا منهم خلق عظيم لا يحصى ، حتى طال على الفئة القليلة الموحدة القتـال ، وكادت الأرواح تتلاشى وتبلغ التراق .. »

وفي النهاية لم يتمكن احد من الوصول اليه او الى اتباعه المتحصنين داخل المسجد . وتذكر بعض المصادر التاريخية ان الامام الحاكم بامر الله كان يسكن حمزة بن علي معه في قصره كلما اشتد طلب الناس اليه ، ولما خمد اوار الفتنة عاد حمزة بن علي الى مقره في مسجد « تبر » ، وظهر على مؤيديه واتباعه الذين كثروا حتى قيل ان عددهم بلغ مائة الف . فأخذ حمزة ينظم دعوته ، ويعين الدعـــاة في الجزر والاقاليم مقتبساً نفس النظام الذي تعلمه عندما كان اسماعيلياً . واخذ يلقب نفسه والدعاة الذين قبلوا معاونته ويخلع عليهم وعلى نفسه النعوت والصفات الدينية الروحية وجعل الحدود الدينية مرتبة كما يلي :

١ – قائم الزمان الامـام الأعظم حمزة بن علي بن احمد هـادي المستجيبين .

٢ – الحجة الصفية الرضية الشيخ المجتبى ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد ابن حامد التميمي صهر حمزة بن علي .

٣ – الشيخ الرضي فخر الموحدين وعماد المستجيبين أبو عبد الله محمد ابن وهب القرشي .

٤ – الجناح الأيمن ، نظام المستجيبين وعز الموحدين أبو الخير سلامة ابن الوهاب السامري .

٥ – الجناح الأيسر الشيخ المقتني لسان المؤمنين وسنـــد الموحدين ومعدن العلوم بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي .

وستتحدث عن هذه الترتيبات والتنظيمات عندما نتحدث عن الأصول والأحكام العقائدية ، وبعـد ان فرغ حمزة من تنظيماته ورتب دعـاته وحدوده شرع في ارسال الرقع الى الملوك والامراء وكبار رجال العلم والدين يشرح لهم فيهـا نظريته الدينية ويدعوهم الى الدخول في مذهبه الجديد .

وتـؤكد النصوص التاريخيـة أن حمزة كان يعتمـــد على صهره وساعده الأيمن أبي ابراهيم اسمـــاعيل التميمي الذي ينفذ بدقة ونشاط اصعب المهمات واشدها خطراً . وبواسطة هؤلاء الدعاة الكبار والحدود العظام ، الذين قام المذهب على سواعدهم ، استطاع حمزة بن علي هادي المستجيبين ان ينشر دعوته في كافة الاوساط ، وفي اكثر البلدان التابعة للدولة الفاطمية وخاصة في بلاد الشام .

ولما أعلنت غيبة الامام الحاكم بامر الله في شوال سنة ٤١١ هجرية اعلن حمزة في رسالة الاعذار والانذار بأنه الامام ، وانه سيغيب ايضاً ، ولكنه سيعود ثانية بعد فترة وجيزة . ويذكر بهاء الدين المقتني انه عندما غاب المعبود امتنع قائم الزمان عن الوجود .

ويحدثنا الانطاكي فيقول بأن حمزة بن علي توارى عن الانظار بعد غيبة الحاكم ، ثم قتل بعد ذلك ، وطورد انصـــاره ، ومزقوا كل ممزق . ولكن النصوص الدرزية السرية تشير بصراحة الى ان حمزة بن علي استتر في مصر مدة ثلاث سنوات كتب خلالها رسائل كثيرة ، ولما وجد أن دعوة التوحيد قـــد بلغت الأوج في بلاد الشام ، رأى من الضرورة بمكان ان يتوجه الى وادي التيم بصحبة حـــدوده الحرم أبي عبد الله محمد بن وهب القرشي وأبي ابراهيم اسماعيل بن حامد التميمي ، وأن يلقي أعباء الدعوة في مصر على الداعي بهاء الدين أبي الحسن علي

ابن أحمد السموقي المعروف بالضيف باعتباره لســـان الدعوة ووحداً من حدودها العظام .

واستمر بهاء الدين ينشر الدعوة ، ويوجه رسائله الى الملوك والامراء يدعوهم الى الدخول في مذهبه ، كما كتب الى الذين ارتدوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعاته ، مثل معاد بن محمد وطاهر بن تميم اللذين كانا داعيين ثم تحولا عن عقيدة التوحيد ، فاضطر بهاء الدين الى ان يكتب لهما رسالة سنة ٤٢٢ هجرية سماها رسالة « التنبيه والتأنيب » ويتبين من فحوى هذه الرسالة وغيرها من رسائل بهاء الدين أن عدداً كبيراً من دعاة المذهب الدرزي ادخلوا آراء جديدة على اصول المذهب .

ومن هذه الرسائل رسالة « الحقائق والانذار والتأديب لجميع الخلائق » وجهها بهاء الدين سنة ٤٢٥ هـ . الى اتباعه في جبل لبنان وانطاكية واقليم حوران ووادي التيم يندد فيها ببعض الافكار التي انتشرت بينهم ويعتبرها مخالفة لأصول المذهب ولتعاليم قائم الزمان ، واتهم الشيوخ الذين يوزعون هذه الافكار بينهم بأنهم دجالون مخادعون .

ولما شعر بهاء الدين باضطراب الأحوال ، بعد ان كثرت الآراء الدخيلة في المذهب اخذ يهدد اتباعه باعتزال الدعوة وبالفعل اعتزلها عام ٤٣٤ هـ ، بعد ان أقفل باب الاجتهاد حرصاً على الأصول والاحكام التي وضعها حمزة ابن علي ، والتميمي ، وبهاء الدين نفسه .

ومنذ ذلك الوقت اصبح شيوخ الدروز الموحدون يشرحون كتب ورسائل هؤلاء الدعاة بدون ان يفكروا او يحاولوا إدخال اي تعديل عليها . وليس بغريب ان نجد شيوخ الموحدين يمتنعون كلياً عن التبشير في مذهبهم وعقيدتهم ، بعد ان اغلقوا باب الانتساب اليها .

وهكذا تظهر الحقيقة واضحة جلية بأن الدروز والاسماعيلية يستقون من منبع واحد ، وان أقطاب المذهب الجديد في اسماعيليتهم الأصيلة نسباً وتفكيراً وعملاً . وفي تاريخ سلوكهم الخاص القائم على التوحيد والتجريد والتنزيه والزهد والتقشف . بل ترجع كافة أفكارهم الجديدة في أصل وضعها وتشجيعها وتمويلها الى اليد الاسماعيلية الخفية التي دأبت على بث روحها وكفالة انتشارها .

اصول واحكام وحدود مذهب التوحيد :

أشرنا فيما تقدّم من صفحات هذا الكتاب الى ان حمزة بن علي ، مؤسس مذهب التوحيد وواضع اصوله وأحكامه ، كان من كبار دعاة الاسماعيلية ، لذلك استعان على بلورة مذهبه الجديد بالأصول والاحكام الاسماعيلية التي تعلمها في مدارس الدعوة ، فحورها وأدخل عليها بعض التعابير والرموز والاشارات التأويلية الباطنية ، وأحاط مذهبه بهالة من التقية والزهد والتقشف . وجعل من لاهوت المعبود المحور الرئيسي الذي تدور عليه كافة الأفكار الجديدة في التوحيد والتجريد والتنزيه ، ولنتصفح رسائل حمزة لنراه يقول في نهاية رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد :

« ومولانا سبحانه ، معلل علة العلل ، جل ذكره وعز اسمه ، ولا معبود سواه ، ليس له شبه في الجسمانيين ، ولا ضد في الجرمانيين ، ولا كفوء في الروحانيين ، ولا نظير في النفسانيين ، ولا مقام له في النورانيين . »

وقوله : « وسلطان لاهوته لا يدرك بالعين ، ولا يعرف بالكيف والأين . »

وقوله في رسالة سبب الأسباب :

« فقولي توكلت على مولانا جل ذكره ، أردت به لاهوت مولانا الذي لا يدرك بوهم ، ولا يدخل في الخواطر والفهم . ما من العالمين احد إلا هو معهم وهم لا يبصرون ، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، وهو جل ذكره أعظم من ان يوصف او يدرك ، ومن اتكل عليه فهو يكفيه جميع مهماته . »

وفي رسالة الغاية والنصيحة يخاطب خصومه ومعارضيه مستنداً على بعض الآيات القرآنية :

« فقد كفرتم بنعمته سبحانه ، وجحدتم لاهوته وعظيم شأنه ، وأشركتم به فرعون وهامان ، وعجل وشيطان ، نعوذ بمولانا من ذلك ونبرأ اليه من كل معتقدهم ، وقد كان يجب عليكم ان تنظروا ما جاء في القرآن وتدبروا معاني حقائقه ، حيث قال لمحمد من رب السموات والارض ؟ والرب ههنا حجة لاهوت مولانا جل ذكره ، والسموات هم النطقاء ، والارض هم الأسس ، ثم عطف في الخطاب وقال : قل الله يعني لاهوت مولانا بالحقيقة الذي لا يحد ولا يوصف . قل أفتخذتم من دونه اولياء يعني الهة ، لا يملكون لأنفسهم نفعــاً ولا ضراً ، يعني لا ظاهراً ولا باطناً ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ، يعني المشرك بمولانا والموحد له ، اذ المشرك أعمى عن معبوده ، والموحد قد أبصره بحسب طاقته . أم هل تستوي الظلمات والنور . والظلمات هم أئمة الضلالة ، والنور هو إمام الهداية ، والأنوار هم حدود مولانا جل ذكره . أم جعلوا لله شركاء ، يعني بمولانا جل ذكره . »

وعلى هذه الصورة نجد الدروز الموحدين في توحيـــدهم لمعبودهم لا يختلفون عن نظرية التوحيد والتنزيه والتجريد الموجودة في كتب الاسماعيلية ،

وخاصة ما ذهب اليه الكرماني في كتابه راحة العقل ، حيث خصص سوراً كاملة ذات سبعة مشارع في التوحيد والتقديس ونفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى ، وذكر ايضاً انه تعالى لا ينال بصفة من الصفات ، لانه لا بجسم ولا في جسم ، ولا يعقل ذاته عاقل ، وهو ليس ليساً ولا ايساً . ولا يخرجون عن توحيد جميع المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى ، غير ان الموحدين يقولون بأنه تعالى خلق العالم دفعة واحدة ، وخلق البشر سوية ، ثم تجلى ناسوته في كل دور من الادوار :

« أظهر لناسوت صورته تأنيساً للصور ، فحار فيها الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن ادراك أفعالها ، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها .. فبتقدير أحكامه منّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخاطبتهم الصورة بالمألوف من اسمائهم فأنست العقول إلى ظاهر صورته ، واستدرجتهم الى معرفته بلطيف حكمته ، وامتناناً منه على خلقه » .

وانطلاقاً من هذه النظرية التوحيدية والتأويلات الباطنية ، ذهبوا الى أن المعبود أبدع من نوره العقل الكلي وهو الارادة ، وعلة العلل ، وهو القضاء والقلم ، وهو الف الابتداء ، والف الانتهاء ، وهو القائم بأمور الحدود الذي اجتمعت فيه الفضائل ، واستكملت الصفات التي جعلته الأقرب الى باريه ، بل المعلول من العلة ، والابداع اللاهوتي الأول في المرتبة ، لأنه جوهر بسيط روحاني ، وفيض من نور الله اجتمعت فيه صور الموجودات ، وهو اول الحدود الروحانية .

وهنا نرى حمزة يخالف في تأويلاته الباطنية وحدوده الروحانية ما ذهب اليه دعاة الاسماعيلية خلافاً جوهرياً ، حتى انه ينبري لمناقشتهم في

مراتب الحدود الروحانية حيث يقول في رسالة كشف الحقائق :

« إعلموا معاشر الموحدين ، رحمكم الباري العزيز الجبار ، بأن جميع المؤمنين والشيوخ المتقدمين تحيروا في أمر السابق وضده ، والتالي ونده ، فبعضهم قالوا بان السابق هو الغاية والنهاية ، والعبادة له وحده دون غيره في كل عصر وزمان ، وقالت طائفة منهم بان السابق نور الباري ، لكنه نور لا تدركه الأوهام والخواطر ، وهذا نفس الشرك بأن يكون الباري سبحانه لا يدرك ، وعبده لا يدرك ، فأين الفرق بين العبد والمعبود ؟ وهذا محال ، ونفس الشرك والضلال ، وبعضهم قالوا ان الكلمة فوق السابق ، لكنها هي هو ، وهو هي لا فرق بينهما ، وهذا ما لا يليق في المعقول بان يكون الذكر أنثى أو الأنثى ذكراً ، او يكون الأمير حاجباً او الحاجب اميراً ، أو تكون الشمس قمراً أو القمر شمساً ، أو يكون الليل نهاراً أو النهار ليلاً ، او تكون الأرض سماء او السماء أرضاً ، وهذا محال ؛ ثم إنهم كلهم يجمعون على أن السابق اصل السكونة والبرودة ، والتالي أصل الحرارة والحركة ، فجعلوا عالم العدم الذي لا يرى السابق ، وعالم الوجود التالي ، وهذا نقض لقولهم ان السابق هو المعبود ، فكيف يكون ذلك جائزاً وقد جعلوا التالي العالم الأكبر ، بل يجب من حجتهم واستشهادهم هذا بأن يكون التالي أفضل من السابق ، لأن التالي صاحب الحرارة والحركة وهو طبع الحياة والوجود ، والسابق صاحب السكونة والبرودة وهو طبع الموت والعدم ، والحياة والوجود أفضل من الموت والعدم ، وهذا ما لا يليق بالعقل بان يكون المسبوق أفضل من السابق ، أو المرزوق افضل من الرازق ، او المفتوق أعلى من الفاتق .. أقول بمشيئة مولانا وتأييده بان الباري سبحانه أظهر من نوره الشعشعاني صورة كاملة صافية وهي الارادة وهو هيولى كل شيء وبه تكوينهم .. وسمى تلك الصورة عقلاً ، فكان العقل كاملاً بالنور والقوة ، تاماً بالفعل والصورة ،

قد اجتمعت فيه الطبائع الخمسة ، وأحصى فيه جميع ما هو كائن إلى ما لا نهاية له ، وجعله إمام الأئمة موجوداً في كل عصر وزمان وهو السابق الحقيقي ، وإنما سمي سابقاً لأن خلقته وصورته سبقت جميع الحدود الى توحيد الباري سبحانه ، وهو مدروك محسوس يأكل ويشرب ، لا كما قالوا إنه لا يدرك بوهم ولا بخاطر ، وكان أول ما أبدعه العلي الأعلى سبحانه سماه علة العلل ، فكان عقلاً كاملاً بالقوة ، تاماً بالفعل ، حليماً بالسكون ، قادراً بالحركة ، اصل نقطة البيكار ، هيولى الطبائع الخمسة ، لطيف شفاف مدبر لجميع العالمين والعالين ، وجعل فخر العالمين وعزهم به في الدين والدنيا ، وجعل منازلهم على مقدار ما يقتبسون من نوره ، ويستقون من بحره العذب الزلال ... »

وفي رسالة تقسيم العلوم يقول أبو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي : « أبدع لنا نوراً شعشعانياً جعله عنصر الانبعاثات للعلوم الحقيقية ، ومنشىء الصور النفسانية الذي هو العقل الكلي والسابق الأول الذي منه انبعثت الأشياء واليه تعود .. وذلك النور ينقله المولى في كل عصر وزمان ، وفترة واطمئنان ، باسم وصفه داعياً الى التوحيد المحض لا ينطق بالدعوة الشركية ، ولا يعرف غير الدعوة اللاهوتية .. أحدهما ظاهر والآخر باطن ، فالظاهر وأصحابه النطقاء أولهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، ولقد أخرجنا آدم من عدد هؤلاء القوم ، إذ كان العزم هو الحتم والقطع والجزم ، نطق الكتاب عن آدم انه لم يجد له عزماً ، فصار أولو العزم خمسة ، وكل واحد من هؤلاء النطقاء ، أتى بظاهر أقامه لأصحابه ومستحقيه ، وكان بين يديه أساس ووصي يكون له خليفة بعد وفاته ، فكان لنوح سام ، ولابراهيم اسماعيل ، ولموسى يوشع ابن النون بعد هارون ، ولعيسى شمعون ، ولمحمد علي بن ابي طالب .. فلم ينتقل كل واحد من هؤلاء النطقاء حتى اشار الى أساسه ، فقام

الأساس بتأويل ما أتى به الناطق ، فصارا زوجين ، وبهذا نطق القرآن ومن كل شيء خلقنا زوجين ، فدل بأن الفرد الذي بينهما هو المراد المطلوب .. واعلم ايها الطالب المسترشد الى الحقائق بأن آدم المشار اليه قد كان قبله اعصار وهم : الطم والرم والحن والجن والبن .. غير انهم كلهم كانوا يبشرون الى توحيد العدم ، ولم يعرفوا المولى جل ذكره ، ولا يعرفون غير السابق لانه نهايتهم الذي كان هو والتالي يعبدونهم ، والعقل الكلي وحجته بين ايديهم لا يعرفونهم ، والمولى جل ذكره محتجب عنهم .. »

ولنرجع الآن الى رسالة كشف الحقائق لنرى ما يقول حمزة بن علي عن بقية الحدود : « فقال مولانا العلي الأعلى سبحانه وتعالى ، لعلة الابداع الذي هو العقل الكلي ، أقبل يعني أقبل على عبادتي وتوحيدي ، فاقبل اليها بالسمع والطاعة ، فقال له : أدبر . اي تول عن جميع من يشرك بي غيري ، ويعبد سواي ، فأدبر عنها ، فقال مولانا العلي الأعلى سبحانه : وعزتي وجلالي وارتفاعي في أعلى علو مكاني لا دخل احد جنتي اي ميثاقي إلا بك وبمحبتك ولا احترق بناري ، يعني ظاهر الشرائع الناموسية التي هي : الحرارة اليابسة احد إلا بتخلفهم عنك ونفاقهم عليك ، من أطاعك فقد أطاعني ، ومن عصاك فقد عصاني ، بك تبلغ المنازل العالية ، وقد جعلتك الوسيلة الى رحمتي لجميع عبيدي واهل طاعتي ، فلما سمع العقل ذلك من الباري العلي سبحانه نظر الى شكله فرآه بلا نظير يشاكله ، ولا ضد يقاومه ، ولا ند يعادله ، فأعجبته نفسه وظن انه لا يحتاج الى أحد أبداً ، ولا يقوم له ضد يعانده ، وان يقوم في جميع الأدوار وحده بلا ضد ، فأبدع مولانا من طاعته معصية ، ومن نوره ظلمة ، ومن تواضعه استكباراً ومن حلمه جهلاً ، فصارت اربع طبائع مذمومة بازاء الأربع طبائع المحمودة التي هي العقل وطبائعه ، وهي حرارة العقل ، وقوة النور ، وسكون التواضع ، وبرودة الحلم ، وليونة الهيولى الداخل في الطبائع الخارج منهم ،

فقام بازاء كل آلة منها دينية آلة ضدية معاندة للعقل عاصية لأمره ونهيه ، يرى روحه مثله وشكله ، وان إبداعه منه بغير واسطة بينهما ، فعلم العقل انها محنة ابتلاه بها مبدعه العلي الأعلى حيث رأى روحه بالكمال والقدرة فأقر عند ذلك بالعجز والضعف ، وتضرع الى الباري في معونته على الضد . وقال لا إله إلا مولانا أعني بذلك انه لا إله كامل بالقدرة والسلطان إلا العلي الأعلى تبارك وتعالى ، الذي لا ضد له ولا ند ، ولا شبه ، سبحانه وتعالى نسأله ان يجعل لنا معيناً على الضد المخالف .. فأبدع العلي سبحانه من ذلك الشوق والتضرع نفس الحدود وجعله « ذو مصة » وتالي لخدمته ، سامع له مطيع لأمره ، وجعل له الحركة والفعل ، فصار بمنزلة الأنثى ، والعقل بمنزلة الذكر ، وجميع الحدود أولادهما ، فأراد بالذكر العقل ، والانثى التالي ، والكلمة فوق السابق الذي عرفه الشيوخ ، والنفس فوق الكلمة ، والعقل فوق الكل لأنه روحهم بالحقيقة .. »

ويمكننا ان نستنتج من أقوال حدود ودعاة الوحدين التي وردت في اكثر رسائلهم المذهبية بأن الدين لديهم نور وهدى وسراج ينير ظلمات النفوس كما تنير الشمس في رابعة النهار العالم . وان ميزان كل انسان عمله فان كان صالحاً تقياً على هدى في معتقده عارفاً به تعالى وحدود دينه الروحانية والجسمانية متمتماً ومستمسكاً بسبعة خصال توحيدية هي :

١ - أولها وأعظمها : صدق اللسان باعتباره حجر الزاوية في قيمة الانسان الشخصية وسلوكه ، وينطوي هذا المبدأ على أكثر من خصلة ، أهمها النهي عن السرقة والقتل والزنا وشهادة الزور .

٢ - حفظ الاخوان : يعني ان يحافظ الموحد على اخيه الموحد ، ويكون عوناً ونصيراً ومؤازراً له بالحق .

٣ - التبرؤ من عبادة العدم والبهتان : وفي ذلك نهي عن عبـــادة الاوثان ، والسجود للأصنام ، والحجارة المقدسة والنصب والتماثيل .

٤ – البراءة من الابالسة والطغيان : ويقصد بذلك البراءة من الدساسين والبعد عن الظالمين المستبدين .

٥ – التوحيد للمولى في كل عصر وزمـــان ودهر وأوان : ومن هذا المبدأ كان اسم الموحدين الذين لا يشركون بالله .

٦ – الرضا بفعله كيفما كان : أي أن يرضى الموحـد بأحكام الله ، فيرضخ لها ويسلم أمره لربه .

٧ – التسليم لامره في السر والحدثان ، وانه يجب ان يعلم كل واحد ان المولى يراه حيث لا يرى .

وبالاضافة الى هذه الخصال يجب على كل مؤمن موحـــد ان يتمسك بعدة مبادىء وخصال حميدة ليصبح من الاجاويد :

١ – الابتعاد عن المسكرات مهما كان نوعها ، وعن الميسر مهما كان شكله .

٢ – تجنب التدخين على انواعه حتى السعوط .

٣ – عدم الشراهة في كل شيء .

٤ – تجنب البهرجة والخلاعة لدى النســاء ، والاعتدال في الملابس . والتقشف اقرب إلى التقوى .

وفي رسالة شرط الامام صاحب الكشف من الفروض الدينية انه يجب على الموحد عندما يتزوج موحدة ان يجعلها مساوية له في كل شيء ، وأن يقاسم بينه وبينها كل دخله ، واذا اضطر الى الطلاق فينبغي ان يعرف من منهما المقصر في معاملة الآخر ، فاذا كانت الزوجة هي التي ترغب في الطلاق فيكون لزوجها نصف ما تملكه بعد ان يشهد عدول على انها هي المقصرة في حق زوجها ، وانه كان يعاملها معـــاملة حسنة ، وإذا شهد

الشهود بأنه كان يهينها ولا يعاملها بالمساواة فلها الحق في ان تأخذ معها كل ما هو لها دون ان يسمح له بأن بأخذ منها شيئاً . وفي ميثاق النساء ينبغي على النساء الموحدات ان يكن منزهات عن كل عيب ودنس وإثم ، وان يبتعدن عن مخالطة غير المؤمنين ، وان تكون طهارة أفعالهن وأقوالهن معلومة الجميع .

٥ – التواضع والاحتشام في الجلوس والحديث واختيار الالفاظ المؤدبة ، ومخاطبة الناس بلطف ولين .

٦ – عدم لعن المخالفين والمارقين ، لان اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه .

وعلى الموحد ان يكون مخلصاً لله في السر والعلن ، مسلماً امره لخالقه ، خاضعاً لاحكامه ، شاكراً له ما أعطاه ، صابراً على بلواه ، ساتراً عيوب الناس ، مقراً بخطاه ، معترفاً بعيبه ، قليل الكلام ، صادق اللسان ، يأمر بالمعروف ويعمل الخير ، لطيفاً متساهلاً ، وفياً مخلصاً ، أميناً ، أديباً ، عفيفاً ، رحيماً ، كثير المروءة ، كريماً من غير إسراف ، شجاعاً من غير تهوّر ، بعيداً عن النميمة والنزق والغيبة والطمع والكبرياء ، حافظاً للسر . وفي رسالة الاسرار يحذرهم بهاء الدين من ان يكون بينهم قتلة او لصوص أو فاسقون او ظالمون . وباعتقادي ان اكثر هذه الخصال الحميدة التي فرضها الدين على الموحد الدرزي إنما استنبطت من القرآن الكريم ، ومن التعالم الاسلامية الصحيحة .

وعلى ضوء ما استوعبناه من الرسائل الدرزية المقدسة ، وخاصة رسالة معرفة الامام نستطيع ان نرتب الحدود الروحية الدينية الجسمانية على الشكل التالي :

آ – العقل الكلي وهو ذو معة علة العلل والامر قائم الزمان ، وهو

الارادة وهو الامام الاعظم حمزة هادي المستجيبين .

ب – النفس وهو ذو معة وهو المشيئة الحجة الرضية وهو ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي .

جـ – الكلمة وهو سفير القدرة . ابو عبد الله محمد بن وهب القرشي .

د – السابق وهو الجناح الايمن . أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري .

هـ – التالي وهو الجناح الايسر بهاء الدين ابو الحسن علي بن أحمد السموقي وله ثلاثة حدود هم : ١ – الجد : ايوب بن علي . ٢ – الفتح : رفاعة بن عبد الوارث . ٣ – الخيال : محسن ابن علي .

هؤلاء هم الحدود الروحانية الجسمانية الذين ساهموا في كوكبة دعوة التوحيد وإطلاقها الى عالم الوجود . لان اهل النور لا يخفون نورهم ، واهل الظلام لا يمكنهم ان يبصروا شعاع الشمس – الارمد لا يرى النور . وحتى يكون التوحيد كاملا شاملاً جعلوا لمرتبة العقل سبعين حجة ، وعن هؤلاء الحجج السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومأذونين ومكاسرين ، وجميع الحدود الحرم منهم وغير الحرم كلهم من قبل العقل يسقط منهم من يريد ويرفع درجة من يشاء ، والحدود السبعون هم الذين أتى على ذكرهم القرآن الكريم بقوله تعالى : « ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » ، يعني حدود دعوة التوحيد سلسله بعضها في بعض وهم سبعون رجلاً في ميثاق قائم الزمان موزعين ومنظمين بحسب الشكل التالي :

أولاً : النفس الكلية ولها اثنا عشر حجة في الجزائر وسبعة دعاة للأقاليم .

ثانياً : الكلمة ولها اثنا عشر حجة وسبعة دعاة .

ثالثاً : السابق وله اثنا عشر حجة فقط .

رابعاً : التالي وله اثنا عشر حجة فقط .

خامساً : الداعي المطلق وله مأذون واحد ومكالبان .

التناسخ والتقمص ويوم الدينونة :

يستدل من بعض النصوص الواردة في الكتب الدرزية المقدسة بأن الدروز يعتقدون بالنسخ والتقمص ، أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ، باعتبار أن النفس لديهم لا تموت ، بل يموت قميصها الجسم ويصيبه البلى ، فتنتقل النفس الى قميص آخر . ولا تنتقل الى حيوان ، لأن في انتقالها الى جسم حيوان ظلم لها ، لأن العقاب مرجأ إلى يوم الدين ، وهي تمرّ في مختلف ادوار الحياة .

والذي نلاحظه في أقوال حمزة هادي المستجيبين ان العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية الى درجة دونها من درجات الدين ، وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه وتقمصها في الأجساد ، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية . أما الجزاء في الثواب مـــا دام يتكرر في الاجساد فهو زيادة درجته في العلوم الدينية وارتفاعه من درجة الى درجة الى أن يبلغ الى درجة حد « المكاسر » فيزيد في ماله وينبسط في الدين من درجة الى درجة الى ان يبلغ أرقى حد من حدود الدين .

وقد تكون النفس صالحة في دور بينما تكون خاطئة في دور آخر ، وحسابها على ما فعلت من خير او شر يبقى معلقـــاً الى ان يُنصب

الميزان ، فاذا رجحت حسناتها كان لها الثواب ، واذا رجحت سيئاتها كان لها العقاب .

هذه لمحة خاطفة وعرض مربع لواقع الحركة الدرزية ، يبين للقارىء صورة صحيحة تقيم الدليل الواضح ، وتمزق الحجب الكثيفة عن حقيقة هذه الحركة الباطنية الاسلامية في كل شيء لما تعاليمها الخاصة وتأويلاتها الخاصة التي تتفق مع القرآن والدعائم ، وما كان عليه جميع من وحدوا الله في كل عصر وزمان .

وما كان الدروز قبيل شر   وان اخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف   كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاف   موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل   نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً   فكل جهاته شرف وخلق

« أحمد شوقي »

الفصل السابع

الحركة النصيرية (العلوية)

أصولها، تاريخها، عقائدها

يساور المحافل العلمية والمعنيين بشؤون الدراسات الاسلاميـــة شعور قوي بأن الأبحاث والدراسات الحديثة التي تعيش في أجواء المثالية السامية والكمال المطلق ستكشف عن كل مخبوء للاستفادة منه إن كان خيراً ، ولتحذير الناس منه ان كان شراً ، لا سيا ونحن نعيش في عصر تحررت فيه العقول من كافة القيود والأغلال ، وعقدت العزم على الخلق والابداع ، وسبر أغوار الأمور المعقدة ، وكشف الستائر عن الأشيـــاء المحجوبة المجهولة مهما كانت دروبها مزروعة بالتقيـــة والكتمان الشديد ؛ لأن انسان هذا العصر الذي تميز بالعقل الراجح ، والضمـــير الحي الخلاق ، مفطور على حب البحث والاستقراء ، ومتشوق الى معرفة المزيـــد من الاسرار الغامضة التي تحيط به .

وعلى المرء أن يتوقع مثل هذا ، ولكن هذا لا يعني ان أحداً قد استطاع حتى الآن – بالرغم من اكتشاف الذرة والفضاء – ان يرسم خطاً بيانياً واضحاً للمعتقدات النصيرية الباطنية ، التي نحاول ان نستعرض بعض عقائدها وما خفي من اسرارها ورموزها ومصطلحاتها ، بعد ان توفرت لدينا الوثائق والنصوص التي تلقي نوراً كاشفاً على هـــذه الحركة الباطنية التي تستمد قواعدها وتنظيماتها وأصولها وأحكامها من القرآن الكريم والشريعة الاسلامية ، ومن التعاليم والارشادات التي جاء بها الأئمة من آل بيت النبي ﷺ الأطهار .

هذه حقيقة يجب ان يعرفها العالم بأسره ، وخاصة اولئك المؤرخين والكتاب الذين ماتت في اعماقهم صرخة الحق ، وخبت في ضمائرهم شعلة الايمان ، فسخروا أقلامهم المسمومة وانساقوا وراء غاياتهم الشخصية فراحوا يلصقون بالحركات الباطنية على مختلف أنواعها ودرجاتها أبشع التهم ، وأحط الأحكام ، وصوروا أصحابها ومريديها لدى العامة بانهم دخلاء على الاسلام ، مبتدعون لأحكام وانظمة مغايرة لاصول الدين الحنيف ، كأن الاسلام وقف عليهم ، يدخلون فيه من يريدون ، ويخرجون منه من يريدون .

وعلى ضوء هذه الصرخة الداوية سنتناول بالبحث الحركة النصيرية – العلوية ، معتمدين في بحثنا ودراستنا على التجرّد والنزاهة ، وميزان الوحي الوجداني السرمدي لاظهار عين الحق والانصاف بعقلية بعيدة عن التعصب والغرضية النفسانية والغايات والاهداف الخاصة ، أو المنفعة المادية ، بل توخينا الغاية العلمية الحقيقية ، ورمينا سبل الحق الذي لا مرية به .

ولا أخفي على القارىء الكريم مدى إيماني وتأثري بالعقائد الباطنية وأصولها وأحكامها ، ولكن هذا لا يمنعني من قول كلمة الانصاف ، وإطلاق صرخة الحق .

الحركة النصيرية :

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في بيان الطابع العقائدي المميز للحركة النصيرية ، فكتبوا الرسائل القصيرة او المقالات الطويلة المستفيضة التي لا تتفق وما يتطلبه البحث العلمي الحديث ، لان اغلب ما فيها لا يتجاوز التخمين والاستنتاج والفرضيات ، لذلك لم يستطيعوا حتى اليوم ان

يلقوا ضوءاً قوياً ساطعاً على النواحي الغامضة فيها . هذا بالاضافة الى أن المصادر التي تحدثنا عن النصيرية قليلة وغير مأمونة . وهذه القلة إما لان كتب النصيرية لا تزال مخطوطة ومستورة حتى اليـــوم لم تتناولها أيدي الباحثين ، او لأن بعض المصادر وهو أغلبها قد كتبه الخصوم وأوردوا فيها آراء الحركة النصيرية بعد ان أدخلوا عليها التبديل والتغيير والتحريف ، بما يوافق اغراضهم في الخصومة .

هـذا يصعب على البـاحث ان يكتب بحثـاً شاملا لهـذه الحركة يتناولها من جميع نواحيها مـا دامت النصوص الخاصة بهذه الحركة لم تنشر بعد .

بيد أننا سنحاول جهدنا أن نسد الثغرات ، ونعوّض النقص بعد ان توفرت لدينـا بعض النصوص والوثـائق التي تسمح لنـا بتكوين رأي صحيح شامل عن هـذا الموضوع الغامض كل الغمـــوض ، والمضطرب كأشد ما يكون الاضطراب .

يعتبر التطور الروحي والحياة العقلية في بلاد الاسلام عاملا من أخطر العوامل التي لعبت دورها في تكوين الحركات الباطنية وصبغها بصبغـة خاصة لم تبهت على مر الزمان . وصيرتها مذاهب شامـــلة اقيمت على أسس من العقل ، وأصبح لها أنصار يؤمنون بها لاسباب عقلية فكرية .

ومن الواضح ان الامامـــة كانت حجر الزاوية في صلب المعتقدات والافكار والمصطلحات الباطنية وعلة وجودها ، والسبب في ذلك الصراع الرهيب بين المذاهب الاسلامية .

اذا توغلنا داخل النصوص والوثائق السرية النصيرية يتبين لنا أن هذه الحركة قد جعلت الامامة المحور الاساسي الذي تدور عليه كافـة

عقائدها الباطنية ، هذا الى جانب الرموز والاشارات والمصطلحات التأويلية الباطنية التي استنبطت مما ورد في القرآن الكريم وفي احاديث الرسول ﷺ والائمة من آل بيته الاطهار .

نحن نعلم – دونما عناء كبير – بان الشيعة قد انقسمت بعد وفاة الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الى فريقين ؛ فريق ساق الامامة الى ابنه موسى الكاظم ، واستمر في تسلسل الامامة في الاكبر سناً من عقبه حتى الامام محمد بن الحسن العسكري الذي دخل سرداباً في سامراء – شمالي بغداد بالعراق – واختفى فيه ، وتقول شيعته انه لا يزال الى الآن حياً ، وانه سيخرج من سردابه يوم القيامة على انه (المهدي المنتظر) الذي سيملأ الدنيا عدلاً ويرد الحق الى اهله . وسميت هذه الفرقة بالموسوية نسبة الى موسى الكاظم (ع) ، او بالامامية الاثني عشرية نسبة الى عدد الائمة .

أما الفريق الثاني فهم الاسماعيلية الذين قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق فنسبوا اليه .

وتذكر النصوص النصيرية أن نظام الامامة قد أصابه الاضطراب بعد غيبة الامام من حيث اجماع شيعته على إمام واحد يأخذون منه العلم ، لذلك توجهوا إلى الباب صاحب أسمى مرتبة دينية باعتبار ان النظام الشيعي يقضي بأن يكون لكل إمام باب يؤخذ عنه العلم وذلك مصداقاً للقول الوارد : « من طلب العلم فعليه بالباب » ، لان الائمة بنظرهم هم اوصياء الرسول ، ولذلك اتبعوا الاثر باتخاذ باب لقول الرسول لعلي بن أبي طالب (ع) : « انت وليي ووصيي ، بل انت الاوصياء » .

وقوله ﷺ : « انا مدينة العلم وعلي بابها » . والابواب الذين كانوا حسب زعمهم للأئمة هم :

الامام	الباب
علي بن أبي طالب (ع)	سلمان الفارسي
حسن بن علي (المجتبى) (ع)	قيس بن ورقة المعروف بالسفينة
حسين بن علي (الشهيد) (ع)	رشيد الهجري
علي زين العابدين (ع)	عبد الله الغالب الكابلي وكنيته (كنكر)
محمد الباقر (ع)	يحيى بن معمر بن ام الطويل الشمالي
جعفر الصادق (ع)	جابر بن يزيد الجعفي
موسى الكاظم (ع)	محمد بن أبي زينب الكاهلي
علي الرضا (ع)	المفضل بن عمر الجعفي
محمد الجواد (ع)	محمد بن المفضل بن عمر
علي الهادي (ع)	عمر بن الفرات المشهور بـ (الكاتب)
حسن العسكري (ع)	أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري

أما الامام محمد المهدي (ع) فيذكرون انه لم يكن له باب ، بل بقيت رتبة الباب مع السيد محمد بن شعيب البصري .

ولما غاب الامام محمد المهدي أصبح الباب الرئيس الاعلى ، والمرجع الاوحد للمذهب النصيري ، ومن هنا نسب اليه النصيرية باعتباره المؤسس

الحقيقي لحركتهم .

ويذكر التاريخ ان محمد بن نصير النمري البصري كان شديد الحب للامام علي بن أبي طالب (ع) ، كثـير الموالاة لآل البيت ، شيعياً متطرفاً ، زاهداً عالماً فقيهاً ، كان معاصراً للامام الحادي عشر الحسن العسكري (ع) وهو بابه (حسب معتقد النصيرية) ، وهو رئيس الفرقة التي سميت بالنصيرية او العلوية ، ولا زال اتباعه من خيرة الشيعة الامامية الاثني عشرية ، ولهم طريقة تسمى « الجنبلانية » وهم منتشرون اليوم في سواحل سورية والجزيرة وانطاكية والاسكندرونة وولايات تركيا الجنوبية وازمير واستنبول وبلغاريا والبانيا السفلى وبلاد اليونان وامريكا الجنوبية لا سيا البرازيل .

وبعد وفاة هذا الباب حل محله باب آخر هو السيد ابو محمد عبد الله ابن محمد الحنان الجنبلاني ، فأوجد الطريقة (الجنبلانية) بين النصيرية ، وقيل انه سافر الى مصر حيث تمكن من استمالة السيد الحسين بن حمدان الخصيبي ، وبعد عودته من مصر تبعه تلميذه الخصيبي الى بلدة (جنبلا) حيث درس عليه كافة العلوم ، وبعد وفاته اصبح الخصيبي المرجع الاعلى للمذهب النصيري ، وجعل مقره في مدينة بغداد ، ثم اخذ يتنقل بين الاتباع ، واخيراً استقر في مدينة حلب الســورية حيث توفي فيها سنة ٣٤٦ هجرية ، وقيل ان ولادته كانت سنة ٢٦٠ هجرية . وبعد وفاة الخصيبي اصبح للنصيرية مركزان : الاول والاعظم في حلب ويرأســه الشيخ (محمد بن علي الجلي) الذي خلف الخصيبي ؛ والثاني في بغداد ويرأسه الشيخ (علي بن الجسري) .

ولما أفل نجم النصيرية الذي تألق بعض الوقت في حلب ، انتقـل مركز ثقلهم الى جهات اللاذقية والجبــال المسماة بأسمهم ، حيث تسلم

الزعامة الشيخ (ابو سعيد الميمون سرور بن قاسم الطبراني) . ثم تناوب على الزعامة عدة مشائخ حتى مجيء الأمير حسن المكزون السنجاري الى جهات اللاذقية وقيل انه جاء بناء على رغبة النصيرية لنصرتهم ، وكان على رأس قوة مؤلفة من خمسة وعشرين الف مقاتل ، ونصب خيامه على عين الكلاب بقرب قلعة ابي قبيس وعلى سطح جبل الكلبية ، ولكنه اضطر الى العودة الى سنجار . ثم زحف ثانية عن طريق حلب على رأس قوة اكبر قيل انها كانت تتألف من خمسين الف مقاتل عدا النساء والصبيان فاستولى على جبل الكلبية ! وجبل الشعرة واتخذ من قلعة ابي قبيس مقراً له ، وبعد أن استقر به المقام اسلم نفسه للتصوف والتأليف والوعظ والارشاد . وتشير النصوص النصيرية الى انه ترك عدة مؤلفات تبحث في اصول وأحكام المذهب النصيري ، وله ديوان شعر واشعار متفرقة وهي مشحونة بالمعاني والالغاز والرموز الباطنية .

كان لا بد لنا من تقديم هذا العرض التاريخي السريع قبل الولوج الى صميم المعتقدات والمصطلحات النصيرية .

عقائد النصيرية :

لو ترجمنا المصطلحات والرموز العقائدية النصيرية لوجدنا بأن الغاية الرئيسية التي ترمي اليها هي أن لكل عمل وكل قول تأويلاً خاصاً لا يعرفه الا المشائخ الذين تعلموه عن الأئمة . وهذا التأويل الباطني هو الذي يفرقهم عن اخوانهم الشيعة لغلو النصيرية في تأويلاتهم بسبب إسباغ مناقب خاصة وصفات قدسية عالية على الإمام علي بن أبي طالب (ع) هذا بالاضافة الى الغموض الشديد الذي يشوب الأصول والأحكام

النصيرية مما يحملنا على التروي والحذر والانتباه الشديد للمعنى المقصود من وراء الرموز والمصطلحات والكرامات والمعجزات التي بنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم ، ونحن لا ننكر المعجزات والكرامات التي ملئت بها الكتب النصيرية ، لكننا نعترض على استغلالها كبرهان على تأليه الأئمة ، لذلك لن نعطيها اهمية كبرى بوصفها غير متفقة مع الأصول والاحكام ، إما لاضطراب في روايتها ، أو لاستحالة وقوعها في ذاتها عملاً بقول الشاعر :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هذه المعجزة التي عثرنا عليها في كتاب مخطوط من الكتب النصيرية :

« واما الهندي والسندي فقد ذكرهم الشاب الثقة في كتاب مجموع الأعياد وهو قوله في قوافي خبر السابع عشر من آذار عن الهندي والسندي والشرح الطويل لكن نختصره لشهرة الكلام يرويه عن كتاب الأكوار والأدوار النورانية وهو قول السيد أبو شعيب محمد بن نصير محمد بن جنوب اليتيم الأكبر قال :

« يا محمد بن جندي ، هل علمت اني دخلت في يوم نيروز على مولاي فلما بايعني قال : يا محمد . قلت : لبيك يا مولاي . قال : ان لي ولياً في بيضاء الصين هلك منذ الف عام ، وهذا يوم نيروز فاذهب واحييه ، فاردت ان اقول له يا مولاي : كيف احييه انا ، واليك حياته ومماته ؟ فامسكت عن معاودته وخرجت وانا افكر كيف اصنع ، وكيف لي القدرة على ذلك ؟ فبينا أنا كذلك لقاني رجل ادمي اللون ، طويل

القامة ، كأنه النخلة السحوق ، وعليـــه خضراء ، وعلى رأسه اكليل من الآس منضد بالأدريون ، يقد في جبهته . فقال : يا محمد بن نصير مـــا هـذا يوم نيروز ؟ فقلت : بلا . فقال : فمالي لا اراك تهنئني فيـــه . فقلت : اني دخلت على مولاي في هذا اليوم والوقت ، وامرني بامر انا فيه مشغول القلب عن حـــال تهنئتك ، واستمر في الكلام يحدث الهنـدي بالحديث ، ويظهر على نفسه انه عاجز عن فعل ما أمره به مولاه . حتى قال له الهندي : اني سمعت عن مولاي انـه قال : من تكلل في هـذا اليوم باكليـل من الأدريون ثم لم يسأل الله في قضـاء حاجـــة إلا قضيت له : ولا قصد امراً إلا سهل الله له قصده ، واني رجل من بلقاء الهند . فاذا كان في كل يوم مثل هذا اليوم تكللت باكليـل ، وقلت له حيث مولاي في العسكر ، فما يكون باسرع وقت حتى احضر بحضرته . واستمر الهندي يحدث السيد أبو شعيب ، وأظهر السيـد أبو شعيب له الافتقار حتى أعطاه الاكليل ، وذهب الى بيضاء الصين باسرع من لمح البصر ، ودخل المغارة واحيا الشاب المسجى برش الماء عليه ، واعطاه الاكليل السيد أبو شعيب حتى اتى الى سامراء وشاهد المولى ورجع الى المغارة ، ودفع الاكليل للسيد أبو شعيب ، وتسجى كما كان .

ورجع السيد أبو شعيب الى سامراء ، ودفع الاكليل الى الهنـدي . فقال له الهندي : لقد أطلت علي . فقص عليه السـيد قصة الولي الشاب المسجى . فقال الهندي : يا ليتني كنت هو . فاعلم يا سيدي ان أبا شعيب كان مجتمعاً به حدث الميم ، وقدم الباب ، وقـــدم الاسم ، وكان غيب تحت تلألأ مولاه الحسن الآخر العسكري . ولذلك كان يقال للسيد أبو

شعيب باب وحجاب للمولى العسكري [١] » .

وهذه معجزة أخرى وردت في كتاب آخر من الكتب النصيرية [٢] .
قلت لمولاي : « ما حد انتهاء المؤمن ؟ قال : اذا ارتقى المؤمن ؟ قال : إذا ارتقى المؤمن في درجة الأبواب . قلت : أيرتقون من درجـــة الى درجة ؟ حتى يصيروا ملائكة ، فـــيرفع عنهم الأكل والشرب والاهتمام بتلك الأشياء أو يرتقون الى السماء وينزلون الى الأرض ؟ قال : نعم اذا شاء الله . قلت : على صورة الملائكة أم على صورة بني آدم ؟ قال : على اي صورة شاء ، وإن في جميع الأرض عدداً كثيراً تخاطبونهم ويخاطبونكم ولا تعرفونهم . وقد رفع الله عنهم الاصاد والاغلال ، وكفاهم مؤونـــة الاكل والشرب ، وهم يسعون في الأرض على صورة بني آدم لا يهتمون ولا يغتمون ، وانهم يحضرون في مجالس الذكر ، ويكلمون النـاس ولا ينكرونهم . فاذا شاؤوا يصعدون الى السماء صعدوا ، أو يبقون في الأرض لهم ما يشاؤون . وان الرجل منهم ليرى اليوم في المشرق ويرى كذلك في المغرب قد اعطاه الله من القدرة كل هذا . فعلى هذا يرتقي المؤمنون درجة درجة وفضيلة فضيلة حتى يصيروا في السماء ملائكة ، وينزلوا الى الأرض ويرجعوا الى السماء . فقال محمد بن الوليد : والله يا مولاي رأيت رجلاً على هذه الصورة . قال الصادق : كيف رأيته يا محمد ؟ قال : كنت جالساً في المسجد اسبح الله اذ دخل رجل فسلم فرددت عليه السلام ، ونظرت اليه واذا به تبدو عليه آثار السفر ومعه ناقة فعقلها ، وعليـــه ثياب رثة ، فاعجبتني سيمته وسكونه وقلت في نفسي : هذا رجـل من

---

(١) قطرة النصان ورقة ٨٧ – ٨٨ . نسخة خطية في مكتبتي الخاصة .

(٢) كتاب الهفت الشريف : تحقيق مصطفى غالب صفحة ٧٥ . من منشورات دار الاندلس – بيروت .

الصالحين منقطع الى الله تعالى . فقال : هل فيكم احد يضيفني ليلتي هذه ؟ فرحته ، وقلت له : يا عبدالله انا أضيفك فاجلس . فلما فرغت من الصلاة اشرت اليه وقمت وقام معي ، ومشينا حتى صرنا الى المنزل . فدعوت ، فقدمت المائدة وكان عليها الثريد واللحم ، فأكلت واكل معي . فلما أكلنا وشربنا وأردت ان ارفع المائدة ، واذا بالطعام كما هو حين وضع بين أيدينا والرغيفان كما هما ، فأخذني الفزع ورعبت رعباً شديداً ، ونظرت اليه نظراً شافياً . وبينما نحن كذلك ، دخل الخادم علينا ليرفع المائدة ، فلما نظر في الطعام ووجده لم يؤخذ منه شيء ، قال : ما بالكم لم تأكلوا ؟ فبقيت متحيراً لا أرد عليه جواباً . فنظر الي وقال : ما لكما لا تنطقان ؟ وكنت شاخصاً ببصري الى الأرض . فلما تكلم نظرت اليه فاذا هو غير الرجل الذي خرج معي من المسجد ، واذا له شوارب طوال ، فارتعبت رعباً شديداً أشد مما كنت فيه وقلت في نفسي : بليت والله .

فشمر بذلك مني وقال : ويحك استعذ بالرحمن وقل كما قالت مريم : « إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » . ثم قال : لا تعجب مني فان المؤمن اذا بلغ الدرجات وانتهى وصفا وخلص رفع عنه الأكل والشرب والاهتمام والآفات من الطبائع ، وصار ملكاً من الملائكة ، كلما احب أن يرفع الى السماء عرج ، وكلما احب أن ينزل الى الأرض نزل .

فلما قال لي هذا ، يا مولاي ، ذهب عني الرعب وجاءتني البشارة وامتلأت سروراً وفرحاً من قوله . ثم اوميت له في السجود اليه ، فقال لي لا تسجد أنا اخوك . فقلت له : جعلت فداك . أولست انت الرجل الذي دخلت المسجد وخرجت معي الى المنزل ؟ فقال لي : نعم . وانا اتعجب من تقلبه من صورة الى صورة ، فقال : لا تعجب فانني مؤمن

مثلك لكنني قد بلغت وانتهيت ... »

واليك قصة أخرى قصد من ورائها اثبات نظرية التقمص وتناسخ الأرواح في صور ، فالروح الشقية برأيهم تدخل في صورة خنزير او كلب او ذئب . بينا الروح المؤمنة الطاهرة تنتقل الى الأجساد البشرية والحدود النورانية غير المرئية : « وعندما اجتمعنا في قصر الربيع وهو ناحية الجبانة ، واذا الناس مقبلون ومدبرون فقلت يا مولاي وعدتني انك تريني المسوخية وامرتني أن اذكرك .

قال : فمسح بيده على عيني ، ثم قال : انظر ، فنظرت الى القوم الذين رأيتهم مقبلين ومدبرين قد عاد اكثرهم كلابا وقردة وخنازير وثعالب وغير ذلك .

فقلت : يا مولاي ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذرية ابليس يخالطون الناس وهم في المسوخية . فقلت : تبارك الله تعالى ...

ثم قال عليه السلام : هل تعرف احداً منهم ؟ قلت : وما ظننتهم ممسوخين .

قال : منهم ممسوخون وهم عباد الله ، أصحابك يا مفضل . قلت : إنا لله وإنا اليه راجعون أف لهم ، وتف عليهم . ثم قال : اغمض عينيك يا مفضل . فاغمضتهما . فمسح بيده الكريمة على عيني وقال لي : انظر اليهم ففعلت . واذا بهم قد عادوا لما كانوا عليه . وكان الرجل منهم بعد ذلك يلقاني فأحييه ويحييني إلى ان أقوم من عنده . »

وبالاضافة الى اعتقاد النصيرية بالمسوخية فانهم يؤمنون بالحلول اي حلول العلوية الروحانية بالأشخاص البشرية ، ولهذا المعتقد ظاهر وباطن ، فالظاهر احرف معدودة تشير الى أشخاص معلومة ، والمعنوية قد

استقرت اخيراً في عليّ الأعلى الذي ارتدى الحلة الزرقـــاء وسكن في الشمس ، وجميع ما في السماء من الكواكب فهي انفس الصالحـــين وفي كتبهم ورسائلهم السرية المقدسة يلتمسون الخيرات من علي الأعلى بحرمة الكواكب الزاهرة ، والأحرف الظاهرة من الله فهي اسم يحتوي على ثلاثة احرف ويبتدئون بأحرف الاسم من اوله ويجعلون حرف الميم هو محمد ابن عبدالله (ﷺ) ويسمونه الميم اليه التسليم ، وحرف السين وهو الباب والحجاب سلمان الفارسي ، والالف هو المقداد بن أبي الأسود ويسمونه رب الناس ، ويعتقدون بأن البـــاري تعالى ظهر بالنورانية ولم يزل ظاهراً ، ولهم في ذلك ثلاث نظرات : النور – الدال على نظرة الاسم الأعظم . الضياء – الدال على نظرة البـــاب الاكرم . الظل – الدال على نظرة اليتيم الافخم وهذه النظرات تطبق على الترتيب عندما يكون القمر طفلاً وشاباً وشيخاً . ويعتقدون بالقدود اي ان الله تعـــالى هو الذي أقر القدود وصور الصور وخلق النور ، ثم حجب النار بالريح ، ثم خلق الماء وحجبها بالريح . وخلق الطين من زبد البحر فحجب به الماء ومن النور خلق الملائكة مصورين ، والنار خلق منهـــا الجن مصورين ، والطين صورة ادم . وخلق ادم من الطين والنار والريح والماء ، وذلك من أجل الدنيا ، وخلق تعالى النور من شأن الآخرة . وذلك لقوله تعـــالى : « وأنا منـّا الصالحون ومنـّا دون ذلك كنا طرائق قددا » يعني كون جوهر خلق من جوهر وأقد منه صوراً منكم من جوهركم . ثم إن الملائكة صاروا يرون جميع الخـــلائق وهم لا يرونهم لان ذلك من اختصاص الجان باعتبارهم خلقوا من نار لقوله تعالى « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » وإنما يراهم الناس في جوهر النور الذي قد من الله . لذلك صار الانسان حسب مفهومهم يأكل ويشرب بالنـــار وينظر ويعلم بالنور ويسمع ويشم بالريح ، ويجد لذة الطعام بالماء ويتحرك بالريح .

فلولا ان النار في معدته فما عظمت حالات الطعام والشراب في جوفه ، ولولا الريح لما التهبت النار في المعدة ولا خرج الثقل من بطنه ، ولا برد الماء ، ولولا النور لما رأى بصره ، ولولا الروح لما جاء ولا ذهب ، فالطين صورته والعظم في جسده بمنزلة الشجرة والارض ، والدم في جسده بمنزلة الماء في الارض ، ولا قوام للأرض الا بالماء ، ولا قوام لجسد الانسان الا بالدم والشعر على جسده كالعشب على وجه الارض والمخ رسب الدم والزبد له . هكذا الانسان قد خلق من شأن الدنيا والآخرة . فان جمع الله بينهما صارت حياته في الارض ، لأنها نزلت من السماء الى الدنيا من شأن الآخرة ، فاذا فرق الله بينهما صارت تلك الفرقة بالموت ، لان روحه نزلت الى الدنيا من شأن الآخرة . فالحياة حسب معتقدهم بالارض والموت في السماء ، ولذلك فرق الله تعالى بين الروح والجسد اذا دامت من شأن الدنيا ، وإذا مات ردت الروح والنور والنار الى القدة الاولى وترك الجسد في الدنيا لان الريح ينشق وييبس الطين فيصير رفاتا ، ويرد كل شيء إلى جوهره الذي خلق منه . ثم تحركت الروح بالنفس والنفس حركتها من الروح .

فما كان من نفس المؤمن فهو نور حار مديد بالعقل ، وما كان من نفس الكافر فهو بارد مديد بالنار . فالمؤمن صورته نور ، والكافر صورته نار ، والتحريك فيهما من الروح . فما تحرك بالنور والروح من يمينه ، وما تحرك بالنار فهو شماله ، لقوله تعالى : « فأما من اوتي كتابه بيمينه » فانه يقرأه . أما من أوتي كتابه بشماله فلن يحسن قراءته والموت رحمة من الله الى عبده المؤمن ونقمة من الله الى الكافر ، وان الله إذا اراد أن يخرج عبده المؤمن من الدنيا الى الآخرة فقد رحمه وعفى عنه ،

واخرجه من سجنه ودعاه الى رحمته ورده الى نوره لان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

ويلاحظ في كتب النصيرية الايمان العميق بالحجب والاشباح والاظلة « فأول خلق عبدوا الله هم الملائكة وصورتهم من نور ولا يخطئون ولا يزالون ولا يتعدون ما امروا به ، مطيعين لله فيما اخذ عليهم من الميثاق والعهد والامانة فلم يغيروا ، ولم يبدلوا شيئاً مما امروا به عارفين أنه لا إله إلا الله . فلما خلق الجان فـتن بعضهم لبعض فـالقى عليهم غشاوة وخالطوهم ، فلا يرون الملائكة الذين لم يفعلوا مثل أفعالهم ، وجعل ذلك حجاباً بينهم . فالحجب سبعة :

حجاب بين المرء والروح ، وحجاب بين الروح والملائكة ، وحجاب بين الملائكة والجان ، وحجاب بين الجـان والأنس .. ثم اهبط آدم الى الأرض وامر الفلك بالدوران ، وكان الفلك على عهد الجان لا يدور ، فبقي هو وذريته في اقليم الأقاليم انقطـاع حساب العرب والعجم والروم ومبلغ حساب الهند والاقاليم حساب الهند . وهم ثمانية : سبعة منها تدور وواحدة لا تتحرك فهي اقليم الجان . فجعل في الفلك سبعة اقاليم يدور بها القطر . فمن أجل ذلك عرف الليل والنهار . ثم جعل بها اثني عشر برجاً ، ومن ذلك تعرف السنة والشهور ، ثم تعرف الشهور في ثلاثين يوماً لأن الشمس تطلع في كل برج ثلاثين يوماً . وجعل النهـار مثل السنة ، لأن النهار جعل اثني عشر ساعة . فجعلت الساعات مثل الشهور وانما صار الليل لا يحسب من عمر الانسان لما كان النوم اخا الموت وبه يستدل على ان الميت يحيا لأن النائم يستيقظ ، وإنمـا يعرف الموت من النوم والبعث من الحياة بعد الموت من اليقظة ، ويعرف خلق الانسان من طبايعه من دوران الفلك وطلوع البروج وما فيها من الخنس والجوار

الكنس ، فاذا انقضى الدوران ، فعندهـا لا يعرف الليل من النهار ، ولا النهـار من الليل وتضبط الدنيا بقدرة الله سبحانه من له الخلق والأمر . »

ويذهب النصيرية إلى ان الله تعالى اول ما خلق المؤمنين ، أشباحاً قبل أن يخلقهم أظلة ، والأشباح يومئذ كالشيء الذي لا يتبـين بالعين المجردة ، والدليل على ذلك ان الصدى الذي جعله الله في الدنيا دليلاً على الأشباح التي لا حياة فيها مركبة ممزوجة ، بل حياة بسيطة حية لطيفة ثم خلق الله تعالى الأظلة فسبح الله نفسه وهلل نفسه فأجابته الأشباح ثم الأظلة .

ثم خلق الله الأرواح فسميت ارواحاً لراحتهـا في معرفة الله . ويزعمون ان الأرواح قالت : يا رب كيف خلقتنا وكيف ابتدأتنـا حتى نعرف بدء خلقنا وخلقك ؟ فقال لهم : مني ابتدأت الأشباح ثم الاظلة ثم انتم ، يعني الأرواح . فقالوا : يا رب قد علمتنا كيف خلقنا فعلمنا فيما ننشأ وفيما نموت ؟ فقال لهم : تنشؤون في طاعتي ثم تعصون بلا اعتماد منكم . ولو اعتمدتم معصيتي ما متم أبداً . ثم احتجبت به عنكم . وأخلق ابدانا تحجب بعضكم عن بعض وادعوكم الى نفسي فيما احتجبت به عنكم . فتعبدوني وحجبي كثيرة . ومتى اختار منها حجاباً لا افـارقه ولا يفارقني ، فمن عبدني به منكم كان مؤمناً حقاً . ومن عبدني بحجبي كلها كان كافراً . ويذهبون الى ان الحجب التي احتجب بها تعالى هي اثنـا عشر حجاباً هم : حجاب القدرة ، حجاب العزة ، حجاب العظمة ، حجاب الهيبة ، حجاب الجبروت ، حجاب الرحمة ، حجاب المغفرة ، حجاب الكربة ، حجاب المنزلة ، حجاب الرفعة ، حجاب الشفاعة ، حجـاب السعادة . وقالوا ايضاً إن حجب الله تعالى كثيرة ، وكلهـا سكنها

واسكنها غيره ، وكل ذلك ابتلاء الى اولاد الشيطان ، لأنهم لا يعرفونه ولا يعبدونه بحقيقة المعرفة . ولذلك فان الذي يعبد الله بحجابه المحتجب به عن يقين وإيمان عميقين يكافئه تعالى بالحجاب الذي لا يفارقه ابداً .

وحديث النصيرية عن الحجب والأشباح والأظلة يطول ، ولكن يمكننا أن نختصره بـأن الله تعالى خلق الحجب ليحتجب فيها هو وكافة المؤمنين من حدوده واشباحه وأظلته وهؤلاء الحدود الروحانية يحتجبون بالصور البشرية الذين هم الحدود الدينية على الشكل التالي :

١ – الحجب للأئمة والحجج والابواب .

٢ – الأشباح للنقباء والنجباء .

٣ – الأظلة ، للمختصين والمخلصين .

٤ – الارواح ، للممتحنين من بقية ابناء البشر .

ومن خلال صفحات بعض الكتب النصيرية السرية المقدسة يتبين لنا بأن الاحرف كان لها عندهم دلالات ومميزات ، ولها سر عظيم عن ظهور الصورة النورانية ، وسماهم تعالى بالحروف المعجمة لحاجة المخلوقين الى الاسماء والكنايات كحاجتهم الى النطق ، ويستدلون على ذلك بما قاله الشيخ أبو عبدالله في ديوانه عن كيفية الاسم الاعظم : « الله اكبر الله اكبر اسم جل من سماه ، سماه معناه لمعنى اخر الحدث الذي ناجاه اي الله اكبر الاسم واكبر منه المعنى ، ومعناه سماه للخلق الآخر المحتاجون للاسم والكناية ، وكذلك الحروف أظهرها القديم لحاجة كافة المخلوقين اليها ، وأول من رقم الحروف المعجمة حروف مفردة هبة الله شيث ، وهو المعنى القديم ، فروت عنه أصحاب التآليف من المؤمنين انه جمع كتب أبيه آدم في اثني عشر الف جلد من جلود البقر ودبغها حتى

ابيضت ، ورقم عليها الحروف المعجمة ، ولا يعرف المؤمن توحيده وتنزيهه الا من جهة تلك الحروف ، ولكن لا أقول ان المعنى داخل تحت الحروف لا لان الحروف التي للنطق والصورة آلة الوجود وان الله اجل من أن يوصف بصورة او يدخل تحت حروف أو يوصف بموصوف ، فأما الذي ركبهم فهو مولانا شيث وجمع فيهم كلام الحكمة في اية كتاب الاسوس » .

ويذكرون إن الاحرف الابجدية على نوعين . النوع الاول الحروف المنقطة فهي حروف نورانية . والحروف غير المنقطة فهي حروف ظلمانية . وكذلك نجد في كتبهم أحاديث كثيرة عن الايتام والقباب والاكوار والادوار وخاصة في كتاب الاسوس الذي يمكننا ان نعتبره الاساس الذي بنيت عليه التأويلات الباطنية والرموز والمصطلحات النصيرية وهو قريب الشبه بكتاب أساس التأويل المعروف لدى الاسماعيلية والذي ألفه المشرع الاسماعيلي القاضي النعمان بن محمد لولا بعض المصطلحات والمعاني والرموز التي يعتبرها الاسماعيلية لا تنطبق ولا توافق اصولهم وأحكامهم .

ولا بد من الاشارة إلى ان النصيرية يعتمدون اكثر ما يعتمدون في كتبهم الباطنية السرية على الآيات القرانية والاحاديث المروية عن الائمة الاطهار ، وخاصة الروايات المنقولة عن المفضل بن عمر الجعفي ، ومعلى ابن خنيس الاسدي وجابر بن يزيد الجعفي « المذجحي » ، هؤلاء كانوا من أعيان الشيعة ومن اشهر رواة الحديث عن الائمة من آل البيت — هذا بالاضافة الى الاحاديث المروية عن أركان الشيعة الاربعة (عمار بن ياسر ، المقداد ، سلمان الفارسي ، أبي ذر الغفاري) وعن باب المذهب النصيري ومؤسسه سيدنا أبو شعيب محمد بن نصير النمري البصري .

فيدعمون بها نظرياتهم التأويلية ومصطلحاتهم المذهبية ، والجدير بالملاحظة ان النصيرية في كتبهم يمتقدون بأن المؤمن اذا ارتقى في ايمـانه يرتقي الى الحجاب الاول ويصبح في مرتبة الاصطفياء التي هي فوق درجـة البنين ، ومن توصل الى معرفة ذلك بالباطن سقط عنه عمل الظـاهر ، وهم في هذا الاعتقاد لا يختلفون عن الفرق الباطنية الاخرى .

ولا بد لنا في هذه العجالة من الاشارة الى بعض الروايات التي عثرنا عليها في كتب النصيرية والتي تتحدث عن المعاني الباطنية الكامنة وراء مقتل الامام الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) وقولهم بأن حنظلة بن اسعد الشباهي هو الذي قتل بدلاً منه وشبه لهم ، وكذلك بالنسبـة لمقتل الامام علي بن ابي طالب (ع) . لذلك نجدهم يقـدسون بن ملجم وحنظلة لانهما حسب مفهومهم الباطني كانا ستاراً للمعنى الاول وللمعنى الثاني في دور القبة العلوية – الادوار التي يسمونها قبـابا هم ادوار الانبياء والاوصياء الذين كان أولهم آدم وآخرهم القائم المهدي المنتظر – « سألت مولانا الصادق علينا سلامه عن قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » . قال الصادق : الحسن في زمن ابراهيم كان اسحق والحسين كان اسماعيل قلت ، يا مولاي : اخبرني بقصة المسيح . قال : هل ترى المسيح افضـل عند الله من جميع النبيين والمرسلين والاوصياء الطاهرين ، ولكن الله إذا اراد ان يظهر أمراً ، اظهر بعضه ليستدل بذلك الظاهر على باطنـه ، ويستدل في البعض على الكل ، لكي لا يستكبروا قدرة الله عز وجل ولا تنقطع عظمة الله عن انبيائه واوصيائه واصفيائه . وكان الحسين بن علي اكرم على الله من ان يذيقه الحديد على أيدي الكفرة ، وحاشا أن يذيقه حر الحديد ، وإن عند الله من لطف التدبير ما يتلطف بأوليائه ، وينقذهم من اهل عداوته ، ويهلك اعداءه واعداء أوليائه بالحجة البالغة ،

وأنه عز وجل عادل لا يجور ، وحليم لا يميل ، ولقد فعل الله سبحانه بالحسين فعلة لم يفعلها بالمسيح ولا بزكريا ولا بيحيى ولا بأحد من الأنبياء وان الذبح في الظاهر كان الى اسماعيل الذي فدي بذبح عظيم ، هو الحسين الذي هو عينه واسمه ونسبه ، وليس بينهما فرق كأنهما واحد ولقد ذبح في الظاهر اكثر من الف مرة على ما يتوهم اهل الكفر ، وانما الحسين مثله كمثل المسيح ، وقوله تعالى :

« وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه » . فهذه الصفة صفة قتل الأنبياء والأوصياء والأولياء ، والله يفعل ما يشاء .

وفي كتاب آخر يذكرون أن الذي فدي به الحسين كان الأدلم ، أي أدلم قريش . واشتبه على الناس قتله كما اشتبه على من كان قبلهم في قتل المسيح باعتبار ذلك سراً من اسرار الله اشكله على الناس ولم يعرفه الا خاصة اوليائه وعباده المؤمنين المختصين من خلقه لأن الامام حسب اعتقادهم يدخل في الابدان طوعاً وكرهاً ويخرج منها اذا شاء طوعاً وكرهاً كما ينزع احد الناس جبته وقميصه بلا تكلف ولا ريب ، فلما اجتمعوا على الحسين ليقتلوه ، خرج من بدنه ورفعه الله اليه ، ومنع الأعداء منه .

ويذكرون بأن الحسين لما خرج الى العراق كان تعالى محتجباً به وصار لا ينزل منزلاً الا ويأتيه جبريل فيحدثه حتى اذا كان اليوم الذي اجتمعت فيه العساكر عليه ، واصطفت الخيول وقامت الحرب ، حينئذ

دعا مولانا الحسين جبريل ، وقال له : يا أخي من أنا ؟ قال : انت حجاب الله الذي لا إله الا هو الحي القيوم والمحيي المميت ، انت الذي تأمر السماء فتطيعك والأرض فتنتهي لأمرك والجبال فتجيبك والبحار فتسارع الى طاعتك وانت الذي لا يصل اليك كيد كائد ولا ضرر ضار ..

فقال الحسين : هذا الخلق المنكوس تحدثهم انفسهم ان يقتلوا سيدهم لضعفهم ، ولكنهم لن يصلوا الى ذلك ، ولا الى أحد من اولياء الله ، كما انهم لن يصلوا الى عيسى والى أمير المؤمنين علي . ومن ثم نراهم يروون قصة شهادة الحسين بشكل قريب من الخيال بعيد عن الواقع والمنطق على لسان الصادق : حيث يشركون في المعركة التي قتل فيها الحسين الملائكة والدعاة والأبواب والحجج أمثال المفضل الجعفي وابي الخطاب والمؤمنين الموحدين « قال المفضل : يا مولاي ، هل كان مع الحسين يومئذ من المؤمنين الموحدين احد ؟ قال الصادق : كان معه مؤمن موحد وستراه معنا . قال : حضر ابو الخطاب . فقلت اسمع يا ابا الخطاب ما يقول مولاي الصادق : فقال أبو الخطاب : نعم كنت انا معه . ثم رجع مولانا جعفر الصادق الى حديثه . فقال : ان الحسين لما احدقوا به طلب جبريل وميكايل واسرافيل والملائكة أجمعين والمؤمنين الموحدين فأجابوه : فقال : اعتلوني الى الهواء . فأعلى الحسين وغلامه جبريل . ثم تلا قوله : « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » . ثم أخذهم اخذ عزيز مقتدر . قال المفضل : يا مولاي ، أكان اصحاب الحسين يرون جبريل ؟ قال الصادق : نعم ويرون ميكائيل واسرافيل ، وانا اراهم وانت تراهم . قال المفضل : يا مولاي وانا ارى جبريل واسرافيل وميكائيل .. قال : نعم . قلت : يا مولاي في صورة واحدة

أم في صور شتى ؟ قال عليه السلام : بل في صورتنا . قال المفضل : يا مولاي متى رأيت جبريل ؟ قال رأيته اليوم . قال المفضل : واين ؟ فقال : في منزلنا هذا . قلت : وفي اي وقت ؟ قال الصادق : في ساعتك هذه . أتحب أن يكلمك ؟ قلت أي والله . قال : يا ابا الخطاب انت جبريل . قال أبو الخطاب : والله انا جبريل ، وانا والله الذي وجهني الحسين منه السلام إلى الملعون عمر بن سعد ، وانا الذي كلمته وأكببت وجهه في النار هو واصحابه اجمعهم ، وانا المتولي بعذابهم بأمره ، وانا صاحب آدم الأول وأمرني فهتفت بالخلق هتفة واحدة ، فقطعت منهم الأوصال وأوثقتهم بالسلاسل والاغلال ، وأنا صاحب نوح ودعوب قومه الى عبادة الله ووحدانيته ، فلم يقروا ففرّقتهم بالطوفان ، وأنا صاحب ابراهيم حين جحدوه ورموه بالنار ، وانا والله كنت معه فما اصابني الا واياه حر النار ، وأنا صاحب دانيال والتابوت والصحف ، وانا والله كتبتها بيدي وخطي ، وانا لم اشك قط ولا اشك ابداً في ربوبيته ، وانا صاحب موسى وعيسى ومحمد ، وأنا أبو الخطاب وأبو الطيبات ، وانا الذي صاح بأهل المؤتفكة صيحة فدمرتهم ، وأنا بين يدي كل امام في كل عصر وزمان على صور مختلفة واسماء مختلفة ، وانا مع القائم بين يديه أنسف الظالمين بسيفه ، ويأمرني فأطيعه .. ثم أقبل رجلان لم اعرفهما . فقال الصادق : أتعرف هذين ؟ قلت : لا يا مولاي قال : هذان ميكائيل واسرافيل ، احدهما كان في المشرق والآخر كان في المغرب . قلت يا مولاي ، فما كانا يصنعان ؟ فقال : وجهتهما في حاجة ، قال : هل كانا معك يا ابا الخطاب على عهد رسول الله وعلى عهد امير المؤمنين علي ؟ قال ابو الخطاب : نعم وعلى عهد عيسى وموسى وابراهيم ونوح ، ومن قبل كانا معي على عهد آدم عليه السلام .. يا مفضل لقد اعطيت فضلاً كثيراً وتعلمت علماً باطناً فعليك بكتمان سر الله ولا

تطلع عليه الا ولياً مخلصاً فان فشيته الى اعدائنا فقد أعنت على قتل نفسك . »

ومن هنا يتبين لنا بان النصيرية يعتقدون بأن حدودهم الدينية قد يحتجبون في صور بشرية ويتنقلون في كافة الأدوار والأكوار ، أو بالأحرى ان الحدود الأربعة الحرم احتجبوا منذ بدء الخليقة كما احتجب الباري تعالى بآدم بالصورة البشرية وأخذوا يتنقلون من صورة الى صورة بنفس مراتبهم الروحية ، ولكن على صور مختلفة وأسماء مختلفة في كل عصر وزمان كما يتضح لنا من النصوص الواردة اعلاه بان الفرقة الخطابية والفرقة المفضلية قد انصهرتا في البوتقة النصيرية بعد وفاة مؤسسيها .

ومن الأسس التي ترتكز عليها العقائد النصيرية اعتقادهم العميق بأن الأئمة وحدودهم الدينية يعلمون الغيب ، ولهم في ذلك كرامات ومعجزات وخوارق لا يستطيع الاتيان بها أي انسان غيرهم مهما بلغ من السمو والارتقاء ، لذلك نرى اكثر كتبهم مشحونة بعشرات الخوارق التي تروى على أن الأئمة قد فعلوها . وعلى سبيل المثال نروي هذه الكرامة عن أمير النحل علي بن أبي طالب (ع) كما وردت في كتاب نصيري : « ان امير النحل علي قد بلغه عن عمر شيء فأرسل اليه سلمان الفارسي . فلما رآه قال له : يسألك امير النحل عما قلته أنت وفلان في هذا اليوم ؟ فكرهت أن أفضحكما ولكن لا بد أن نفك هذين القرنين من المال الذي قد حمل اليكما من خراسان : قال سلمان : فلما قلت له ذلك تغير وجهه يعني الأدلم ، واسقط ما في يده وارتعدت فرائصه . فقال عمر : أما الكلام ، يا سلمان ، الذي جرى صبيحة أمس ، فما اطلع عليه احد الا انا وفلان ، وليس من واحد يفشي سر صاحبه فمن اين يا سلمان علم

صاحبك بذلك ؟ واما المال الذي اتاني من خراسان ، فوالله لم يعلم به احد من خراسان بتوجهه اليّ الا صاحبي ، ولم يفهم أحد من أهـــل المدينة غيري ، وما ارى ابن أبي طالب عليّ الا ساحراً عليمـاً بكل شيء ، وها اني اخبرك عن سحره يا سلمان ، فقال سلمان : فطلبت اليه أن يتكلم .. كنت ذات ليلة في منزلي وقد اختليت به في شيء بيني وبينه . فبينما نحن كذلك وقد طال الحديث بيننا ، قال لي مكانك حتى انصرف وأعود اليك .

فخرج عني . فما غاب يسيراً حتى عاد بأسرع من طرفة عين وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وعليها غبار . فقلت له : اين ذهبت ؟ فقال ان طائفة من الملائكة اقبلت في عسكر ومعهم رسول الله وهو يريد مدينة في المشرق اسمها (شخور) تقع عند مطلع الشمس .

فقمت واستقبلت رسول الله . ثم سلمت عليه . وهذا الغبار الذي تراه يا عمر عليّ من عجاج الملائكة . فضحكت يا سلمـان من قوله . وقلت له : كيف يكون ذلك والرجل قد مات منذ خمس سنوات وانت تزعم انك قد لقيته الساعة وسلمت عليه . هذا لا يكون أبداً . فنظر اليّ نظرة خفيفة ، ثم قال ويحك أتكذبني ؟ فقلت له : لا تغضب يا بن أبي طالب ، هذا لا يكون ولا يسمع بمثله . من أين جئت به ؟ فقال أمير المؤمنين : أتحب ان اعرضه عليك مع الملائكة ؟ فلما سمعت ذلك قلت له : نعم . وكيف لا أحب ان ارى مثل هذه الاعجوبة . فقال لي علي قم بنا ثم أخرجني الى طريق المدينة ، ومسح عينيّ وقال لي : انظر . فنظرت واذا بخيل لا يحصي عددها الا الله ، واذا برسول الله قد أقبل مع الملائكة فما انكرت منه شيئاً غير أنه كان أبيض الرأس

والعصبة ، ثم بقيت متعجباً حتى جاوزني رسول الله ومضى مع الملائكة والخيول وانا انظر في اثره . فنظر إليّ صاحبك وقال : هل رأيت ما اخبرتك به ؟ قلت نعم . وانا متعجب مما رأيت . ثم انه مسح بيده على عينيّ فاذا انا لا أرى ولا انظر لا الغبار ولا الخيول .. »

واذا ما حاولنا أن نستعرض كل مـــا كتبه النصيرية عن معجزات وعلوم الائمة والحجج والأبواب للغيب لما اتسع نطـــاق هذا الكتاب بل ولا عشرات الكتب . وباعتقادي ان كل هـذه المعجزات والكرامات رويت للاثبات على القوة الروحية الخارقة التي يتمتع بها الأئمة وحدودهم الدينية ليكونوا دائماً وابـداً موضع تقديس واحترام وتقدير من قبل الأتبـاع .

وفي نهاية المطاف نرى أن نشير الى رأي النصيرية واعتقادهم بأن الله تعالى سطع نوره ، ثم خلق من ذلك النور قدة وصورة ، ثم أمر ذلك النور ان يقـــد صوراً وقدداً . فأقاموا صوراً وقدداً على النور المسطوح ثم عبدوا الله ولم يعصوه ، ثم امر ان يخلق ناراً مسطوحة وأمره ان يقدّ منها قدداً ويصير منهـــا طيوراً حوراً ، فقاموا لله عابدين . فنهيات النورانية أن تختلط في النارية فاختلط بعضها . فسطح خلقاً من خلقين ثم امره ان يخلق ريحاً ، فخلق ثم امره فقدّ منها قدداً وصور منها صوراً فقاموا عابدين فأمر النارية الا تختلط في الريحية ، فاختلط بعضها . فسطح الارض الذي اختلط فأمره ان يخلق ماء فخلق وصور منها صوراً وقدّ منها قدداً فأمر الريحية ان لا تختلط في المائية فاختلط ثم خلق طيناً من البحرين العذب الفرات والمالح الاجاج ثم أمره وقد منه قدداً وصور منه صوراً فأمر المائية ان لا تختلط بالطينية فاختلط البعض فسطح منه مـــا كان بدء الخلق الممزوج الاربعة النور والنار والريح والماء ، وسطح منه

طينة آدم ثم خلق من شأن الآخرة فركبت الاطباع ، ومن الشيء نصفه خَلِقَ عالياً ونصفه خَلِقَ سافلاً من الصخرة وهمّ عليها قرار الأرضين لان سطحها على حوت والحوت على الماء ، وصار الماء على الصخرة ، والصخرة بيضاء وهي على الهواء ما بين الهواء الى الصخرة والجن هناك جامدة مركبة الطبقة ، ثم خلق آدم واسكنه ظهرها وامره ونهاه وجعل ثوابه في الأمر والنهي في الدنيا والآخرة .

على هذه الصورة نجـد كل العقائد النصيرية تتلفع بالغموض والتقية والمعجزات التي لا تخطر على بال الباحث . وقد نصبح في رأي بعض المشائخ المتعصبين لكوننا تعرضنا لهذه النواحي الدينية من الملعونين المارقين او من المعتوهين المجانين ، ولكن هذا لا يهمنا ما دمنا اوردنا الحقيقة التي تنير السبيل امام الباحثين والمهتمين بالدراسات الاسلامية ، ولكن لا بد لنا ونحن في نهاية المطاف من ان نهمس في آذان هؤلاء وغيرهم من رجال الدين ، او ممن لا يزالون حتى هذا العصر عصر الذرة والاكتشافات الكونية يعتبرون انفسهم يعيشون في كهوف التقية ، ومغائر السرية ، وسراديب الكتمان ، لذلك يجب ان لا يتعرض اي باحث او عالم او مؤرخ للعقائد الباطنية السرية لأنها من الأشياء المقدسة ، لا تمسها الا أيدي مستحقيها من السذج والبسطاء الذي لا يستطيعون ان يحللوها ويبدو رأيهم العقلي فيما صالح منها ، فنقول لهم بأن التاجر الذي يملك البضاعة الجيدة التي فيها نفع للناس لا يخشى ابداً من طرحها أمام الجماهير المتشوقة لمعرفة كنهها ليختاروا ما يلائم اذواقهم وعقولهم ، ويتركوا ما لا تستسيغه عقولهم واذواقهم . اما ان يسدل هذا التاجر على بضاعته الستائر والسجف وبنفس الوقت يعلن بانها من أجود البضائع فلا بد من ان يتعرض للتقولات والتكهنات والاتهامات .

هذا هو بوضوح وجلاء ما استطعنا تقديمه للقارىء الكريم من معلومات

وألقيناه من اضواء على الحركات الباطنية في الاسلام عسى ان يكون فكرة صحيحة عن هذه الحركات التي رجت العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه . وكلنا امل ورجاء بأن نكون قد وفينا هذا الموضوع الخطير حقه من البحث والاستقراء ، تبعاً لتطور العلم والثقافة والتقدم الفكري . والله الموفق لما فيه الخير والفلاح والمجد والسؤدد والسلام .

المراجع

نورد فيما يلي المراجع العربية والأجنبية والكتب والرسائل المخطوطة المقدسة التي اعتمدنا عليها في تأليف هذا الكتاب .

المراجع الأجنبيّة

- خطط المقريزي أو كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : للمقريزي
- تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) : أبو الفداء
- النجوم الزاهرة : ابو المحاسن
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء : للمقريزي
- الاشارة الى من نال الوزارة : لابن منجب الصيرفي
- عيون المعارف وفنون أخبار الخلائق : لأبي عبدالله القضاعي
- وفيات الأعيان : لأبن خلكان

- الكامل : ابن الأثير
- كشف اسرار الباطنية : ابن مالك
- تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ، المذيل به كتاب نظم الجوهر المعروف بتاريخ سعيد ابن بطريق .
- نهاية الأرب في فنون الأدب : للنويري
- الفهرست : ابن النديم
- مروج الذهب : للمسعودي
- تاريخ الخلفاء : السيوطي
- تاريخ القرامطة : ثابت بن سنان
- بيان الأديان : أبو المعالي
- مقالات الاسلاميين : الأشعري
- الملل والنحل مجلدان : الشهرستاني
- الفرق بين الفرق : لأبي منصور عبد القاهر البغدادي
- فضائح الباطنية : الغزالي
- فتوح البلدان : البلاذري
- الحاكم بأمر الله المفترى عليه : عبد المنعم ماجد
- الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية : محمد عبدالله عنان
- خطط الشام : محمد كرد علي
- فهرست كتب الشيعة : الطوسي
- العبر وديوان المبتدأ والخبر : لابن خلدون
- قاموس الأعلام : شمس الدين سامي
- الذريعة الى تصانيف الشيعة : آغابزرك
- منهاج المقال : الاستراباذي
- معرفة الرجال : الكشي

- بحار الأنوار : المجلسي
- معالم العلماء : ابن شهراشوب
- فرق الشيعة : النوبختي
- تجارب الأمم : مسكويه
- أصل الموحدين الدروز واصولهم : أمين طليع
- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام : بندلي جوزي
- الدروز ظاهرهم وباطنهم : محمد علي الزعبي
- طائفة الدروز : محمد كامل حسين
- تاريخ الدروز : لسليم ابي اسماعيل
- بنو معروف : لسعيد الصغير
- فلاسفة الشيعة : عبدالله نعمة
- تاريخ الدولة الفاطمية : حسن ابراهيم حسن
- تاريخ الدعوة الاسماعيلية « الطبعة الثانية » : مصطفى غالب
- اعلام الاسماعيلية : مصطفى غالب
- تاريخ الاسماعيلية السياسي : شرف
- طائفة الاسماعيلية : كامل حسين
- التاريخ العلوي
- الدروز والثورة السورية : كريم ثابت
- زوبعة الدهور : مارون عبود

الكتب الاسماعيلية

– دعائم الاسلام	: للقاضي النعمان
– راحة العقل	: للكرماني
– مذكرات آغا خان	: لآغا خان
– المجالس المؤيدية	: المؤيد في الدين داعي الدعاة
– ديوان المؤيد في الدين	: « « « «
– سيرة المؤيد في الدين	: « « « «
– المجالس المستنصرية	: للداعي ثقة الاسلام
– اسرار النطقاء وتأويل قصص الأنبياء	: لجعفر بن منصور
– البيان لمباحث الاخوان	: للشادلي حققه ونشره مصطفى غالب
– الينابيع	: للسجستاني حققه مصطفى غالب من منشورات المكتب التجاري – بيروت
– الرسالة الدرية	: للكرماني حققها كامل حسين
– الرسالة الواعظة	: للكرماني حققها كامل حسين
– رسالة مباسم البشارات	: للكرماني مخطوطة
– سيرة جعفر الحاجب	: لجعفر الحاجب مخطوطة
– مناقب سنان راشد الدين	: ابراهيم ابوفراس «

ـ كنز الولد	: علي بن الوليد
ـ أساس التأويل	: القاضي النعمان
ـ كتاب الرياض	: للكرماني
ـ عيون الأخبار	: أدريس عمادالدين
ـ زهر المعاني	: « « «
ـ رسائل اخوان الصفاء	
ـ رسالة الجامعة	
ـ زبد رسائل اخوان الصفاء	
ـ رسالتان اسماعيليتان	: حسن المعدل تحقيق مصطفى غالب
ـ اختلاف اصول المذاهب	: للقاضي النعمان تحقيق مصطفى غالب
ـ الحسن بن الصباح الحميدي	: لمصطفى غالب
ـ اثبات الامامة	: احمد النيسابوري تحقيق مصطفى غالب
ـ فصل من اللفظ الشريف	مخطوط
ـ البستان	«
ـ بيت الدعوة الاسماعيلية	: ابراهيم أبو فراس
ـ تنبيه الهادي والمستهدي	: للكرماني مخطوط
ـ الأزهار	

كتب ورسائل درزية

– رسالة البلاغ والنهاية	: حمزة بن علي هادي المستجيبين
– رسالة الغاية والنصيحة	» » » »
– الرسالة الموسومة ببدء الدعوة لتوحيد الحق	» » »
– ميثاق النساء	» » »
– السيرة المستقيمة	» » »
– رسالة سبب الاسباب	» » »
– الرسالة الدامغة في الرد على النصيري	» » »
– رسالة الرضا والتسليم	» » »
– رسالة التنزيه لدعوة الحق	» » »
– رسالة النساء الكبرى	» » »
– رسالة الاعذار والانذار	» » »
– رسالة التحذير والتنبيه	» » »
– كتاب النقض الخفي	» » »
– كتاب فيه تقسيم العلوم	: اسماعيل بن محمد التميمي
– رسالة الزناد	» » »
– رسالة الشمعة	» » »
– رسالة الرشد والهداية	» » »
– قصيدة النفس	» » »

الكتب النصيرية المخطوطة

- فترة المنصان ونزهة القلب والعيان
- كتاب الاسوس
- كتاب الهفت الشريف رواه المفضل الجعفي وحققه مصطفى غالب ونشرته دار الاندلس في بيروت
- الباكورة السليمانية
- رسالة الحروف والقباب
- كتاب مجموع الأعياد
- كتاب الأكوار والأدوار النورانية

هذه هي الكتب النصيرية التي استطعنا الحصول عليها بعد جهود قاسية مضنية بذلنا خلالها الكثير الكثير.. ولا أذهب بعيداً اذا قلت بان هذه الكتب على قلتها تشتمل على معلومات دقيقة لا توجد في كتب العقائد والفرق الأخرى ومما لا شك فيه بان هناك كتباً عديدة اخرى تضم جوهر العقائد النصيرية وفلسفتهم الباطنية ، ولكن أصحابها يحرصون عليها أشد الحرص ويضحون في سبيل سريتها بالنفس والنفيس .

المـراجع العربيـة

The Origins of Ismailism — Bernard Lewis
History of the Ismailis — Picklay
Grand maitre des assassins — Guyard's
A Guid to Ismaili Literatur — W. Ivanow
The rise of the Fatimids — W. Ivanow
Memoire sur les Carmathes — De Goeje, M. J.
Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis - Guyard's
Histoire de la philosophie Islamique — Henri Carbin
Polemies on the origine of the fatimie Caliphs - M. P. H.
Kar matians, Article in El. — Masignon, L.
Explication du plan de Kufa — » »
Exposé de la réligion des Druzes 2 vols — De Saey, s.
Die Nusairi Naçhms Arab,Berlin 4291 — R, Strothmann
The Alleged, Founder of Ismailism — W. Ivanow

فهرست